جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

المرأة فى شعر د/عبد الرحمن صالح العشماوي
ـ دراسة أدبية تحليلية

الدكتور
مصطفى عبد اللطيف أحمد أبو طه
مدرس الأدب والنقد
فى كلية اللغة العربية بالزقازيق
جامعة الأزهر

العدد الثامن عشر
للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م
الجزء الأول

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م

الترقيم الدولى : ٩٠٥٠ / ب ISSN ٢٣٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث :

الحمد لله الذى خلق الناس من نفسٍ واحدة ، وجعل منها زوجها ، وبثَ منهما رجالاً كثيرا ونساءً .. والصلاة والسلام على القائل : " استوصوا بالنساء خيراً .." [(١)] ، والقائل : ".. إنما النساء شقائق الرجال..[(٢)] سيدنا محمد صلى الله عليه ، وعلى آله الغُرِ الميامين ، وصحبه الطيبين الطاهرين .. وبعد .

فما يزال أدبنا العربى الحديث والمعاصر يجُود بالنماذج الشعرية الرقيقة الصافية ، ويفيض بالتجارب الإبداعية السامية الراقية التى تنطلق من وحْي الشرع الحكيم ، وتستأنس بهْديه الرشيد ، ماتحة من نبعه الثر ، ومتدفقة من نهره الفَياض .. تلك النماذج من شأنها أن تسمو بأذواق المتلقين ، وترقق من مشاعرهم ، محلقة بهم نحو عوالم من السمو والطهُر ، والرفعة والفضيلة ؛ بما تغرسه فيهم من المشاعر الإنسانية النبيلة ، والعواطف الآدمية الراقية ، والقيم الروحية السامية التى حث عليها الإسلام ، ودعا أتباعه إلى التحلى بها ، والنزول على هَدْيها ، والتى رغَب أبناءه فيها ، فلم يصطدم الإسلام قط معها ، ولم يقف أبدا فى طريقها ، ولم يحاربها ، وإنما وظفها واضعاً إياها فى إطارٍ من الفضيلة والعفاف ، ومُقننا لها بما يتفق وقيمه السديدة ، وتعاليمه الرشيدة .. تلكم هى مشاعر الرجل نحو المرأة .. أيا كان موقعها منه ، ودرجة قرابتها له.. أُما كانت، أم أختاً ، أم زوجة ، أم بنتاً، أم عمة ، أم خالة، أم أمرأة من نساء المسلمين عامة أينما وُجدت .. وقد شاءت إرادة الله جل وعز . أن تقع فى يدى الأعمال الكاملة للشاعر المسلم الملتزم . حتى النخاع . الدكتور عبدالرحمن صالح العشماوي .. ووجدتنى فى حيرة من أمرى أي ديوان منها أبدأ فى مُطالعته ، وإلى أي وُجهة أُولِّى نحو تلك الأعمال وُجهتى ..

---

(١) أخرجه الإمام ابن ماجة فى سننه فى كتاب النكاح .. باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥١ .. وهو ضمن حديث حجة الوداع اجتُث منه اختصاراً ، وله أصل فى مسلم بلفظ : " اتقوا الله فى النساء " .. صـ ٥٩٤ – رقم الكتاب (٩) – رقم الباب فى الكتاب (٣) – جـ ١ – ط دار إحياء التراث العربي – بدون تاريخ – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه فى كتاب الطهارة .. ج١ – صـ ٥٩ – بدون تحقيق – ط دار الحديث – القاهرة ، وأخرجه الترمذي فى كتاب الطهارة بلفظ : " إن النساء شقائق الرجال " .. ج١ – صـ ٣٢٦ – ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – تحقيق صدقى محمد جميل العطار – تحفة الأحوذي مع المتن .

وبخاصة أن شعر ذلكم الشاعر يعد بحق أنموذجاً فذاً للشعر الإسلامي المستنير ، الملتزم بقيم وأعراف وتقاليد الدين الحنيف ، والمُنطلق ـ من خلال تصور الإسلام للإنسان والكون والحياة .. حيث يفيض جميعه ـ بروح الإيمان ، وينضح برائحة الإسلام ، ويقطر ويتدفق من نهر الالتزام .. ومن ثم بات ينبوعاً ثراً ينساب منه سيل الإيمان ، بل ينابيع يتدفق منها نهره الفياض .. ويطيب لنا فى هذا الصدد أن نستمع إلي شاعرنا وهو ينبئ عن منهجه فى الأدب ، كاشفا عن طبيعة نظرته إليه ، حيث يقول : " من الضروري طرح المنهج الإسلامي فى الأدب طرحاً علمياً موثقاً ، تبرز من خلاله وشائج الاتصال القوي بين شخصية أمتنا الإسلامية والأدب الحي النابض الذى يُعبر عن هذه الشخصية .. "(٣) .

وينوه شاعرنا الدكتور/ عبدالرحمن صالح العشماوي عن طبيعة نظرته إلى الأدب بعامة ، والتجارب الشعورية ، والإنسانية بخاصة ، مُؤكدا تلك النظرة فى موضع آخر من كتاباته حيث يقول : " يمكننا أن ندخل إلى موضوع التجربة الشعورية من بوابة تلك العبارة التى أوردها السيوطي فى كتابه : " الدر المنثور فى التفسير بالمأثور " حيث نقل حديثا ورد فيه أن رسول الله ﷺ قال لعبدالله بن رواحة : " ما الشعر ؟ فقال : شئ يختلج فى صدر الرجل فيُخرجه على لسانه شعراً " .."يختلج فى صدر الرجل " هذه العبارة صريحة كل الصراحة فى التعبير عما نُسميه اليوم بالتجربة الشعورية ، ولها أهميتها فى إعطاء صورة متكاملة مع غيرها من الصور الأخرى التى تتعلق بالرؤية الإسلامية الشاملة للأدب .. فكلمة " يختلج " التى قالها ابن رواحة تُعبر بوضوح عن حقيقة مايجرى فى قلب الشاعر قبل أن ينفثه شعراً مشحوناً بعواطفه المتأججة ، فهي كلمة تدل فى معناها المعجمي على الحركة والاضطراب .. فهي من خَلجَ يَخْلجُ بمعنى : جذب ، وغمز ، وانتزع وحرك وشغل وطعن .. وتَخَلج بمعنى : اضطرب وتحرك "(٤) .

ويؤكد ذلكم الشاعر الأكاديمي د/ العشماوي أن الإسلام يُعنى بالعواطف الإنسانية ، ويحترمها ، ويُقدرها ، ويعتد ويعترف بها ، ولا يدعو إلى كبتها

---

(٣) علاقة الأدب بشخصية الأمة ـ د / عبد الرحمن صالح العشماوى صـ ١٠ ـ ط مكتبة العبيكان ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

(٤) علاقة الأدب بشخصية الأمة ـ د/ عبدالرحمن صالح العشماوى ـ صـ٩٢ ، ٩٣. وينظر الدر المنثور: للإمام السيوطى ٩٩/٥ ط ـ دار المعرفة .د . ت ، وينظر سير أعلام النبلاء : للذهبى ١٦٨/١ ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ معهد المخطوطات . د . ت ، وينظر لسان العرب : للإمام العلامة ابن منظور: المجلد الثالث صـ ١٧٠ ـ ١٧٣ ، ط ـ دار الحديث ـ القاهرة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م .

ومحاربتها مادامت تُوظف فى إطارٍ من الفضيلة والطُّهر ، والعفاف والصُون ، حيث يقول : " إن الإسلام يُعنى بجوانب النفس البشرية كلها ، ولا يغفل عواطفها، ولا ينظر إليها نظرة مثالية مُخالفة لطبيعتها البشرية ، إنه يراعى هذه العواطف ، ويُوجهها إلى ماهو خير لها فى دنياها وآخرتها .. يشير إلى ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام لمالك " فإن رابك منه شئ فَشبِب بامرأتك ، وامدح راحلتك .." وفى هذا توجيه نبوي للشاعر إلى مايُبعده عن المحظور الشرعي فى شعره " فبدلا من المدح المُبالَغ فيه ، وبدلا من التشبيب بمحارم الناس يمكن أن يمدح الشاعر راحلته ، وأن يشبب بزوجته إذا غلبه الشعر "(٥) .

أعود فأقول بعد أن وقفت حائرا إزاء هذا الكم الهائل من قصائد ذلكم الشاعر المُلتزم حتى النخاع ؛ فكان أن هدانى الله . سبحانه . إلى دراسة ظاهرة شعرية تبدو جلية فى شعره ، ومعالجة مضمون يبدو بارزا بين مضامين نظمه المتشبعة بروح الإسلام ، النابعة من هديه الرشيد ، والمنطلقة من خلال تصوره الحكيم.. إنها صورة المرأة فى شعره وكيف أنه ينظر إليها نظرة الإسلام ذاتها ، حيث يعتد هو . الآخر. بكرامتها وإبائها وآدميتها ، مؤكداً كيف أنها فى ظل الإسلام موضع تكريم وتبجيل ، واحترام وتقدير فهي شقيقة الرجل ، ونصفه الآخر. والذى تستقيم بهما الحياة، ويصلح الكون بهما جميعاً، سواء أكانت أما، أم أختاً، أم زوجة، أم بنتا، أم امرأة مسلمة حيثما كانت على أرض المعمورة.

ومن ثم تأتى أهمية تلك الدراسة ، وتكمن قيمتها .. حيث تعالج مضمونا رقيقا من شأنه أن يمس شغاف النفس ، ويضرب على أوتار الوجدان ، ويعلق بنياط الفؤاد ، ويؤكد إنسانية الإنسان ، وفى الوقت ذاته يسمو بذوق المتلقين ، ويُحلِّق بمشاعرهم نحو عوالم من الطهر والفضيلة والعفاف والصون ؛ بما تقوم عليه من تصويرمشاعرحميمة ..، والبوح بأحاسيس ذاتية ، وعواطف إنسانية رقيقة بين الرجل والمرأة . نصفه الآخر – وذلك فى لغة رقيقة سامية راقية لاتخدش الحياء ، ولا تصطدم بالذوق الإسلامي الراقى الرفيع ..حيث تنطلق نظرة الشاعر إلى المرأة هنا . على اختلاف مواقعها، وتنوع درجات قرابتها منه من منطلق نظرة الإسلام الراشد إليها ، وتصوره الحكيم إزاءها .. وهذا التوجه فى الشعر. أعنى التوجه الإسلامي يروقنى منذ أن تخصصتُ فى البحث فى ميدان الأدب والنقد ، ويستميلنى

(٥) علاقة الأدب بشخصية الأمة : د/ عبد الرحمن صالح العشماوي صـ ١٤٦ .

، بل ويستولى على مجامعى ، ويأخذ بتلابيب نفسى ، آخذاً إياها نحوه أخذاً .. لا سيما إذا كان ذلك التوجه عند شاعر فى قامة وقدر عبد الرحمن صالح العشماوي – ذلك الذى كثف من ذلك التوجه الإسلامي ، وألح عليه فى شعره – حتى بدا فى صورة الشاعر الملتزم حتى النخاع .

وقد اقتضت طبيعة تلك الدراسة أن تأتى فى فصلين يسبقهما تمهيد ، ويعقبهما خاتمة ، يأتى بعدها ثبت بمصادر الدراسة ومراجعها .

أما التمهيد ففيه التعريف بالشاعر د/ عبد الرحمن صالح العشماوي ، حيث حديثى عن مولده ، ونشأته ، وشاعريته وثقافته ، والمؤثرات التى أثرت فى كيانه الأدبي والإبداعي .

بينما يأتى الفصل الأول بعنوان : الآفاق الموضوعية لشعر المرأة عند عبدالرحمن العشماوي .. حيث أعالج من ـ خلاله ـ المضامين التى ارتادها الشاعر ، والأفكار التى عالجها ـ وهو بصدد الحديث عن المرآة ـ على اختلاف مواقعها ، وتنوع دراجات قرابتها منه ، وسينطلق الحديث عن تلك المضامين فى شعره من خلال النقاط " المباحث " التالية :

المبحث الأول : شعره فى أمه .
المبحث الثانى: شعره فى المرأة "المحبوبة"
المبحث الثالث: شعره فى الحب ، ومذهبه فى الهوى
المبحث الرابع: شعره فى زوجه .
المبحث الخامس: شعره فى أخواته وبناته .
المبحث السادس : شعره فى المرأة المسلمة بعامة.

بينما نلتقى بعد ذلك بالفصل الثانى ، والذى يحمل عنوان : "السمات الفنية لشعر المرأة عند العشماوي" ، وتعالج الدراسة ـ من خلاله ـ النقاط " المباحث " التالية :

المبحث الأول : بناء القصيدة – خلال تجارب الشاعر فى المرأة.
المبحث الثانى : معجم الشاعر ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة .
المبحث الثالث : من خصائص التراكيب فى أساليب الشاعر ـ خلال شعره فى المرأة .

المبحث الرابع : من الظواهر البديعية فى أساليب الشاعر . خلال شعره فى المرأة .

المبحث الخامس : الصورة الفنية . خلال تجارب الشاعر فى المرأة

المبحث السادس : عاطفة الشاعر. خلال تجاربه فى المرأة .

المبحث السابع : موسيقى الشاعر. خلال تجاربه فى المرأة .

وإننى فى هذا المقام أضرع إلى ربى . سبحانه . ، وأتوجه إليه واثقا فى عونه ومدده ، راجيا أن أكون قد وُفقت فى إتمام هذا العمل ، وإخراجه فى الصورة المنشودة ، وأن يفيد منه الدارسون والباحثون من شداة أدبنا العربى ، ومُحبى لغتنا الجميلة ..

(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

الباحث

التمهيد

عبد الرحمن صالح العشماوي الإنسان والمثقف والشاعر نشأة وحياة وثقافة ومؤثرات ، ويتضمن النقاط التالية :

أ – مولده ونشأته وثقافته .

ب– مؤثرات محورية ، وعوامل جوهرية صنعت وشكلت وجدان العشماوي الإنسان والشاعر والمُثقف ، وتتمثل فيما يلى :

أولاً : أمه. ثانياً : قريته. ثالثاً : موهبته.

رابعاً : أساتذته ومُعلموه ، ومدى تأثيرهم فيه .

خامساً:– تفاعله مع أحداث عصره ، ومدى تبنيه لقضايا أمته الإسلامية حيثما كانت على أرض الإسلام المترامية الأطراف .

جـ – إسهاماته الثقافية ، ومشاركاته الإعلامية ، وأعماله الإبداعية " كتاباته ومؤلفاته الأدبية والنقدية " .

أ : مولده ونشأته وثقافته :

ولد الشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي فى قرية تسمى (عراء) بمنطقة الباحة . بجنوب المملكة العربية السعودية سنة ١٣٧٥هـ .. يتيماً حيث فقد والده الشيخ صالح العشماوي . المدرس فى الحرم المكي الشريف . وهو فى سن غضة لتتولى أمه رعايته ، وتتعهد بتربيته ، وتقوم هي ووالداها بالقيام على شئونه هو وإخوته ، وتنشأتهم تنشئة قويمة ملؤها الطهر والاستقامة والفضيلة ، حيث تربى هو وإخوته فى كنف والدته ، وجديه لأمه .. وراحت أمه تُرضعه غذاء الإيمان ، وتُطعمه طعام الطهر ، وتسقيه شراب الاستقامة ، غارسة فيه وفى إخوته الفضائل ، مُضحية بحياتها .. واهبة عمرها ، ومؤثرة إياهم على سعادتها وهناءتها .. إذ رأت فيهم ذاتها ، ووجدت فى ذواتهم نفسها ، فراحت تجتهد وسعها فى بنائهم وتكوينهم ، وتشكيل وجدانهم وفق الدين الحنيف ، وهديه القويم ، وتغذية قلوبهم بمبادئه السامية ، وتعاليمه الرشيدة .

حيث لا يخفى على القارئ الكريم نشأة الشاعر فى ظل أسرة متدينة تتعهد بنيها بقيم الإسلام الرشيدة ، وتغرس فى كيانهم تعاليمه السديدة ، لا سيما أمه التى كان لها فضل كبير، وأثر محوري فى بناء وتكوين وجدانه الإسلامي ، ومن ثم

توجهه ودفعه دفعاً لينطلق إبداعه بعد ذلك من منطلقها وينهل من معينها ، ويستقى من ينابيعها .

.. وبعد أن أتم الشاعر دراسته الابتدائية فى مدرسة النجاح ببنى ظبيان فى قرية "عراء" مسقط رأسه فى منطقة الباحة ، وبعد أن أتم دراسته المتوسطة " الكفاءة " والثانوية " فى معهد الباحة العلمي بعد ذلك بدأت بوادر الشعر عنده تلوح وتلمع ، ولاحت بواكيره فى أفق عالمه الإبداعي تبدو وتظهر ، فراح يُبدع أشعاراً تتناسب مع تلك المرحلة من عمره .. وقد حظي فى المعهد بعدد من الأساتذة المُربين لقي منهم تشجيعاً على نظم الشعر ، وتحفيزا على إجادته .. وكان أن التحق بكلية اللغة العربية – بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٣٩٢ ـ ١٣٩٣ هـ .. وتخرج منها عام ١٣٩٨هـ .. ثم التحق بالدراسات العليا فى ذات الكلية بعد أن اختير معيداً بها ليقدم بعد ذلك رسالة الماجستير التى بعنوان : " الاتجاه الإسلامى فى آثار على أحمد باكثير القصصية والمسرحية " والتى ناقشها فى ١٤٠٣/٨/٤هـ بقاعة كلية الشريعة بالرياض .. ثم حصل بعد ذلك على درجة العالمية " الدكتوراه " ، وكانت أطروحته فيها بعنوان : (البناء الفني للرواية التاريخية الإسلامية المعاصرة) .. ليعمل أستاذاً مساعداً فى كلية اللغة العربية بالرياض ، فى قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بها .

ب– مؤثرات محورية ، وعوامل جوهرية صنعت وشكلت وجدان العشماوي الإنسان والشاعر والمُثقف .

وجدت عدة مؤثرات محورية ، ومجموعة عوامل جوهرية مجتمعة عملت معاً على تشكيل وجدان العشماوي الإنسان ، وأسهمت معا فى بناء كيانه الإبداعي والثقافي، تتمثل هذه المؤثرات ، وتكمن تلك العوامل فى عدة مظاهر هى :

أولاً : أمه . ثانياً : قريته . ثالثاً : موهبته .

رابعاً :أساتذته . خامساً : أحداث عصره .

وهاك أيها القارئ الكريم حديثاً مُفصلاً – بعض الشئ عن كل مظهر من تلك المظاهر :

أولاً : أمه :

لقد شاءت إرادة الله سبحانه أن يُولد هذا الفتى فى أسرة لم يدم فيها عمر عائلها طويلاً ، حيث مات والد الشاعر . وهو فى سن غضة ففقده وهو فى عمر مبكرة .. لتضطلع أمه بتربيته هو وإخوته ، مُضحية بحياتها ، واهبة عمرها من

أجلهم ، باذلة نفسها لقاء سعادتهم وهناءتهم .. مجتهدة قدرها ومخلصة فى أن تعوضهم عن فقد أبيهم ، وثكل عائلهم ، وغياب راعيهم ، حيث شملتهم بعطفها ، وفاضت عليهم بحنانها ، ولم تأل جهداً فى إسداء النصائح إليهم ، وبث المواعظ فيهم من أجل أن يكونوا نبتة صالحة ، وغرسا نافعاً ، وثمراً مفيداً ، فقامت من ثم بدور الوالد والوالدة معاً ، يعاونها فى ذلك والداها ، حيث نشأ الأبناء جميعاً . ومعهم شاعرنا فى كنف والدتهم الرءوم ، وأمهم الحنون ، وجديهم لأمهم .. نشأ هؤلاء الأطفال تنشئة عامرة بالإيمان ، غذاؤها الطهر والاستقامة ، وملؤها العفة والفضيلة ، ولأن الأم لم تبخل على بنيها ، ولم تُقصر فى دورها ، ولم تُهمل فى واجبها نحوهم فقد حملتهم على حبها وتقديرها ، ودفعتهم دفعاً نحو احترامها وتبجيلها ، ورد بعض الفضل لها ، والوفاء لشخصها فى حياتها ، ولروحها بعد ذهابها .. وقد بدا ذلك الحب الشديد ، والتقدير العميق فى وجدان شاعرنا فراح يشدو بأعذب الأناشيد ، وأطيب التغاريد مُتغنياً بِحُب والدته ، وتقديرها ، وإكبارها ، مصوراً عجزه إزاء ماقدمت ، وتقصيره نحو مابذلت ، فمهما قدم ، ومهما بذل ، ومهما صنع فلن يوفيها حقها ، ولن يكافئها قدرها .. واقفا إزاء ما قدمته له ولإخوته وقفة إعزاز وإكبار ، وتقدير وإجلال ، مُحيياً إياها على صبرها ووفائها ، وتحديها وتحملها الشدائد من أجل أداء ما اضطلعت به من رسالة شريفة ، وما قامت به من عمل مُضن تنوء بحمله الجبال ، وتميد به الأرض .. حتى صنعت من بنيها الرجال الذين راحت تزهو بهم ، وتُفاخر ، وتعتز ، وتُباهى .. جانية بذلك ثمرة كدها ، وحاصدة زرع عمرها ، إذ رفضت الزواج مؤثرة أبناءها ، فراحت تُكرس كل حياتها لهم ، غارسة فيهم ماتأكد فى حناياها ، وتربع فى أعماقها من وهَج الإيمان ، ونور اليقين ، حيث كانت أم الشاعر: " سيدة فاضلة مؤمنة أرضعت الإيمان لأبنائها ، كما أرضعتهم لبنها فسرى الإيمان فى دم عبدالرحمن فغذى قلبه ، وعقله وحسه ، ووجدانه ، وأضحى من ثم شعره ينبوعاً ينساب منه سيل الإيمان ، بل ينابيع يتدفق منها الإيمان .. مما يعد دليلاً واضحاً على مدى أثر المرأة :" الأم " فى تكوين شخصية ابنها الإنسان والشاعر والمثقف ، فإنها كانت أماً فاضلة أنشأت أبناء صالحين مؤمنين ، عقيدتهم راسخة ، وشخصيتهم متزنة ، لاتزعزها الأعاصير والتيارات ، بل تزيدها رسوخاً وثباتاً[٦] "

(٦) التيار الإسلامى فى شعر عبد الرحمن صالح العشماوى ــ تأليف سهيلة زين العابدين حماد

ولعل من مظاهر ودلائل ذلك الحب الشديد الكائن فى أعماق الشاعر إزاء والدته ، والتقدير البالغ ، والوفاء النادر لشخصها وروحها .. لعل من مظاهر ودلائل ذلك ولعه بالحديث عنها ، وإكثاره الملحوظ من التغنى بها فى شعره ، حيث أفرد لها ديوانا باسمها : " إلى أمى " .. بجانب القصائد العديدة المنتشرة فى أكثر دواوينه ، والتى كانت أمه محور الحديث فيها ، لاسيما ديوانه :" إلى حواء " والذى انطلق حديثه فيه عن المرأة أماً كانت ، أم زوجة ، أم بنتاً ، أم أختاً ، أم امرأة مسلمة حيثما كانت . انطلق فى ذلك من منطلق حبه لأمه، وتقديره لذاتها، واحترامه لكيانها ، حيث نجحت الأم فى أن تغرس فى نفس شاعرنا مشاعر الحب والاحترام إزاء المرأة ، ومن ثم النظر إليها نظرة المسلم ذى الذوق السليم ، والفطرة السوية ." فمما لاشك فيه أن لأمه أثراً كبيراً فى نظرته للمرأة ، إذ جسدت له الفضيلة والطهر والعفاف والحب والوفاء والإخلاص والإيثار والتضحية وإنكار الذات .. فالمرأة فى نظره هي الأمومة فى أجمل معانيها ، .. ولعل قصائده لأمه ، وعن أمه فى ديواني: "هي أمى" ، و"إلى حواء" مايعطينا صورة واضحة لمعنى الأمومة لدى الشاعر " .[٧]

حيث يلحظ المطالع لشعر العشماوي إفراده مساحة واسعة فيه للحديث عن المرأة .. وكان حديثه عنها حديث الطاهر العفيف ، المُحب لها ، الحريص على مافيه عفتها وطهرها والتزامها ، الناقد لتبرجها وسفورها ، المُبغِض فى ذلك والمُنفِر منه .. ويطيب لنا أن نحيا مع تلك التجارب للشاعر فى أمه بخاصة والمرأة بعامة .. كل فى موضعه وحينه . خلال دراستنا هذه . بإذن الله سبحانه وبتوفيقه .

ثانياً: قريته :

كان لمولد الشاعر ونشأته فى أحضان الريف . بما يتسم به من الهدوء والسكون ، والسحر والجمال ، وما يكون بين أبنائه عادة من صلات قوية ، وروابط وشيجة ، وما يكونون عليه من بساطة ، وفطرية ، ونشاط وحيوية ، ودأب وسعي

صـ ٧٥ ، ٧٦ ، مطبعة العبيكان ـ الرياض ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م

(٧) المرجع السابق – صـ ٩٩.

حثيث نحو جلب أرزاقهم .. كان لذلك أيضا أثره الكبير ، ودوره الحيوى فى تكوين شخصية الشاعر ، وتشكيل وجدانه .. حيث وُلد ونشأ ودرج ونما فى ظل تلك القرية الصغيرة .. " عراء " ، ناعماً بطفولة هادئة ، بعيدة عن صخب المدنية ، وضجيجها ، سالمة من سلبياتها وأضرارها .. فقد كسا ربوع قريته جمال فطري ، وشمل ذلك الجمال جنباتها ، وبيوتها وأهلها وقاطنيها .. ، ومن ثم سرى حبها فى ذاته ، وجرى فى عروقه ، ونفذ إلى أعماقه .. إذ راقته بيوتها الحجرية ، وأسقفها الخشبية ، ومزارعها السندسية ، وأسواقها الأسبوعية .. وراقه أيضاً ماتحظى وتنعم به من صفاء ونقاء ، وهدوء واستقرار .. لنستمع إليه وهو يوقفنا على مرحلة طفولته حيث قريته تلك التى تُوغل فى البساطة والفطرية ، ولا تعدم الحرمان ، وشظف العيش دون أن يشعر بضيق ولا شقاء ، ولا يُحس بضنك ولا عناء ، إذ إنه يجد السعادة فى هذه الحياة البسيطة ، ويرى الهناءة فى تلك المعيشة المتواضعة المقتصدة فى البهرج والزينة والترف ، والرياش ، قانعاً بها ، وراضياً ..

يقول فى كلمات تنبض بالصدق ، وتجسد الواقع ، وتبتعد عن الإدعاء والزيف :

لعبتُ بالتراب
لعبتُ بالتراب والحصى
رعيتُ فى طفولتى الغنم
وفى الصبا
رعيت بيتى الصغير
وأى بيت .. أيها الفتى ؟ ما عرفت جدرانه الدهان ؟!
وأرضه لم تعرف المفارش الوثيرة
ما كان فى منزلنا كنب
ولم يكن فى غرفتى سرير ، وأين غرفتى ؟ !
كشوكة
فى حلق بيتنا الصغير
ولم تكن
إذا أتى الشتاء
تحرمنا لذة المطر
لكن بيتنا

بالرغم من مظهره الحقير
لم يعرف الشقاء
وربما لأنه لم يعرف الثراء
.. إلى أن يقول :
ما كان فى قريتنا
تلفاز
ولم تكن تهمنا الإذاعة "[٨]

لذا نجده ـ أي الشاعر ـ قد تمزق ألماً ، وذاب حسرة ، ومات كمداً عندما زحفت المدنية على قريته فذهبت بصفائها ونقائها ، وأتت على هدوئها وسكونها .. ليستحيل ذلك الهدوء والسكون إلى صخب وضجيج كدرًا صفوها ، ووقبًحا جمالها ، ونالا من روائها وبهائها .. وراحت تطرأ عليها عادات وطباع وفدت إليها من المدينة بعد ماكانت جد غريبة عليها ، وبعيدة عن طباع أبنائها .. فتبدو من ثم الروابط بينهم ممزقة ، والصلات مقطعة بعد ماكانت مترابطة ، ومتلاحمة .. نجد الشاعر يعبر عن حزنه واستيائه ، وصدمته ودهشته إزاء ذلك التحول الذى انتاب قريته ، والتغير الذى حل بها ونزل بأرضها ، وطرأ على أهلها ، وانتابتهم مشاعر من القلق والاضطراب قد باعدت بهم عن الدعة والهدوء والاستقرار .. وما أصابهم من تباعد القلوب ، وتناكر النفوس ، وتباغض الصدور بعد أن أغارت عليهم سلبيات التمدين ، وغزتهم بعض مظاهره المريضة .. حيث يقول مقارناً ـ فى حسرة وأسى بين حالين متباينين ، وواقعين مختلفين تعاقبا على قريته هذه ، فتغيرت معالمها ، وتبدلت بالضرورة سلوكيات أبنائها :

كانت الحياة هادئة
واليوم يابنى . مثلما ترى
تقارب الزمن
فالنوم فى وطن
وقهوة الصباح فى وطن
تقارب الزمن

---

(٨) ديوان بائعة الريحان : عبدالرحمن صالح العشماوى صـ ٥٣ ـ طبعة مكتبة العبيكان ـ الرياض – السعودية ـ الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

لكننى
أحس بالتباعد المخف فى أنفس البشر
ماعاد فى القلوب نبضها القديم ! !
وحبها العظيم ! ![٩]

ثم ها هو ذا الشاعر يقف من قريته موقف المحب المشوق الذى ينتابه الشوق ، وتستبد به الصبابة إزاء مرابعها وملاعبها ، ومظاهر الجمال التى تنعم وتحظى بها مابين ماء رقراق ينساب على الأرض منحدرا إلى الغدير الذى يقوم بإرضاعه تشبه قطراته حبات الدر فى النقاء والصفاء والبريق .. وبين نسيم عليل يهب فيشفى السقام ، ويجلو الأحزان ، ويذهب بالهموم ، وبين مساء رائق ماتع .. يزيد من حسنه البدر الساطع ، ويضاعف من بهائه النجوم الطوالع .. وبين هدوء يشمل الأرجاء يغط أبناء القرية فى نعيمه ، ويعبون من سكره حتى الثمالة ، يُصاحب ذلك الهدوء ألحانُ الطيور ، وأناشيد العنادب الذى ينساب رقة ، ويقطر حلاوة ، وينضح عذوبة .. حيث الأغصان تتمايل بها شاهدة على وشوشتها ، ومستمتعة بحديثها ، جاعلة من ذلك مسرحاً يفيض بالحياة وينبض بالأمل .. حيث يقول مكثراً من التساؤلات التى تؤكد حنينه وتشوقه إلى قريته ، وفى ذات الوقت تؤكد تحسره وتأسفه إزاء ماحل بها ، وطرأ عليها ـ مما لا يروقه ، ولا يحلو له ، بل يُحزنه ، ويُؤلمه ، ويُشعره الغربة والضياع:

قريتى أين ملعبى وصحابى ؟ ∴ أين مرعى بُهمى وأين رحابى ؟!
أين ذاك الغدير يرضع ماءً؟ ∴ يشبه الدر من نهود السحاب ؟!
أين ذاك النسيم يجلو الهموما ∴ ويمس الوجوه سمحاً كريما ؟!
أين ذاك المساء ؟ نحلم فيه ∴ ونرى البدر ساطعاً والنجوما ؟!
أين ذاك الهدوء ؟ نغرق فيه ∴ ونشيد الطيور ينساب فيه ؟!
وشوشات الأغصان تجعل منه ∴ مسرحا حالما بما يحويه؟![١٠]

---

(٩) ديوان بائعة الريحان ــ صـ٣٥ .

(١٠) ديوان صراع مع النفس : للشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي – صـ ٩٢، ٩٣ – ط مكتبة العبيكان – الرياض – السعودية – الطبعة الثانية – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢م .

ولا يخفى ماتدل عليه تلك التساؤلات المتتابعة ، وما تؤكده من تملك مشاعر الحسرة والأسف ، والغربة والضياع من نفس الشاعر إزاء ماطرأ على قريته ، وما انتابها من تغير تصطدم معه نفس الشاعر ، ولم ترق له مشاعره المرهفة ، ومن ثم فقد راح ينشد تلك الصورة المأمولة " الآفلة " ، وذلك الواقع المرجو " الذاهب " فى رحاب مسقط رأسه ، ومرتع لهوه ، ومنتدى صباه – من خلال تلك التساؤلات المتتالية التى كثف بها تجربته هنا .

ولنستمع للشاعر . وهو يتحدث عن قريته ، مُنوهاً بأثرها المحوري ، ودورها الجوهري فى بنائه وتكوينه إنساناً كان أم مبدعاً .. حيث يقول مُبرزاً ما لقريته من أثر كبير ، ودور محوري فى تكوينه الإنساني والإبداعي من خلال مناجاته لربوعها ، مُصوراً شدة شوقه إليها ، مؤكداً كيف أنها ملهمته ، فى شدوه وإبداعه ، ومصدره فى إنشاده وتغريده :

يا مغانى الصبا عليك سلام ∴ أنتِ أطربتِنى وألهمتِ فنى(١١)

.. وهكذا " ففى ظبيان فى قرية عراء كانت بداية الشاعر مع الشعر ، حين كان العشق بين الأرض والسماء صافياً من شوائب المدنية الحديثة .. حين كانت الروابى تهتز خضرة وجمالاً ، وحين كانت السحب تُعبر عن شوقها بغيث هانئٍ يروى البلاد والعباد "(١٢) .

ثالثاً - موهبته :

ينضم إلى تلك المحاور الرئيسة ، والعوامل الأكيدة التى شكلت وجدان العشماوي . الإنسان والشاعر ، وكونت بنيانه الإبداعي والنقدي عامل الموهبة .. حيث يتأكد لمن يطالع شعره . فى مجموعه . كيف يحظى ذلكم الشاعر بموهبة شعرية كبيرة ، ويتمتع بطبع أدبي سمح ، وحس شعري مرهف جعله فى مصاف الشعراء الكبار فى عصره .. بعد أن غذَّى وجدان متلقيه ، وحلَّق بمشاعرهم ، وسما بأذواقهم بذلك النتاج الشعري الغزير .. وكأنه يمتح من بحر ، ويغرف من نهر فى دعة ويسر ، وسهولة وطواعية .. حيث بلغت دواوينه الشعرية العشرين ديواناً

(١١) ديوان صراع مع النفس: للشاعر عبدالرحمن صالح العشماوي ــ صـ٩١ .
(١٢) ملحق الندوة الأدبي بالعدد الصادر بتاريخ ١٠/ محرم / ١٤٠٧ هـ ــ حوار مع الشاعر العشماوي ــ نقلاً : عن التيار الإسلامي فى شعر عبد الرحمن صالح العشماوي صـ ٨٦ .

تقريباً .. يضاف إلى تلك الغزارة فى النتاج تنوع مضامينه الشعرية ، وتعدد اتجاهاته .. مابين شعر ديني ، وذاتي ، ووطني ، واجتماعي – منطلقاً فى تلك الدروب جميعاً – من خلال التصور الإسلامي الراشد الحكيم للإنسان والكون والحياة .. حيث تغلب عليه نزعة الإيمان السنية ، وتنضح أشعاره برائحة الإسلام الزكية ، وتعبُق بشذاه العاطر ..فهو شاعر ملتزم حتى النخاع ، أُشرب حُب الدين ، وعمر قلبه به ، وغذى فكره عليه مذ كان طفلاً ، بعد أن حظي برعاية أم متدينة صالحة ربته تربية ملؤها الفضيلة والحُب والعفاف والطُّهر ، ومن ثم فقد درج على ذلك ونما ، وغدا ملتزما بروح الإسلام ، متشبعاً بتعاليمه .. وهذا التنوع ، وذلك الثراء فى شعر الشاعر ، وتلكم الغزارة فى نتاجه إن دل فإنما يدل على تمام وكمال موهبته ، ونُضج واستواء شاعريته ، وتمكنه من ناصية البيان ، وتمرسه بأساليب اللغة العربية الجميلة ، وتملكه لزمامها ، واستطاع من خلال ذلك أن يبارى شعراء عصره ، جاعلاً من نفسه قامة شعرية كبيرة يتبوأ بها مكانة متميزة ، ومكاناً متقدماً بين كبار شعراء عصره . " إن بذور الإيمان التى تنبت فى قلب وعقل ونفس ووجدان هذا الشاعر ، والتى سقتها ورعتها أمه ، وعمقت جذورها قريته " عراء " بصفائها ونقائها ، ثم تعهدتها ثقافته الإسلامية ، وموهبته الكبيرة فاخضوضرت ، وأورقت ، وأثمرت ثماراً خيرة ناضجة ، فأصبحت روضة غناء ، ثرية بأشهى الثمار هذه البذور كانت مبعث هذا الثراء فى الفكر ، وفى الموضوعات ، وفى المضامين وفى العفة ، وفى الصور الفنية الرائقة ، والصور البيانية المُبدعة المُحلِّقة ، وهي التى كانت مبعث تلك الأحاسيس المتدفقة ، والعواطف الصادقة ، والمشاعر الندية ، وجعلته يستحق – بجدارة – لقب شاعر العفة والطهر والإيمان ، إذ هذب الإسلام عواطفه ، وضبط الإيمان أحاسيسه .. فارتقى بهما إلى مراتب عليا من الطهر والعفاف تصمد أمام الأهواء – رغم رقتها ، وتقاوم الأعاصير – رغم شفافيتها .. وفى الوقت ذاته تنهل من ينابيع الطهر والعفاف مايروى ظمأها :

إننـــى أحمـــل قلـــبا خـــافقا ∴ ليـــت قلبـــى للـــهوى لم يخفـــق

حبـــى الطـــاهر أسمـــى هـــدفاً ∴ فأعيـــذيه بـــرب الفلـــق

أشهـــد الله علـــى عفـــته ∴ وعلـــى الطهـــر وحســـن الخلـــق

أرفـــض الحـــب الـــذى ينكـــره ∴ خلقـــى فالحـــب إحســـاس نقـــى

.. وهكذا نجد أن التزام هذا الشاعر بالتصور الإسلامي جعله يُحلِّق فى سماء الإبداع ، متفوقاً به على أقرانه ، بل على كثير من الشعراء ؛ لأنه نادراً ما نجد شاعراً التزم بهذا التصور كالتزام الشاعر العشماوي .. فهو بهذا الالتزام كون بشعره مركبة للنور تسبح فى الفضاء ؛ ليسطع نورها فى كل الآفاق ، مُبدِّداً من نفوسنا ظلمات اليأس[١٣] "وهكذا استطاع هذا الشاعر الشاب المؤمن بقوة إيمانه ، وصفاء عقيدته ، ورهافة حسه ، ونقاء سريرته ، وخصوبة خياله ، وسلامة لغته ، وقوة بيانه ، وعمق ثقافته ونضج موهبته أن يتقدم شعراء عصره من الشبان ، ويصل إلى مرتبة كبار الشعراء ؛ إذ بلغ شعره فى الآونة الأخيرة من العمق والنضج ما يجعله يحتل هذه المرتبة بجدارة واقتدار"[١٤].

رابعاً- أساتذته ومُعلموه ، وأثرهم فى بناء كيانه ، وتشكيل وجدانه :

تتلمذ شاعرنا على يد أساتذة أجلاء ، وعلماء نجباء كان لهم الفضل الكبير ، والأثر العظيم فى تكوين بنيانه الثقافي والفكري .. حيث حظي بعدد من الأساتذة المُربين الذين لقي منهم تحفيزاً على قول الشعر وكتابته ، وتشجيعاً على تحسينه وإجادته من هؤلاء : الأستاذ صدقى البيك من فلسطين ، والأستاذ الدكتور حسن الشاعر من فلسطين ، والأستاذ رضوان الدبيسى من سوريا ، والشاعر عبدالله مهدى ، والأستاذ حسين الحازمى ، والأستاذ عبد الخالق الحفظى ، والأستاذ قاسم الشمخى.. وغيرهم من السعودية.

بينما التقى العشماوي فى رحاب كلية اللغة العربية – بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بعدد من الأدباء والنقاد المشهورين فنشأت بينه وبينهم علاقات مودة ، ودبَّت صلات محبة توطدت فيما بعد .. ومن ثم تكوَّن لدية شعور كبير بقيمة الكلمة الملتزمة ، والعبارة الراقية ، وأثرها فى بناء وتكوين الأذواق ، والرقي والتحليق بها فى عوالم من الفضيلة والسمو والتصون والطهر .. كما غرسوا فيه أيضاً شعوراً بأهمية الشعر – بصفته فناً يؤدى رسالة محورية يعمل من خلالها على بناء ونهضة الأمم ، وهو مسئول عن تشكيل وجدانها ، والرُّقي بأذواق أبنائها.

---

(١٣) التيار الإسلامى فى شعر عبد الرحمن صالح العشماوى ــ سهيلة زين العابدين حماد – صـ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(١٤) المرجع السابق صـ ٢٠٧ .

ومن أبرز أساتذة الشاعر فى رحاب تلكم الكلية الغراء الذين لقي منهم اعتناءً وتشجيعاً: الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا ، والدكتور عبد القدوس صالح ، والدكتور بدوى طبانة ، والدكتور محمد محمد حسين ، والدكتور محمد بن سعد بن حسين .. كما لقى تشجيعاً من عميد كلية اللغة العربية آنذاك معالى الدكتور عبدالله عبدالمحسن التركى الذى أتاح له فرصة التعرف إلى الشاعر عمر بهاء الدين الأميرى ـ رحمه الله ـ فنشأت بينهما صلة أكيدة ، ومودة شديدة .. وقد أفاد شاعرنا مما كان يسديه له الأميري من نصائح ، وما كان يرشده إليه من وصايا – قائماً معه فى ذلك مقام الأب الذى يحدب ويحنو على ابنه ، ويحرص على ما فيه الخير والنفع له .. يؤكد ذلك ماقاله الأميري عن الشاعر : " لو كنتُ متخذاً من الإنسانية المطلقة ابنا لاتخذته عبدالرحمن العشماوي "[١٥] .

كما توطدت علاقة الشاعر بالشيخ الفاضل ، والعالم الفذ محمد الراوي ، حيث كان يقوم بتدريس مادة التفسير فى الكلية سالفة الذكر ، مُحلِّقاً بطلابه فى آفاق آيات الله سبحانه وتعالى الرحبة ، ومجاليه الفسيحة ...

وكان من أبرز واخص أساتذة الشاعر ، وأقربهم إلى وجدانه ، وأحبهم إلى نفسه ، وأشدهم تأثيراً فى بناء حياته ، وتشكيل وجدانه الأستاذ الدكتور / عبد الرحمن رأفت الباشا – رئيس قسم البلاغة والنقد ، ومنهج الأدب الإسلامى بالكلية سالفة الذكر، والمشرف على رسالة الماجستير للشاعر ، ورئيس لجنة مناقشتها .. ومن ثم بات لوفاته أثر كبير فى نفس الشاعر .. حيث آلمه فراقه ، وعز عليه تجاهل صحافة البلاد السعودية إزاء وفاته ، وهو المفكر والأديب الإسلامى الكبير ، ومع ما كانت تحظى به تلك الشخصية من قيادة وريادة فى مجال الأدب الإسلامي .. حيث كان من أوائل الذين وجهوا عنايتهم ، وأولوا اهتمامهم به ، رادين عنه ما يُوجهه إليه الحانقون والمُلحدون من سهام مسمومة ، وخناجر ملوثة ، مُنقياً منهجه مما يُخالطه من شوائب ومضار .

ومن مظاهر ذلك الحب لدى الشاعر إزاء أستاذه الباشا ، ومن دلائل تقديره إياه وقوفه فى شعره تلك الوقفة التى تقوم على الوفاء والإعزاز ، والتقدير والإكبار ، حيث أبدع العشماوي قصيدة شعرية يبكى فيها أستاذه الباشا بعنوان: " يارب عونك

---

(١٥) التيار الإسلامى فى شعر عبد الرحمن صالح العشماوى ــ سهيلة زين العابدين حمـــاد – صـــ٨٩.

" يُشيد فيها بجهود أستاذه الفكرية فى تنقية الأدب الإسلامي من الشوائب ، وينوه بآثاره الإبداعية والأدبية التى أثرت مجال الأدب الإسلامي ، مُرسيا بها مبادئ ودعائم هذا المجال الماتع من الأدب :

أبـا اليمـان عيـون الشـعر نـاظرة ∴ إليـك نظـرة إكبـار وإجـلال
ملكـت عـزة نفـس لا يخالطـها ∴ ذل ولا تنـزوى فـى قلـب محتـال
مـددت جسـراً لجيـل اليـوم متصـلاً ∴ بخـيرة النـاس مـن صحـب وآل
رسمـت مـن أدب الإسـلام خارطـة ∴ منـها معـالم إمتـاع وإفضـال
بريئـة مـن دعـاوى الملحـدين وقـد ∴ تسـربل الفـن منهـا خـير سـربال
خلصتـها مـن سـموم فانبثـقـت ∴ منـها روائـع حسـان وإقبـال
قـوم دعـوا فرأوهـا خـير منتجـع ∴ للنـاس فـى عصـر إفسـاد وإضـلال[١٦]

خامساً - تفاعله مع أحداث عصره ، وارتباطه بقضايا أمته الإسلامية أينما كان موقعها .. فى أرض الإسلام المترامية الأطراف .

كان للأحداث التى وقعت على أرض الإسلام فى عصر الشاعر ، وقضايا المسلمين الملحة آنئذ أثرها الكبير فى بناء وتشكيل تجاربه .. فكم هي كثيرة قصائد الشاعر – تلك التى ارتبط فيها بقضايا أمته ، وتفاعل مع أحداثها .. حيث كانت بلاد الإسلام – لاسيما تلك التى كانت تعانى من نيْر الاضطهاد ، وعنْت الاستعمار مثل فلسطين الحبيبة . تلك التى أفرد لها دواوين شعرية بأسرها فكم آلم الشاعر ما تعانيه أمتنا الإسلامية من تفكك وانقسام ، وتحلل وانفصام ، وقد عبر شاعرنا إزاء ما حل بأمتنا الإسلامية فى كثير من قصائده خلال تسعة دواوين[١٧] .. ولم يترك شاعرنا حدثاً تعرضت له أمتنا الإسلامية إلا وتحدث عنه تقريباً .. ولم يترك قضية من قضاياها إلا وتفاعل معها ، وكتب أروع قصائده ، وكانت فلسطين والمسجد

---

(١٦) التيار الإسلامى فى شعر عبد الرحمن صالح العشماوى ــ سهيلة زين العابدين حماد – صـ٩٣.

(١٧) هي : القدس أنت ، قصائد إلى لبنان ، مأساة التاريخ ، نقوش على واجهة القرن الخامس عشر ، عندما يعزف الرصاص ، ياأمة الإسلام ، شموخ فى زمن الانكسار ، عندما يئن العفاف ، إلى أمتى ....

الأقصى يمثلان أكبر همه ، ويأتيان فى بؤرة تفكيره ، وذروة اعتنائه .. وقد أرشد الشاعر فى قصائده فى ذلك الشأن إلى سبل الإصلاح والتقويم ، وعوامل التقدم والفلاح .. ففى قصيدته " حوار فوق شراع الزمن " يتساءل عن أسباب الغفوة لأمة الإسلام ، وأسباب الداء ، وكيف أنه يكمن فى التفرق والاختلاف، مما أصاب أمتنا الإسلامية فى مقتل ، حتى كادت يُجهز عليها: فيقول :

أمـــة الإســـلام يـــا حـــاملـــة ∴ لقـــب المجـــد رغـــم الفتـــن

هـــذه الغفـــوة مـــا أســـبابها؟ ∴ هـــذه الكبـــوة كـــم تؤلمنـــى!!

فتجيب أمة الإسلام قائلة :

أنـــتم الـــداء الـــذى عانيتـــه ∴ أنـــتم العـــبء الـــذى أضـــعفنى

هـــذه الغـــارات فيمـــا بينكـــم ∴ تخـــدم الأعـــداء لا تخـــدمنى

والشـــعارات التـــى ألمحهـــا ∴ فـــى مهـــاوى حســـرتى تقـــذفنى

رب عفـــواً لم يـــدر فـــى خلـــدى ∴ أن أرى ســـهمى الـــذى يطعننـــى

أن أرى كـــف صـــديق خـــائن ∴ تخـــرق المركـــب كـــى يغرقنـــى

أنـــا لا أشكـــو عـــدوى إنمـــا ∴ أشـــتكى مـــن صـــاحب يخـــدعنى

وبعد أن استعرض الشاعر واقع الأمة الإسلامية ، وحالها المعوج ، راح يقترح العلاج الناجع لهذه الأدواء ، والشفاء التام لتلك الأسقام .. حيث يقول :

يـــا بنـــى الإســـلام لاتختلفـــوا ∴ فالخـــلافات التـــى تضـــعفنى

كلكـــم فـــى نظـــرى مؤتمـــن ∴ وخطـــير موقـــف المؤتمـــن

....

مـــنهج التوحيـــد ياأنصـــاره ∴ هـــو عنـــوانى الـــذى يرفعنـــى

عـــزمكم والوحـــدة الكـــبرى ∴ مســـلك الخيـــر الـــذى ينقـــذنى[١٨]

(١٨) ديوان حوار فوق شراع الزمن – للشاعر: عبد الرحمن صالح العشماوى صـ ١١ ، ١٢ ، ١٥ –مطبعة العبيكان ــ الرياض ــ السعودية ــ الطبعة الأولى – ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م .

".. وهكذا نجد الشاعر يتمتع بحضور ملحوظ ، وتفاعل ملموس إزاء قضايا أمته .. فلم يترك قضية من قضاياها تقريبا إلا وتناولها فى شعره ، فهو بحق شاعر الأمة الإسلامية البارز فى عصره .. ومن يريد أن يقرأ تاريخنا ولا سيما المعاصر منه فليقرأ شعر العشماوي .. فهو خير راصد لهذا التاريخ[١٩] ".

جـ-اسهاماته الثقافية ، ومشاركاته الإعلامية ، وأعماله الإبداعية ، " مؤلفاته الأدبية والنقدية " .

للشاعر الدكتور عبد الرحمن العشماوي إسهامات عديدة ، ومشاركات كثيرة فى الأنشطة الثقافية والأدبية على المستويين الإقليمي والدولي .. حيث كان من الشعراء النشيطين ، والأدباء المُبرِّزين سواء فى داخل المملكة أم فى خارجها ، وكان له حضور إعلامي ملحوظ ، فكم شارك فى مجال الندوات الأدبية ، والأمسيات الشعرية " حيث إن له ما يفوق الخمسين من تلكم الأمسيات تقريبا .. ومازال يغشاها حتى الآن " .

وله أيضا إسهامات ملحوظة فى مجال الإعلام .. وذلك من خلال كتاباته فى الصحف والمجلات ، وإعداد وتقديم البرامج الإذاعية والتلفازية ، وقد قدم ثلاثة برامج إذاعية ناجحة من خلال إذاعة البرنامج العام ، وإذاعة القرآن الكريم فى المملكة العربية السعودية وهى : " فيض الخاطر ، وقراءة فى كتاب ، ومن ذاكرة التاريخ " .. كما أعد وقدم ـ من خلال التلفاز السعودي ـ برنامج (آفاق ثقافية) ، وشارك بانتظام فى برنامج (المجلة الإسلامية) الذى كان يُقدمه الدكتور عبد القادر طاش من تلفاز القناة الأولى فى المملكة العربية السعودية .

وللشاعر إبداعات شعرية تذهب فى مناحى شتى من المضامين ، والرؤى الشعرية والمسرحية ، وهي تعكس عمق ثقافته ، وتدل على نضج شاعريته ، وتنطق بصحة عقيدته ، وقوة إيمانه ، وشدة ارتباطه بأمته .. من تلكم الأعمال دواوين : إلى أمتى ، صراع مع النفس ، قصائد إلى لبنان ، حوار فوق شراع الزمن ، مأساة التاريخ ، بائعة الريحان ، نقوش على واجهة القرن الخامس عشر الهجرى ، عندما يعزف الرصاص ، إلى حواء ، ياأمة الإسلام ، شموخ فى زمن الانكسار ، مشاهد من يوم القيامة ، عندما يئن العفاف ، مواكب ذكرياتى ، جولة فى عربة

---

(١٩) التيار الإسلامى فى شعر عبد الرحمن صالح العشماوى ــ سهيلة زين العابدين حماد ، صـ١١٣ ، ١٤٨ .

الحزن ، عناقيد الضياء ، رسائل شعرية ، ياساكنة القلب ، إلى أمى .. بالإضافة إلى روايته : فى وجدان القرية ، وغير ذلك من ابداعاته الأدبية .

وبجانب هذه الإبداعات للشاعر ، تأتى مؤلفاته وكتبه التى توكد –هى الأخرى –عمق ثقافته ، وسعة إدراكه ، منها : بلادنا والتميز ، وقفة مع جرجى زيدان ، إسلامية الأدب لماذا ؟ ، علاقة الأدب بشخصية الأمة ، لا تغضب .. وغيرها من المؤلفات التى تنم عن شخصية واعية تحمل بين جنباتها علما غزيراً، وفكراً راجحاً ، وثقافة عميقة ، وفناً رائقاً[٢٠] .

(٢٠) أفدت فى هذه المعلومات عن حياة الشاعر ، ونشأته ، وثقافته ، وشاعريته ، وإسهاماته من كتاب التيار الإسلامي فى شعر عبدالرحمن العشماوي – سهيلة زين الدين حماد – صـ ٧٦ – ٩٥ ، كما أفدت فى حديثي عن حياة وثقافة الشاعر من معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ــ جمع وترتيب هيئة المعاجم ــ المجلد الثالث ١٢٦ ، ١٢٧ – الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

الفصل الاول

الآفاق الموضوعية ، والأبعاد الفكرية لشعر المرأة عند عبد الرحمن صالح العشماوي.

ويتضمن خمسة أفكار رئيسة تتمثل فى النقاط " المباحث " التالية :

المبحث الأول : شعره فى أمه .

المبحث الثاني : شعره فى المرأة المحبوبة .

المبحث الثالث : شعره فى الحب والهوى ، وطبيعة فلسفته إزاءهما.

المبحث الرابع : شعره فى زوجه.

المبحث الخامس : شعره فى أخواته وبناته وحفيداته .

المبحث السادس : شعره فى المرأة المسلمة بعامة .

توطئة ومدخل :

الناظر فى شعر العشماوي فى المرأة يجده ينطلق من خلال تلك الآفاق .. حيث يتضمن خمسة أفكار رئيسة هي تلكم المذكورة هنا .. وهي تشكل فى مجموعها شعره فى المرأة .. وستعالج الدراسة تلكم الأفكار والمضامين مفصلة القول فى كل فكرة منها بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه .

ويطيب لى قبل أن أشرع فى الحديث عن تلك الأفكار والمضامين فى شعر العشماوي أن أؤكد ما حظيت به المرأة فى شعره من نصيب وافر ، وما استأثرت به من حظ كبير.. حيث يبدو لمطالع شعره ـ ذلك الفيض الهائل ، والكم الغزير ، والكثرة الكاثرة من قصائده فى المرأة بعامة ، وأمه بخاصة .. وليس أدل على ذلك من كونه قد خصص ديوانين من دواوينه الشعرية للحديث عن المرأة جعل أحدهما خالصاً للحديث عن أمه مصدر شدوه ، ومنبع تغريده ، ومنطلقه نحو الحديث عن المرأة بعامة بعد ذلك . فالطالما كان لأمه أثر محوري ، ودور فاعل ، ومؤثر فى حياته ووجدانه .. ومن ثم فقد دارت قصائده فى هذا الديوان حولها ، وراحت تتنوع بين التنويه ، والإشادة بفضلها وقدرها ، والتحدُث بتضحياتها ، والتغنى بأياديها عليه وعلى إخوته ، وتصوير ما يهزه وينتابه من مشاعر الحب والشوق إزاءها فى حال غربته عنها ، وما يعتصره من مشاعر الحزن والأسى إزاء فقدها .. ومن ثم فقد غدا ذلك الديوان حقيقاً بأن يحمل تلك التسمية المحضة : " هي أمى " ، والآخر ـ دارت قصائده حول المرأة :"حواء " بعامة ـ على اختلاف موقعها من الشاعر ، وتنوع صلتها به .. حيث ضمنه قصائد دارت حول أمه ، مُحيياً لها ، ومُقدراً لشأنها

، ومُكبراً لتضحياتها ، ومُعدداً لأفضالها ، ومُستعظماً المصيبة فى فقدها .. وقصائد دارت حول زوجه باح خلالها بمشاعره الخاصة إزاء رفيقة دربه ، وشريكة عمره ، وقسيمة آلامه وآماله .. وأخرى تغنى خلالها بمشاعره الحانية .. وأحاسيسه الدافئة إزاء إخوته وبناته ، وتجارب عُنيت بالحديث عن المرأة بعامة وقف فيها الشاعر موقف المُوجه ، والمقوم ، وبدا ـ خلالها ـ فى صورة الناصح الأمين الذى يبغى للمرأة ، ويرجو لها كل تصون وصلاح ، وطُهر وعفاف ، وينبذ كل تهتك وفساد ، ودنس وضلال .. آملاً للمرأة المسلمة فى الوصول إلى الأنموذج الأمثل الذى يُقتدى به ويُهتدى ، ويُتأسى ، ويحتذى .. كما تضمن ذلك الديوان أشعاراً أماط فيها الشاعر اللثام عن نظرته إلى الحب بصفته مسلماً ملتزماً ، وأبان من ـ خلالها ـ عن فلسفته فى الهوى .. وأخرى تدور حول المرأة المحبوبة .. إلى غير ذلك من التجارب والمضامين التى تدور ـ فيما تدور ـ حول المرأة ، ولا تخرج عن السمو والطهر، والفضيلة والرقي .

كما يطيب لى قبل الدخول إلى ذلكم العالم – عالم المرأة عند الشاعر أن أورد تلك الكلمات الدافئة ، والعبارات الحانية ، والتى تمثل خلاصة نظرة الشاعر إلى المرأة ، وطبيعة فلسفته إزاءها ، وهي ـ بلا شك نظرة إيمانية ، وفلسفة بناءة لا تخرج عن كونها نظرة الشاعر المسلم ، وفلسفة المُبدع الملتزم .. حيث يقول :

حواء فى حياة آدم
تعنى العطاء
وما أعظم كلمة العطاء !!
حواء تعنى الأمومة
وما أعظم كلمة الأمومة !!
حواء تعنى السكن .. والمودة .. والرحمة
ومن ذا الذى لا يريد السكن
والمودة والرحمة ؟
حواء عالم له كيانه الخاص ..
وعطاؤها يظل عظيماً
ما حافظت على ذلك الكيان

هذه حواء[٢١]

ولا يخفى أن الشاعر قد بدا ـ خلال كلماته الدالة ، وعباراته الموحية تلك ـ فى صورة المسلم الملتزم بمنهج الإسلام ، المُنطلق من خلال تصوره الحكيم ، ونظرته الراشدة نحو المرأة حيث يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢٢] ويقول الهادى البشير ﷺ : " إنما النساء شقائق الرجال "[٢٣].

المبحث الأول : شعره فى أمه

(٢١) ديوان إلى حواء ــ د/ عبد الرحمن العشماوي ــ مكتبة العبيكان ــ الطبعة الثالثة – ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

(٢٢) من الآية ٢١ من سورة الروم .

(٢٣) سبق تخريج هذا الحديث الشريف .

الذى يطالع شعر العشماوي فى المرأة يتأكد لديه ما لأمه من أثر محوري، ودور جوهري فى بناء وتكوين تجاربه فى المرأة بعامة ، وما لها أيضاً من أثر فاعل فى تشكيل وجدانه إزاءها ، وتلوين نظرته نحوها.. حيث تعدى أثر حب الشاعر الشديد لأمه ، وتقديره البالغ لشخصها ، إلى المرأة بعامة ، فكانت نظرته إليها تلك النظرة الإيجابية التى لا تخرج عن إطار نظرة الدين لها ، والتى تقوم على الحب والاحترام ، والتقدير والإكبار ، والطهر والنقاء ، والصون والعفاف .

بل إن أم الشاعر كانت محور تجربته ، ومنبع شاعريته ، ومنطلقه نحو الشدو والتغريد ، والنظرة إلى الحياة تلكم النظرة الآملة المتفائلة . بالرغم من كونه قد رُبي يتيماً ؛ لما لأمه من فضل عليه عظيم .. وأثر فى تشكيل وجدانه كبير ، حيث ربته تربية سوية باعدت بينه وبين ما قد يصاحب اليتيم عادة من صفات قد تحول بينه وبين الانطلاق والثبات ، والإيجابية والنجاح .. فلولاها ما ترنم ولا شدا ، ولا ذاع صيته فى الآفاق ، ولا طبق فى الورى . حيث يقول:

أمـاه يـا سـر ألحـانى ومصدرهـــا ∴ ونبـــع قلبـــى إذا مـــا صـــرتُ ظمأنـــاً

يانبضـة فـى فـؤاد الشـعر مـا عرفـت ∴ غـــدراً ولا عرفـــت للفضـــل نكرانـــاً[٢٤]

ويقول :

مـــاذا يقـــول عـــن الأمومـــة شـــاعرٌ ∴ لـــولا الأمومـــة مـــاترنم واشـــتهر(٢٥)

ويقول مؤكداً ما لأمه من فضل عظيم ، وأثر كبير فى تشكيل وجدانه ، وبناء كيانه : حيث كانت المرفأ الآمن ، والموئل الحصين ، والرُبَان الحاذق الذى يقود برفاقه لجج البحار ، بالغاً بهم شاطئ السلامة ، وبر الأمان :

مضيـت فـى رحلتـى والقـيظ ملتهـب ∴ فكنـتِ ظـلاً علـى دربـى وأغصـاناً

وكنـت فـى ظلمتـى نـوراً أسـير بـه ∴ وفـى صـحارى الأسـى ورداً وريحانـاً

....

منـك ابتـدأت مسيرى فـى الوجـود ومـن ∴ ينبـوع عطفـك صـار القلـب ريانـاً

علـى ذراعيـك جـاوزت الطفـولة فـى ∴ أمـن وكـان ربيـع العمـر هتانـا

---

(٣) ديوان : إلى حواء – صـ ١٠ .

(٢٥) ديوان : هى أمى ــ صـ ٣٢ .

عـبرتِ لجــة ضعفــى دونــما تعـــــب ∴ وكنـــتِ لى زورقـــاً فيهـــا وربـــــاناً[٢٦]

ويطيب لـى أن آخذ القارئ الكريم إلـى الوقوف علـى صورة الأم فـى شـعر العشماوي ـ من خلال الأفكار والمضامين التالية :

أولاً : إبراز فضل أمـه عليـه ، والإشادة بتضحياتها ، والتنويـه بأياديها وأفضالها عليه ، وعلى إخوته .

ثانياً : تصوير ماينتابه ويهزه من مشاعر الحب والشوق واللهفة والحنين إزاء أمه فى حال غربته ، وبعاده عنها .

ثالثاً : تصوير ما يعتصره من مشاعر الحزن والجوى ، والالم والأسى إزاء فقد أمه ، وفى حال رحيلها عنه ، واستعظامه المصيبة فى ذلك .

وإليك أيها القارئ الكريم حديثاً مفصلاً عن كل فكرة من تلك الأفكار بمفردها ـ خلال شعر العشماوي .

أولاً : إبراز فضل أمـه عليـه ، والإشادة بتضحياتها ، والتنويـه بأياديها وأفضالها عليه ، وعلى إخوته .

تشغل هذه الفكرة مساحة كبيرة فى شعر العشماوي فى أمه ، حيث يُكثر من الحديث عما كان لها من أثر جوهري ، ودور محوري فى بنائـه وتكوينـه إنساناً كان أم مُبدعاً ، مُتغنياً بما كان لها من أياد وأفضال عليـه وعلى إخوتـه ، بعدما غاب عنهم عائلهم " والدهم " فقامت هي بدور الأب والأم خير قيام .. فمن يطالع تجارب الشاعر فى أمـه يجده يلـح علـى ذلك المضمون ، ويؤكده تأكيداً .. فمن فيضها يستقى أشعاره ، ومن نبعها يستوحى أنغامه .. فهي مصدر شدوه ، ومنبع تغريده ، وهي منطلقة نحو الشهرة والذيوع :

مـــاذا يقـــول عـــن الأمومـــة شـــاعر ∴ لـــولا الأمومـــة مـــاترنم واشـــتهر ؟![٢٧]

ومنها يستمد الشاعر قوته وثباته ، وصموده وإقدامـه .. حيث باعدت بينـه وبين اليأس والخذلان ، وغدت الظل الظليل الذى يفئ إليـه إذا ما اشتد لهيب الأيام عليه ، واشتعل أوارها ، وأطبقت محنها .. وغدت النور الذى يهتدى بـه فى غياهب الدنيا ، ومدلهمات الحياة ، وأضحت الأمل والبشر ، بل والرجاء والرواء فى صحراء

---

(٢٦) ديوان : إلى حواء صـــ ١٠ ، ١١.
(٢٧) ديوان : هى أمى صـــ ٣٢ .

اليأس ، وجدب الحياة .. وهي مصدر ألحانه ، ومنبع تغريده ، ورِي ظمأه ، وهي منطلقه نحو الشدو العذب ، والتغريد الحلو الذى يتخذ من الصدق منهجاً ، والحق طريقاً ، والهدى سبيلاً ، وهي منطلقه نحو الحب والعزة ، والعطاء والشموخ .. حيث يقول :

منكِ استقيت صمودى فى الحياة فما ∴ أعلنتُ يأساً ولا خذلاناً

مضيت فى رحلتى والقيظ ملتهب ∴ فكنت ظلاً على دربى وأغصاناً

وكنت فى ظلمتى نوراً أسير به ∴ وفى صحارى الأسى ورداً وريحاناً

أماه .. ياسر ألحانى ومصدرها ∴ ونبع قلبى إذا ماصرت ظمأناً

يانبضة فى فؤاد الشعر ما عرفت ∴ غدراً ولا عرفت للفضل نكراناً

يا خاطراً فى خيال الحب مؤتلقاً ∴ يندى شموخاً وتحناناً وعرفاناً[٢٨]

وتقوم التجربة هنا – فيما تقوم – على الطباقات ، والمقابلات الذائعة بين المعانى الواردة فيها .. حيث لا يكاد يخلو بيت من تلك الأبيات من طباق أو مقابلة .. من مثل ما هو متحقق بين: "صمود" ، "وخذلاناً" ، وبين: "القيظ ملتهب" ، "وظلاً على دربي وأغصانا" ، وبين: "ظلمتي" و"نورا" ، وبين: "صحارى اليأس" ، و"ورداً وريحانا" .. بجانب ما تفيض به الأبيات هنا من ألفاظ دالة ، وعبارات موحية ، وتراكيب بليغة .. وهذه وتلك من شأنها أن تُجلى المضمون الذى بصدده الشاعر ، وتزيده هنا تأكيداً .. حيث يبرز الشاعر – من خلال ذلك – عظم فضل أمه عليه ، ويؤكد ما لها من أثر كبير ، ودور محوري فى بناء حياته ، وتكوين بنيانه ، وتشكيل وجدانه .

ويؤكد الشاعر مضامينه السابقة ذاتها . من خلال إشارته فى الأبيات التالية إلى استمداده معانى القوة والثبات ، والعطف والحنان ، والأمن والأمان والشجاعة والإقدام من أمه ، حيث كانت الزورق ، والربان اللذين خاض بهما لجج البحار ، وشق غياهب الخلجان ، وفجر عباب الشطأن .. ناعماً . فى ظلها ، وقربها بالأمن والأمان ، وهانئاً فى عُشها بالراحة والاطمئنان .. حيث يقول :

---

(٢٨) ديوان :إلى حواء – صـ ١٠ .

منك ابتدأت مسيرى فى الوجود ومن ∴ ينبوع عطفك صار القلب رياناً

على ذراعيك جاوزت الطفولة فى ∴ أمن وكان ربيع العمر هتانا

عبرت لجة ضعفى دونما تعب ∴ وكنت لى زورقاً فيها وربانا[٢٩]

وفى قصيدته :" ينابيع الحنان " يُعدِّد الشاعر ما لأمه من أفضال عليه ، وما بذلته من تضحيات ، وما فاضت به من ينابيع الحنان .. حيث شملت بنيها بعطفها ، وغمرتهم بفيض حنانها ، ودفءِ حبها .. ومنها استقى شاعرنا الحب والحنان ، والنبل والوفاء .. فكم سهرت الليالي ذوات العدد تُعالج السهاد ، وتُعانى قلة الرقاد ؛ حباً لبنيها ، وتلمساً لراحتهم وهناءتهم .. وكم تساقطت منها الدموع ، وانهمرت العبرات ؛ تعبيراً عن حبها وحنانها وحدبها عليهم ، وشدة تعلقها بهم.. وقد رسمت للشاعر منهج حياة؛ غارسة فيه معاني الحب والحنان، والاحترام والوفاء .. وإليها يدين بالفضل فى كل توفيق ونجاح، فهي محور حياته الرئيس ، وشخصها الأساس ، وركنها الركين ، حيث صنعت منه – وهو الطفل اليتيم – عضواً إيجابياً فاعلاً فى مجتمعه تفيض نفسه بالحب والحنان ، وتدرك معنى البذل والعطاء ، والتقدير والوفاء ، حيث يقول :

إنى استقيت من الأمو ∴ مة كل ذكرى ساميه

ورشفت من كأس الوفا ∴ ء فمن تكون الساقيه؟!

أمى سقتنى عطفها ∴ ومحت سطور عنائيه

أماه .. كم أيقظت في ∴ نفسي أجل صفاتيه

ولكم سهرت الليل من ∴ أجلى وعيني غافيه

ولكم سكبت الدمع من ∴ أجلى ونفسي خاليه

علمتنى طرق الحنا ∴ ن فصغت منه حياتيه!

ورسمت لي درب الوفا ∴ ء فأنت رمز وفائيه

فجرَّتِ فى قلبي ينا ∴ بيع الحنان الصافيه

---

(٢٩) ديوان :إلى حواء – صـ ١١ .

وجعلـــت منـــــى قصـــــة ∴ تُـــــروى وأنـــــت الراويـــــه

وصـــــنعت مـــــن طفـــــل يتيـــــ ∴ ـــــم روح حـــــب عالـــــيه

وســـــلكت بـــــى درب الهـــــدى ∴ والرجـــــل منـــــى حـــــافيه[٣٠]

وإن كنت أرى أن الشاعر قد جانبه الصواب فى تعبيره الوارد فى الشطرة الثانية من البيت الأخير – حيث يقول : والرِجل منى حافيه .. حيث لم يكن هذا التعبير منسجماً مع ما ورد فيه من مضمون هنا ، ولا مُعبِّراً عنه ، وإنما بدا مُقحَماً على المضمون ، مُنفصِماً عن السياق .. وكان أولى بالشاعر وأجدر به أن يُعبر بدلاً من هذا التعبير بقوله مثلاً : "والنفس منى غافيه" .. حيث ينسجم هذا التعبير مع مضمون الشطرة السابقة عليه فى البيت ذاته ، كما أنه يناسب مضمون البيت الوارد بعد ذلك .. وينسجم معه ، وتحديداً فى قوله :" فصحوتُ " خلال هذا البيت :

فصـــحوتُ فـــى كنـــف الصـــلاح ∴ وقـــد نســـجت لباســـيه[٣١]

ثم يوقفنا الشاعر بعد ذلك ـ من خلال أبيات قصيدته : " ينابيع الحنان " ذاتها ـ على ثمار ذلك الغرس التى غرسته فيه أمه ، متعهدة إياه بالسقي والحفظ والرعاية .. حتى نما واشتد واستوى على سوقه ، ليحين أوان نضجه فيؤتى الثمرة المرجوة منه .. حيث راح يسلك الطريق القويم ، مُرتدياً لباس التقوى ، ولابساً ثياب الصلاح ، وذهب يتجاوب مع الأحياء ، ويتفاعل معهم ، مشاركا إياهم ، ومقاسماً حبهم وحنانهم ، حيث يشارك كل عين باكية ، ويتأثر ويتفاعل مع كل قلب يخفق ، وكل نفس تشكو وتتألم .. بل إنه يشارك الأطيار والعنادب حين تشدو وتُغرد ، والنجوم ـ فى علوها وارتفاعها .. هذا لأن أمه قد غرست فيه مشاعر إيجابية من مثل الأمل والبسمة والبشر والتفاؤل ، والتى يهون أمامها كل شئ ، ويتلاشى كل صعب .. والحب السامى ذاته لو نطق لنسب إلى أمه الفضل الكبير فى رعايته وتعهده ، وحفظه ، والإبقاء على ذلك الفضل بقاء الحياة .. حيث يبقى لصاحب القلب الحنون أثر ، وصدىً حتى بعد رحيله عن الحياة ، وفناء جسده منها .. حيث يقول :

---

(٣٠) ديوان إلى حواء – ص ،ــ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .
(٣١) المصدر السابق – صـــ ٢٧ .

فصـــحوت فـــى كنـــف الصـــلا ∴ ح وقـــد نســـجتِ لباســـيه

أصـــبحت أشـــعر بالحـــنا ∴ ن لكـــل عـــين باكيـــه

ولكـــل قلـــب خـــافـــق ∴ ولكـــل نفـــس شـــاكيه

للطـــير تصـــدح فـــى الريـــا ∴ ض وللنجـــوم العاليـــه

أمـــاه .. يـــا أمـــلاً يقيـــ ∴ د كـــل كـــف باغيـــه

يـــا بســـمة ســـتظل فـــى ∴ قلبـــى شـــعار العافيـــه

وتـــذيب كـــل أســـى وتغـــ ∴ مـــض كـــل عـــين جافيـــه

لـــو ينطـــق الحـــب الرفيـــ ∴ ع لقـــال : أنـــتِ الراعيـــه

تفنـــى الحيـــاة ونبضـــة الـــ ∴ قلـــب الحنـــون الباقيـــه[٣٢]

وأختتم تلك الطائفة من شعر العشماوي فى ذلك المضمون . الذى يؤكد من خلاله فضل أمه عليه وعلى إخوته ، وأثرها المحوري ، ودورها الجوهري فى تكوين بنيانه ، وتشكيل وجدانه .. أختتم تلك الطائفة من الأشعار بذلك الأنموذج الرقيق المؤثر الذى يؤكد الشاعر. من خلاله . كيف أن والدته قد أدت ما عليها من واجب إزاء بنيها .. بعد أن اختطف الموت والدهم " عائلهم –" وهم مازالوا فراخاً صغاراً ، تعوزهم الحاجة إلى من يتفقد شئونهم ، ويقوم على رعايتهم .. فقامت من ثم أمهم بهذا الدور ، مؤدية إياه على خير وجه ، وضاربة فيه بسهم وافر ، ونصيب كبير .. حيث غدت فى ذلك الشأن قدوة صالحة ، وأنموذجاً فذاً ، وأسوة حسنة حازت قصب السبق لكل من يعلم بشأنها ، ويعرف خبرها .. حيث ضحت بعمرها ، وبذلت روحها لقاء أن ترى بنيها وقد رفرفت عليهم ألوية السعادة ، وأجنحة الاستقرار .. وشاعرنا فى ذلك الصدد يناجى روح والده . رحمه الله . مطمئناً إياها ، ومتمنياً أن يعود . ولو ساعة للحياة ؛ كي يرى الإخلاص من زوجه فى أعلى وأمثل صوره ، ويُشاهد الوفاء فى أندر وأجل مظاهره ، وترقب عيناه العطاء والبذل والتضحية والإيثار . فى أسمى معانيها جعل شاعرنا يشعر بالعجز والتقصير عن الإيفاء بحقها ، والشكر لصنيعها!!.

---

(٣٢) ديوان إلى حواء –ص ــ ٢٧ ، ٢٨ .

يقول عبد الرحمن صالح العشماوي من قصيدته : " وفاء " . وقد قدم على أبياتها بتلك الكلمات النثرية الرقيقة المؤثرة ، والتراكيب الدالة ، والعبارات الموحية : " والليل يُلقى بأستاره السود على هذا الكون ، والكون مسترسل فى صمته الرهيب .. استيقظ فرآها – أي الشاعر – تناجى ربها . فى دعاء ممزوج بعبارات الحنان .. ورأى كأن ضياء يُشرق من كلماتها ليتصل بالسماء .. وتذكر تضحيتها بشبابها الغض فى سبيل تربيته ، ومعاناتها فى تعويضه عن عطف أبيه الذى فارقه صغيراً .. رأى من أمه ذلك وأكثر من ذلك فقال :

أبـــى ! .. وقـــد صـــرت بعيـــد المـــدى ∴ وهـــل يُـــرد المـــرء مـــن قـــبره ؟!
ليتـــك تصـــحو ـ يـــاأبى ـ ســـاعة ∴ لكـــى تـــرى الإخـــلاص فـــى قـــدره
لكـــى تـــرى مرتـــع أحلامـــــنا ∴ نســـــتروح الآمـــــال مـــــن زهـــــره
لكـــى تـــرى أمـــى علـــى عهـــــدها ∴ ترضـــــعنا الإيمـــــان مـــــن نهـــــره
أبـــى ! ولـــو شاهدتنـــا نقتفـــى مـــن ∴ حبهـــــا الســـــامى ســـــنا فجـــــره
أمـــى .. وضـــحت بالشـــباب الـــذى ∴ ســـــرنا إلى الأمجـــــاد فـــــى نـــــوره
كـــم ذاك صـــعب يـــا أبـــى أن يُـــرى ∴ ســـاعٍ ويعطـــى النـــاس مـــن عمـــره
أمـــى .. وكـــم أحسســـت فـــى ظلـــها ∴ أنـــى فتـــى يعجـــز عـــن شـــكره
إن رســـم الشـــعر رؤى فـــى خـــاطرى ∴ فنبضـــة الشـــاعر فـــى رســـمه[٣٣]

.. وهكذا يبدو شاعرنا – خلال تلك التجربة والتى قبلها – فى صورة الابن البار بأمه الذى يُكبر صنيعها ، ويؤكد عجزه وتقصيره عن الإيفاء بحقها ، بعد أن غدت الأنموذج الأمثل فى البذل والعطاء ، والتضحية والإيثار .. ولذا فمهما دبج من قصيد ، وأبدع من كلام فسيبقى مُقصِّراً يعجز عن الإيفاء بقدرها ، وإكبار معروفها .

ثانياً : تصوير ماينتابه ويهزه من مشاعر الحب والشوق واللهفة والحنين إزاء أمه فى حال غربته وبعاده عنها .

---

(٣٣) ديوان: إلى حواء ــ صـ ٥٥ ، ٥٦ .

وتأتى تلك الفكرة ضمن الأفكار التى يسبح فى فلكها شعر العشماوي فى أمه ، والتى ينطلق فيها أيضاً من منطلق حبه الشديد لأمه ، وتقديره البالغ لشخصها ، وإدراكه لمدى أهميتها ، وبالغ تأثيرها فى حياته .

ومن تجاربه فى ذلك المضمون ما جاء فى قوله من قصيدته " دمعة على سمَّاعة الهاتف " يصور ما يلفه ويشتمله من مشاعر الحب والشوق واللهفة والحنين ، وما يعتصره من أحاسيس الألم والحزن والقلق والجوى جراء غربته ، وبعاده عن أمه .. حيث بث صوت أمه ، وأثار فى نفسه مشاعر الحنين والشجن واللهفة والأسى ، فإذا بها تتوزعها مشاعر السرور والبكاء ، حيث شعر بالدفء والاتزان لما سمع صوتها ، وشعر فى الوقت ذاته بآلام الغربة ، وما ينتابه من نوازع الشوق نحوها .. ، ولم لا وهو صوتها الذى نشأ ، ونما ودرج عليه ، ولم يزل يعانق قلبه ، ويعلق فى فؤاده ، ويستقر فى حناياه ماداً إياه بفيض من عطفها وحنانها ..، وهنا تنتاب نفس الشاعر الأشواق، ويهزه الحنين، وتستثير شجونه، فيرجع بذاكرته إلى الوراء حيث يعود إلى مرحلة الصبا حين كانت أمه الرءوم تشمل بنيها اليتامى بحنانها ورعايتها ، وتضم عليهم جناحي عطفها ورحمتها مشيعة أجواء من الفرح والسرور والبهجة والحبور بين جنبات ذلك البيت الذى ضمها وبنيها ، فلم يشكو شاعرنا ألماً ، ولم يلق هماً ولا جزعاً ولا حزناً ، وإنما راح يهنأ باللهو ، وينعم بالمرح .. وهنا يسائل الشاعر فى أسى وحسرة ، ودهشة وحيرة – يسائل ذلك الصوت – صوت أمه المنبعث عبر الهاتف عن ذلك العهد السعيد الخالى .. أين ذهب؟ ! ولياليه الهانئة المنصرمة أين راحت ؟ .. بعد ما حل التباعد والاغتراب محل التدانى والاقتراب .. حيث يسمع صوت أمه فتتحرق نفسه شوقاً إلى رؤيتها ، ويذوب قلبه وجداً لرؤية أهله وأحبابه .. ولذا فهو يجأر إلى ربه ، ويضرع إليه سبحانه – آملاً منه وراجياً أن يخفف عنه وطأة الاغتراب ، وآلام البعاد ، وأن يطمئن قلبه الموجع الملتاع فيلم عليه شمله ، ويجمع بينه وبين أمه وأحبته .. حيث يقول :

بعث الصوت كامن الأشجان ∴ مثلما سرنى فقد أبكانى

نقل "الهاتف" الحديث المرجى ∴ فسرى الدفء والرضا فى كيانى

أي صوت هذا الذى خالط النفـ ∴ س ، وأحيا النشيد فوق لسانى؟!

إنه صوتها نشأت عليه نغم ∴ فيه قصة الإنسان

صوتها لم يزل يعانق قلبى ∴ فيه فيض من عطفها والحنان

موسقته الأشواق حتى تجلى ∴ نغماً ساحراً يهز جنابى

صوت "أمى" ما زال يزرع إحسا ∴ سى فينمو الإيمان فى وجدانى

أيها الصوت قد بعثت حنيني ∴ ودللت الذكرى على عنوانى

فاستعدت الصبا وشاهدت نفسى ∴ عند أمى فى نشوة الصبيان

يوم كان السرور ملك يمينى ∴ يوم كانت بعطفها ترعانى

كنت ألهو وما شكوت جراحاً ∴ فى قؤادى ولا صروف زمانى

أيها الصوت أين تلك الليالي ∴ كيف حل النوى محل التداني؟!

صوت أمى –لاشك – لكن عينى ∴ لا تراها ، ولا ترى إخوانى

رب عوناً ، فلى فؤاد رقيق ∴ يتناسى الآلام بالألحان

فاجمع الشمل يا إلهى وهب لى ∴ مخرجاً طيباً من الأحزان[٣٤]

ويسيطر على الشاعر وتتملكه – خلال تجربته الرقيقة المؤثرة تلك – كما نرى – مشاعر الحب والشوق ، واللهفة و الحنين إزاء أمه وإخوته .. فقد براه الوجد ، واستبد به الشوق ، وأخذ منه الحب مأخذه نحو هؤلاء الأحباب – ولذا رأيناه وقد صور أثر سماع صوت أمه .. حيث كان أشبه بالغيث الذى يصيب الأرض الميتة ، فإذا بها تبعث وتدب فيها الحركة والحياة .. فلطالما ارتقب الشاعر صوت أمه ، ولطالما رجي سماعه وهو يُعانى آلام الغربة والبعاد .. بعث الصوت كامن الأشجان

نقل "الهاتف" الحديث المرجى ∴ فسرى الدفء والرضا فى كيانى

أي صوت هذا الذى خالط النفـ ∴ س ، وأحيا النشيد فوق لسانى؟!

ثم ما أجمل تصوير الشاعر لصوت أمه بالنغم الرائق ، والإيقاع الساحر الذى يدخل على النفس الراحة والسرور والهناءة والحبور ، ولم لا ؟! وهو قد نشأ

---

(٣٤) ديوان : إلى حواء صـ ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

عليه ودرج ونما ، وحلق من خلاله ، وانطلق وسما : صوتها .. نغم فيه قصة الإنسان .. موسقته الأشواق حتى تجلى نغماً ساحراً يهز جنابي.

وهو –أي الشاعر– وإن كان قد بعد عن أمه وصوتها ، إلا أنه ما يزال يتردد صداه بين جنباته ، فتمتلأ منه نفسه ، وتتشبع حناياه طهراً وإيماناً .

وقد أثار هذا الصوت فى كامن الشاعر ، وحرك بداخله اللهفة والحنين حيث عهد الصبا الهانئ السعيد فى ظل أم رءوم ، وحاضنة حنون رفرفت فيه ألوية السعادة ، وحلقت أعلام الهناءة .. راح شاعرنا يهنأ خلاله بالأنس والمرح، آمناً من صروف الزمان ، وعاديات الأيام .. ولذا رأيناه يُناجى ذلك الصوت الذى أثار فيه كل تلك الأحاسيس والمشاعر ، متسائلاً فى حيرة وحسرة ، وأسف ودهشة كيف استحال القرب بُعداً ، وكيف استحالت الهناءة والوداعة قلقاً وشقاءً؟! .. وهو وإن كان قد شعر بالراحة ، وأحس بالطمأنينة بعد أن سمع صوت أمه إلا أن ذلك لم يشف غُلته ، ولم يطفئ لظى شوقه ، ولم يخمد نار حنينه .. فمازالت جذوتها تشتعل فى فؤاده ، ويتقد أوارها فى أعماقه .. حيث لم يحظ بعد برؤية أمه وإخوته ، ولذا فهو يجأر إلى ربه ، ويلجأ إليه لجوء المسلم الصادق راجياً منه سبحانه وآملاً أن يكون فى عونه فى محنته هذه فيخفف عن نفسه الموجعة ، ويُسرّ○○ى عن قلبه المكلوم ، فيجعله يهنأ وينعم ويقر برؤية أحبابه .. وقد كان هذا الدعاء أبلغ ختام لتلك التجربة .. حيث يقول :

رب عوناً ، فلى فؤاد رقيق ∴ يتناسى الآلام بالألحان

فاجمع الشمل يا إلهى وهب لى ∴ مخرجاً طيباً من الأحزان

ولا يخفى على القارئ الكريم كون الكلمات : هب لى ، مخرجاً ، طيباً نابعة من المعجم الإسلامي ، سابحة فى نهره الهتان .. فهي ألفاظ قرآنية – كما نرى – تؤكد علاقة الشاعر الوثيقة بالقرآن الكريم ، ومن ثم تأثره بألفاظه ، ومضامينه الشريفة .. وأخيراً أقول لا تعدم التجربة هنا الكثير من الألفاظ الدالة ، والمفردات المشعة ، والتراكيب البليغة .. التى من شأنها أن تجسد المضمون ، وتنقل حالة وطبيعة الشاعر فى محنته " غربته" هنا ، من مثل : بعث ، الحديث المُرجى ، سرى الدفء والرضا فى كيانى .. خالط النفس ، أحيا النشيد فوق لسانى ، صوتها نشأت عليه نغم .. فيه قصة الإنسان .. موسقته الأشواق نغماً ساحراً .. يهز جنابي ..

بعثت حنينى .. وغير ذلك من المفردات والتراكيب الدالة المعبرة التى وفق الشاعر فى استخدامها فى تجسيد ما يقفه من موقف جدّ رقيق مؤثر هنا .

ومن تجارب الشاعر التى أبدعها من وحي غربته وبعاده عن أمه . والتى يؤكد من خلالها . مايكنه نحوها من مشاعر الحب والتقدير ، والاحترام والتبجيل ما جاء فى قصيدته " أنت يا أماه " ، حيث يصور ما يلفه من مشاعر الحزن والجوى ، والوحشة والأسى ، وما يهزه ويتملكه من أحاسيس الشوق والوجد والهوى إزاء أمه البعيده .. مشيراً إلى أنها وإن بعدت عن أنظاره فإن طيفها وذكرها يمثل له فى تلك الظلمات المطبقة ، والآهات الممتدة والساعات التى تمر بطيئة الخطى ، وئيدة الحركة ، يمثل له فى تلك الأجواء الأنس والإيناس ، والنور والنبراس ، ثم هو يخفق قلبه ، ويهفو وينبض بالحب والشوق ، والحنين واللهفة ، كلما جالت بخاطره الذكريات الخوالى ، وطافت بوجدانه العهود السوالف مسائلاً أيامه متى يشفى غلته من الشوق ، ومتى يروى صداه ، ومتى ينعم مرة ثانية بالوصل ، ويهنأ بالقرب .. وهنا يقف إزاء أمه متحدثاً بفضلها عليه ، معدداً لآياديها ، وملحاً فى إبراز ذلك أيما إلحاح ، ومؤكداً إياه أي تأكيد ، جاعلاً من أمه أنموذجاً للمربية المثالية ، والحاضنة المتفانية التى قلما . يجود الزمان بمثلها ، حيث يقول

رب ليلٍ ضمنى قد ∴ أثقل الوجد خطاه

كنت فيه الفجر يمحو ∴ ظلمة الليل سناه

كلما استأسد ليلي ∴ غرّد الحُب الجميل

وإذا ما طافت الذكرى ∴ هفا القلب العليل

وأنا أسأل أيا ∴ ني ، متى يشفى الغليل؟!

أنا يا أماه – نبت ∴ ظل ، يسقى بالحنان

أنا معنى من معانيـ ∴ ك ، وما أرقى المعانى!!

أنا سطر فى سجل الـ ∴ مجد قد صغت كيانى

كيف لا يذكر قلب ∴ منك عطفاً وحناناً ؟!

كيف لا يذكر إخلا ∴ صاً وصدقاً واتزاناً؟!

وأنـــا ألمـــح فـــى الخطـــو ∴ إذا ســـــــرت جنانـــــــا

أنـــت –يـــا أمـــاه- أنشـــو ∴ دة عطـــــــف ووفـــــــاء

أنـــت عنـــوان عظيـــم ∴ فـــــى ســـــجل العظمـــــاء

أنـــت مهـــدت طريقـــى ∴ أنـــــت أكملـــــت بنـــــائى

أنـــت يـــا أمـــاه نبـــرا ∴ س جـــلا بـــالنور دربـــي

أنـــت عطـــف بـــدد الآ ∴ لام عـــن صـــفحة قلـــبي

فلـــك التقـــدير – يـــا أمـــى- ∴ وإخلاصـــــى وحبـــــىٍّ [٣٥]

وقد أجاد الشاعر فى تصوير أهمية ماتمثله له أمه فى حياته – لا سيما فى غربته ، وماينتابه فى أثناءها من شوق شديد ، ووجد كبير . حيث تمثل له الأنس والإيناس ، والنور ، والضياء الذى يمحو ظلمة الليل ، ويبشر بإشراقة النهار :

رب ليـــل ضمنـــى قـــد ∴ أثقـــل الوجـــد خطـــاه

كنـــت فيـــه الفجـــر يمحـــو ∴ ظلمـــة الليـــل ســـناه

وهي – أي أمه – مصدر النجاة له من الأخطار التى تحدق به ، والأهوال التى تتهدده ، وبالبلاغة كلمة: "استأسد" ودلالتها وشدة وقعها هنا على المضمون .. فكم هي معبرة عن المعنى الذى بصدده الشاعر ، حيث يمعن . من خلالها . فى إبراز وتصوير ما يلفه ويتملكه من مشاعر الوحشة والقلق والاضطراب ، لا سيما فى ليل غربته ، فماذا بعد أن يجعل الشاعر من ليله الممتد بظلماته المطبقة الجاثمة على صدره ، ماذا بعد أن يجعل منه أسداً فى توحشه ، وافتراسه .. وفى ذات الوقت يبرز الشاعر مدى ماتمثل له أمه من الأنس والإيناس ، والمنعة ، والأمان ، والهناءة والاطمئنان .. هذا ويلحظ خلال الأبيات المذكورة تكرار الشاعر لضمائر المتكلم الذى يعنى به نفسه والمخاطب الذى يعنى به أمه ، والحاحه فى هذا التكرار ، وتكثيف تجربته به هنا .. وهو إذ يكرر تلك الضمائر فإنه يلح من . خلالها . على إبراز حبه الشديد ، وتقديره البالغ لأمه ، ويلحف فى إظهار فضلها

---

(٣٥) ديوان : إلى حواء – صـ ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

الذى لا ينكر ، وقدرها الذى لايخفى ، ومعروفها الذى لا يجحد ، وعظمتها التى يندر الزمان أن يجود بمثلها ، .. وبين تلك الضمائر نلتقى بتساؤلين تقريريين يؤكد الشاعر من خلال ذلك ما لأمه من أثر كبير ودور جليل ، وفضل عظيم فى بنائه وتكوينه .. فمنها استمد العطف والحنان ، ومنها استوحى الصدق والإخلاص .

ثالثاً : تصوير ما يعتصره من مشاعر الحزن والأسى إزاء فقد أمه ، وتجسيد ما يتملكه من أحاسيس الألم والجوى حيال ذهابها ، واستعظام المصيبة فى موتها .

وهذه الفكرة كثيراً ما يُلحُّ عليها الشاعر ، ولطالما أكدها وأبرزها فى شعره فى أمه .. إذ هي كثيرة جداً تلك التجارب التى جسَّد – خلالها – شاعرنا ما تفيض به نفسه المُلتاعة ، وما يجثم على قلبه المُعَنَّى المحزون ، وصدره المُثقل المهموم من مشاعر الحزن والأسى ، وما يلفه من أحاسيس الألم والجوى ، وما يستبد به من معانى اليأس والضياع ، والضعف ، والإحباط ، والدهشة ، والذهول ، والحيرة ، والاضطراب إزاء أمه ، مستعظماً مصيبته فى فقدها ، حاملاً نفسه على الصبر والتجلُّد ، وحاثاً إياها على العزاء والتسلِّي ، مُتسلِّحاً فى ذلك بسلاح الإيمان الماضى ، ومُستنيراً بهدي الإسلام الراشد ، ومنهجه القويم فيما يجب أن يكون عليه، ويتحلى به المسلم عندما تنزل به المصائب، وتحل النوازل، لاسيما عند فقده الأحباب ، وثكله الأصفياء– من التأسي بالصبر الجميل ، والتعزى بالرضا التام ، وتجنب الجزع والهلع ، تأسياً فى ذلك بالرحمة المهداة ﷺ ، وتعزياً بموته عليه الصلاة والسلام – وهو من هو؟ أفضل البشر على الإطلاق ، وأحب خلق الله إلى الله سبحانه ! .

ومن بين تلك التجارب الكثيرة فى ذلك المضمون عند الشاعر ما جاء فى قوله يناجى قلمه – " خله الوفي" ، "وصفيه الحنون " ، باثاً بين يديه ما تفيض به نفسه من مشاعر الحزن والأسى ، والحسرة والضياع ، ساكباً الدموع الغزار على فقد أمه ، داعياً بالرحمة لها ، ومستعظماً المصيبة فى فقدها ، مصوراً أثر وقع فراقها على نفسه وحياته ، مؤكداً كيف أن رحيلها قد خلَّف فراغاً كبيراً فى نفسه ، وأحدث هوة سحيقة فى حياته فقد بهما توازنه بعد أن ضعضعه الحزن ، واستبدَّ به اليأس ، ونال منه الأسى .. فلم يجد أمامه – وهو المسلم الملتزم – سوى الصبر ملاذاً يلوذ إليه ، وسلاحاً قوياً يتعزَّى ويتسلَّى به ، مُنطلقاً فى ذلك من إيمانٍ قويٍ

بِربه .. لا تزعزعه صروف الحياة ، ولا تهزه عاديات الليالي ، ولا تنال منه حوادث الزمان .. لنعش تلك المعانى والمضامين مع الشاعر فى قصيدته الرقيقة الباكية المؤثرة :" يا دفق القلم الباكي " – تلك التى تنضح كلماتها بالرقة والصدق ، وتفيض عباراتها بالحب والوفاء . إزاء أمه العزيزة الغالية :

رحلـــــــت يـــــــا قلمـــــــي أُمِّـــــــى
يرحمهـــــــــــــا الله تعـــــــــــالى !
مـــا عـــادت تمســـح بأنامـــل كفـــي أمومتهـــا همِّـــي
مـــا عـــادت تغســـل بـــالنظرات الحانيـــة جراحـــى
تـــــــــــــــذهب غمِّـــــــــــــــى
مـــا عـــادت تمنحنـــى فرصـــة تقبيـــل جـــبين العطـــف
صـــــــــــــــباح مســـــــــــــــاء
مـــا عـــادت تمنحنـــى فرصـــة تقبيـــل يـــديها
تقبيـــــــــــــل الشـــــــــــــرفاء
رحلـــــــت يـــــــا قلمـــــــى أُمِّـــــــي
هـــــل تعـــــرف معنـــــى (رحلـــــت أمـــــى)؟!
هـل تعلـم أنـى أنزلـت حبيبـة قلـبي فـى الحفـرة بيـدي ؟!
هـــــــل تعلـــــــم أنـــــــي بيـــــــدي
قـــــد كـــــوَّرتُ وســـــادة طـــــين مبلولـــــة
ورفعـــــــتُ الـــــــرأس قلـــــــيلاً
ووضـــــعت وســـــادة طـــــين لحبيبـــــة قلـــــبي ؟!
هـــل تعـــرف أنـــى قـــد أحكمـــت عليهـــا إغـــلاق القـــبر ؟!
هـــــل تعـــــرف معنـــــى هـــــذا الأمـــــر ؟ !

.....

فأنـــــا واريـــــتُ هنالـــــك تحـــــت الأرض
حبيبـــــــــــــة قلـــــــــــــبي
وأنـــــا وســـــدتُ الطـــــين أنيســـــة قلـــــبي
وأنـــــا يـــــا قلمـــــي أشـــــعر أن الحـــــزن يُلـــــدِّعُنى
وأُحـــــسُّ بـــــأن بـــــراكين الألم تُصـــــدِّعنِى

وأُحِـــــسُّ بـــــأن رمـــــاح البعـــــد تُصـــــوِّبُنى
يـــــــا دفـــــــق القلـــــــم البـــــــاكى
لا تجـــــرف ســـــد الصـــــبر الشـــــامخ فـــــى قلـــــبي
إنِّـــــــــــى آمنـــــــــــتُ بربِّـــــــــــي
إنِّـــــــــــى آمنـــــــــــتُ بربِّـــــــــــي (٣٦)

وتفيض تلك الكلمات – كما نرى – بمشاعر الحب والتقدير ، والوفاء ، والتبجيل الكائنة فى أعماق الشاعر إزاء أمه الحبيبة ، ووالدته الغالية .. حيث يجسد الشاعر . من خلالها . مايلفه ، ويعتصر نفسه من مشاعر الألم والحزن ، واليأس والضياع والحيرة والاضطراب إزاء فقدها ..

أما عن مشاعر الحب والتقدير الكائنة فى أعماق الشاعر نحو أمه هنا . فتبدو متحققة فى تساؤلاته التقريرية المتتالية لقلمه تلك التى يسائله . من خلالها . سؤال مندهش مذهول ، فاقد للصواب ، مصدوم غير مُصدق بنبأ رحيل أمه ، ولا مُدرك لما أقدم عليه عندما هم بوضع جسدها فى التراب ، مُودعاً ، ومُوارياً إياها القبر :

هل تعرف معنى (رحلت أمى)؟!
هل تعلم أنى أنزلت حبيبة قلبي فى الحفرة بيدي ؟!
هل تعلم أني بيدي
قد كوَّرتُ وسادة طين مبلولة
ورفعتُ الرأس قليلاً
ووضعت وسادة طين لحبيبة قلبي ؟!
هل تعرف معنى هذا الأمر ؟ !
يا دفق القلم الباكى ؟

وشاعرنا إذ يكثر من تلك التساؤلات التقريرية ، وهو إذ يلح عليها فإنه يؤكد من خلال ذلك . شدة حبه لأمه ، وبالغ تقديره لشخصها ، وعميق حزنه إزاء رحيلها .. ومن ثم فهو يستعظم المصيبة فى فقدها .. حيث بدا وكأنه غير مصدق بنبأ رحيلها ، وظهر فى صورة حائر فاقد للوعي ، غير مستوعب لما هو بصدده من موقف جد رهيب ، ناء قلبه بحمله ، وضاق صدره بتحمله .

(٣٦) ديوان : هي أمى – صـ ١٣ –١٥ .

هل تعلم أنى أنزلت حبيبة قلبي فى الحفرة بيدي ؟!

فى حين يبدو مايسيطر على الشاعر ، ويتملك نفسه من مشاعر الحزن والألم ، والضياع والأسى الكائنة فى أعماقه من أثر فقد أمه – والتى من شأنها أن تنال من نفسه ، وتنفذ فى أعماقه ، فتتصدع منها أركانه ، ويتزلزل بها واقعه، وينهار كيانه .. ويفقد معها صوابه ، تبدو تلك المشاعر فى قوله : يبث بشجونه لقلمه ، ويسكب عبراته بين يدي يراعه :

وأنا يا قلمي أشعر أن الحزن يُلدِّعُنى
وأُحسُّ بأن براكين الألم تُصدِّعنِى
وأُحِسُّ بأن رماح البعد تُصوِّبُنى

ولا يخفى على القارئ الكريم تلك التراكيب الدالة ، والعبارات المُوحية التى نجح الشاعر ، ووُفق من خلالها ـ فى تجسيد حالته ، وتصوير واقعه ، وما يلفه من مشاعر حزينة ، وما يسيطر عليه من أحاسيس أليمة ـ إزاء فقد أمه .. والتى من شأنها أن تفت فى عضده ، وتنال من نفسه ، وتُنغص عليه هناءته ، وتُقلق مضجعه ، وتُزلزل كيانه ، وتُعكر صفوه من مثل : الحزن يُلدِّعنى .. براكين الألم تُصدِّعنى ، رماح البعد تُصوِّبنى .. وأيضاً إيثاره لصيغة الجمع فى هاتين الكلمتين : " براكين ، ورماح بجانب التضعيف الوارد فى الكلمات : يلدعنى ، تصدعنى ، تصوبنى ، وما يدل عليه ذلك ، ويؤكده من شدة إحساس الشاعر بألم الفقد ، وبالغ شعوره بعذاب البُعد، وما يترسب فى أعماقه من أحزان بالغة ، وآلام ممتدة إزاء ما يقفه من موقف جد رهيب هنا .

ولذا رأينا الشاعر بعد ذلك يلوذ بالصبر ، ويتسلح بالإيمان ، مُستعيناً بربه .. حيث يهيب بقلمه قائلاً :

يا دفق القلم الباكى
لا تجرف سد الصبر الشامخ فى قلبي
إنِّى آمنتُ بربِّي
إنِّى آمنتُ بربِّي

وغير خاف تكرار الشاعر لعبارة : إنى آمنت بربى ، وما يدل عليه ذلك التكرار ، ويؤكده من قوة وصدق إيمان الشاعر ، ورسوخ عقيدته ، وقد كانت هذه الكلمات أبلغ ختام لتلك التجربة الصادقة القوية المؤثرة .

وفى تجربة أخرى بين تجارب الشاعر الكثيرة فى بكاء أمه ، وتأكيد حبها ، وتقدير شأنها ، واعترافه بفضلها .. فى إحدى تلك التجارب ، نلتقى بمشاعر الحب والتقدير ، والوفاء والعرفان الكائنة فى أعماق الشاعر إزاء أمه . وقد امتزجت بمشاعر الحزن والجوى ، والألم والأسى ، واللهفة والحنين المستقرة فى حناياه إزاء والدته الغالية .. حيث يؤكد كيف أنها حقيقة بأن يبكى عليها أشد البكاء ، وأن يقف أمام شخصها وقفة إعزاز وتبجيل ، واحترام وتقدير ، مُهيباً بمن يُلقى عليه باللائمة فى بكائه الشديد ، وحزنه البالغ ، وأساه العميق إزاء فقد أمه أن كفوا عن لومكم فأنتم لا تعرفون أمى مثلما أعرفها ، فلقد كانت حياتى وكنزى ، وسر سعادتى ، ومنطلق نجاحى ، ومصدر هناءتى ، ونبع حنانى ، وينبوع عطفى ، وظلى الظليل . ودوحى الرطيب فى الحر الشديد ، وصدرى الحنون فى البرد والزمهرير .. فكل جود وجواد يتضاءل أمام جودها ونداها ، وكل ندى وسخاء يصغر إزاء كرمها وسخاها .. ولذا فهو إذ يبكيها أشد البكاء فإنه يحاول جاهداً أن يؤدى ماعليه نحوها من واجب الوفاء .. حيث يقول :

لا تقولوا بكيت أقسى بكاء ∴ فبكاء المحب رمز الوفاء

كيف لا يذرف الدموع محب ∴ ذاق مُر الفراق بعد اللقاء ؟!

هي أمى فى فقدها فقد عمر ∴ وحياة من الرضا والصفاء

هي كنز الدعاء ، يالهف نفسى ∴ وأساها لفقد كنز الدعاء ! !

هي نبع الحنان والعطف ، من لى ∴ بعد أمى برشفة وارتواء ؟!

هي برد الحنان فى قيظ حزنى ∴ وهي دفء الحنان وقت الشتاء

كم سخاء فى الناس يصغر لما ∴ ترسم الأم لوحة للسخاء ! ![٣٧]

ولا يخفى ماقام به الشاعر . خلال أبياته هذه من تعداد أوجه الفضل ، ومظاهر النفع ، ومجالى العظمة . تلك التى توفرت فى شخص أمه الرءوم ، والتى من شأنها أن يقف إزاءها مُحيياً ، ومُقدراً .. وفى ذات الوقت مُتحسراً ، وباكياً ،

(٣٧) ديوان : هي أمى – صـ ١٦ .

شديد البكاء على فقدها ، وذلك بعد حرمانه من أثر بقاء أمه وحياتها ؛ ولذا فقد حُق له أن يبكى الدموع الغزار على فقدها :

هى أمى فى فقدها فقد عمر ∴ وحياة من الرضا والصفاء
هي كنز الدعاء ، يالهف نفسى ∴ وأساها لفقد كنز الدعاء ! !
هي نبع الحنان والعطف ، من لى ∴ بعد أمى برشفة وارتواء ؟!
هي برد الحنان فى قيظ حزنى ∴ وهي دفء الحنان وقت الشتاء

وهكذا كانت أمه بالنسبة له كل هذا فمن له بعدها ؟!

وإن كان يؤخذ على الشاعر تكراره هنا لكلمة: "الحنان" حيث قوله منها عن أمه: هي نبع الحنان .. هي برد الحنان دون أن يكون للتكرار مغزى ولا عظيم فائدة هنا .

ويؤكد الشاعر عبر تجربته ذاتها مضمون الأبيات السابقة ، ويلح عليه .. حيث يرد بمزيد من الإجابات على من لامه على حالته البالغة تلك من الحزن العميق ، والأسى الشديد ، والألم والأنين إزاء فقد أمه .. مخبراً إياهم بأن مايرونه من شدة حزنه ، وتألمه ، وبالغ بكائه وتحسره إنما هو جزء من كل مايخفيه فى أعماقه ، ويكنه فى ضلوعه .. مكثراً من التعابير الموحية ، والصور الرائقة التى تؤكد مالأمه من فضل كبير عليه ، ومالها من أثر محوري ، ودور جوهري فى بنائه وتكوينه .. مما يجعل من فقدها رزءاً كبير ، وحادثاً جللاً ، ومصاباً فادحاً .. حل على الشاعر، وداهمه، ونزل به، فراح يتجرع كأس الفقد، ويعالج ألم الفراق، ويذوق مرارة الحرمان، ويقاسى شدة الظمأ .. يقول :

لا تلوموا توجعى وأنينى ∴ فلقد أشعل اللهيب عنائى
لا تلوموا بكاء عينى فهذا ∴ عشر مالاترونه من بكائى
صرت كالطفل حين فارقت أمى ∴ تائها مثل ريشة فى الفضاء
كلما هبت الرياح رمتها فى ∴ مهما وى توجس وانطواء
رجل شامخ العزيمة لكن ∴ أين منى عزيمة الأقوياء ؟!
صرت من بعدها كسالك بيد ∴ موغراً فى الظهيرة الحمراء

يستشـــير الســـراب فيـــه حنيـــناً ∴ جارفـــاً نحـــو قطـــرة مـــن مـــاء

ويريـــه الغبـــار ليـــلاً بهيمـــاً ∴ فـــى نهـــار معفـــر الأجـــواء

تركتنـــى كواقـــف فـــوق تـــل ∴ جفنـــه يشـــتكى مـــن الأقـــذاء

جهـــزت لى أمـــى ســـقائى ولكـــن ∴ حـــين غابـــت عنـــى فقـــدت ســـقائى!![٣٨]

وتحفل تلك الأبيات ـ كما نرى ـ بالعديد من الصورة الفنية الرائقة التى يجتهد الشاعر –من خلالها– فى تجسيد واقعه ، وتصوير حاله بعد ذهاب أمه ، وغيابها عن حياته .. من مثل تشبيه نفسه بالطفل الذى فقد أمه ففقد بذلك الحنان والأمان ، والأنس والاطمئنان .. وراح يقاسي الوحشة والاضطراب ، ويلاقى الخوف والضياع ..

صـــرت كالطفـــل حـــين فارقـــت أمـــى ∴ تائهـــا مثـــل ريشـــة فـــى الفضـــاء

كلـــما هبـــت الريـــاح رمتهـــا فـــى ∴ مهـــا وى تـــوجس وانطـــواء

ومن مثل تشبيه نفسه بعد فقد أمه ، بالصادى الظمآن الذى يجوب الفيافى، ويقطع البوادى موغراً فى الظهيرة الحمراء .. يقاسى الحر ، ويعانى القيظ ، طامعاً فى قطرة ماء ، تروى ظمأه ، وتشفى غلته !! ، مصوراً كيف يستحيل فى ناظريه النهار – بما يعلوه من كآبه ، وما يكسوه من قتامة ، وما يغشى أفقه من ظلام ، ويخيم على أرجائه من سواد .. يستحيل بذلك كله إلى ليل بهيم ، موغل فى الظلمة ، ممعن فى السواد .. وبجانب تلك الصور الفنية الرائقة المُعبرة يأتى تساؤل الشاعر الذى يدل على حسرته واضطرابه ، ويجسد تيهه وحيرته .. وذلك فى قوله عن نفسه :

رجـــل شـــامخ العزيمـــة لكـــن ∴ أيـــن منـــى عزيمـــة الأقويـــاء ؟!

لقد شعر بذهاب قوته ، وضعف وعزيمته بعد أن ذهبت عنه أمه ، حيث وهنت قواه ، وخارت عزيمته ، ولانت إرادته ، بجانب تعبيره بكلمة : "سقائى" .. وما توحى به وتدل عليه من سر البقاء ، ومصدر الحياة ، مؤكداً من خلال التعبير بها دور أمه المحوري ، وأثرها الجوهري فى حياته :

---

(٣٨) ديوان : هي أمى – صـ ١٧ ، ١٨ .

جهـــزت أمـــى ســـقائى ولكـــن ∴ حـــين غابـــت عنـــى فقـــدت ســـقائى

وكل ذلك من شأنه أن يقوم دليلاً قاطعاً على كون أمه حقيقة بالحب والتحية والتقدير ، جديرة بالثناء والوفاء والبكاء عليها أشد البكاء ، والذى يبدو مقصراً إزاءه شاعرنا :

لا تلومـــوا تـــوجعى وأنينـــى ∴ فلقـــد أشـــعل اللـــهيب عنـــائى

لا تلومـــوا بكـــاء عينـــى فهـــذا ∴ عشـــر مالاترونـــه مـــن بكـــائى

وها هو ذا شاعرنا يزيد فكرته هذه تأكيداً حيث يصور لنا –خلال تلك القصيدة ذاتها– حاله ويجسد واقعه بعد أن فارقته أمه ، وغابت عنه حبيبته .. فقد أطبق عليه الظلام ، ولفه الليل الطويل بساعاته الممتدة ثقيلة الحركة ، بطيئة المسير ، وئيدة الخطى ، ليبنى له من الغياهب قيداً ، ومن الظلمات سجناً يضاعف من وحشته ، ويزيد من أحزانه وأساه ، وإذ به . وهو المؤمن الموقن الراضى بحكم ربه . وبعد أن أطبقت عليه الظلمات ، وجثمت على صدره الهموم من أثر فقد أمه "حبيبته" ، إذ به يرى شعاعاً من ضياء ، وومضة من نور ، وبارقة من أمل يبدد هذه الظلمات ، ويزيح تلك الهموم ، حيث رضاه ، وتسليمه بقضاء ربه ورجاؤه فى أن يحظى بلقاء أمه عند رب العباد ، عوضاً له عن فقدها ، وعزاء عن غيابها عن تلك الحياة القائمة على الفناء .. فعنده سبحانه خير السلوى والعزاء ، وأكرم المثوى والمقام .. يقول :

ســـافر الليـــل بـــى بطيئـــاً ثقيـــلاً ∴ باهـــت البـــدر خافـــت الجـــوزاء

يتمطـــــى بصلـــــبه ويرينـــــى ∴ كيـــف تبـــدو حقيقـــة الـــثقلاء ؟!

وجـــه ظلمائـــه تجهـــم حتـــى ∴ خـــاف قلبـــى تجهـــم الظلمـــاء

سافر الليل بى ، فلما طوانى فـــى ظـــلام الـــدجى وأشـــجى مســـائى

وبنـــى لى مـــن الغياهـــب ســـجناً ∴ زاد مـــن وحشـــتى وطـــول شـــقائى

حينمـــا أســـرف الظـــلام تجلَـــى ∴ مـــن يقينـــى بـــالله أسمـــى ضـــياء

شمعـــة بـــددت ظـــلام الـــدياجى ∴ وبإشـــراقها دفعـــت بلائـــى

ياجبـــال الأســـى تطامنـــتِ لمـــا ∴ صـــار قلبـــى فـــى القمـــة الشـــماء

إن تكـــن غابـــت الحبيبـــة عنـــا ∴ فـــى حيـــاة معجونـــة بالفنـــاء

فلنـــا مـــن رجائنـــا فـــى التلاقـــى ∴ عنـــد رب العبـــاد خـــير عـــــزاء[٣٩]

ولا يخفى تأثر الشاعر فى بيتيه الأول والثانى ذانيك اللذين صور خلالهما طول الليل عليه ، وتثاقل ساعاته ، وتباطؤ دقائقه .. مما يجثم على صدره من هموم ، وما يثقل كاهله من أحزان إزاء فقد أمه .. لا يخفى تأثره فى ذلك بمضمون أبيات أمير الشعر الجاهلي امرؤ القيس التى يقول فيها مصوراً طول وامتداد الليل عليه هو . الآخر :

وليـــل كمـــوج البحـــر أرخـــى ســـدوله ∴ علـــيَّ بـــأنواع الهمـــوم ليبتلـــى

فقلـت لـه لمـا تمطـى بحـــــوزه ∴ وأردف أعجـــازاً ونـــاء بكلكـــل

ألا أيهـــا الليـــل الطويـــل ألا انجـــلِ ∴ بصـــبح ومـــا الأصـــباح منـــك بأمثـــل

فيالـــك مـــن ليـــل كـــأن نجـــومـــه ∴ بكـــل مغـــار الفتـــل شـــدت بيـــذبل

كـــأن الثريـــا علقـــت فـــى مصـــابها ∴ بـــأمراس كتـــان إلى صـــم جنـــدل[٤٠]

فكلا الشاعرين قد أثقلت صدريهما الهموم ، وجثمت على نفسيهما الأحزان فشعرا من ثم بطول الليل وامتداده ، وتوقف ساعاته عن المسير .

وللشاعر تجربة رائعة ، ومثيرة طال فيها نفسه ، وغزرت مشاعره . إزاء أمه الغالية . عندما ذهبت عنه وغابت .. تلك التجربة القوية الصادقة المثيرة قد أودعها شاعرنا قصيدته :" قراءة فى كتاب الحنين " مفضياً . خلالها . بما تفيض به نفسه من مشاعر الحب والتقدير ، والشوق والحنين ، والإعزاز والوفاء إزاء ذكرى أمه الحبيبة ، حيث منطقة الباحة مسقط رأسه . ملاعب صباه . ومنتدى لهوه ، والأرض التى ولد فيها ونشأ ، ونما ودرج على ترابها فى ظل أم رءوم ، وعش والدة حنون بذلت لأولادها روحها ، وضحت لصغارها بحياتها ..

---

(٣٩) ديوان : هي أمى ــ صـــ ١٩ ، ٢٠ .

(٤٠) ديوان : امرؤ القيس – صـــ ١٠٠ ، ١٠١ إصدار دار كرم بدمشق للطباعـــة والنشـــر ، و"سدوله " : "ستوره" يعنى : "ظلامه " بصلبه – بحوزه: بوسطه ، أعجازه : أواخره ، بأمثل : بأفضل ، مغار الفتل : شديد الفتل .

وقد استهل شاعرنا قصيدته هذه بوقوفه بين يدى ربوع منطقة الباحة .. باحة الحب ، والحنان ، ومستودع ذكريات الصبا والشباب . يهيب بها . أن تخبره . عن سر ما يلفه من ألم وأسى ، ويتملكه من عذاب وضنى .. مقرراً كيف أنها . أى تلك الربوع . تشاركه أحزانه ، وتقاسمه آلامه فى فقد أمه الحبيبة ، حيث تسكب الدموع وتذرفها عليها مثله .. فتهيج أحزانه ، وتثير شجونه ، وتضاعف آلامه .. تلك التى يحاول جاهداً كتماناً ، حيث يتظاهر فى صورة المُتجلد الثابت الراسخ ثبات ورسوخ الجبال ، متجملاً بابتسامة تصاحبه فى أثناء لقائه بالأهل والأصحاب .. مخبئاً أحزانه فى حنايا فؤاده ، وحابساً دموعه عن أهدابه ، ولكن أنى له ذلك ، حيث تأبى ملامح حزنه ، ومعالم جرحه إلا أن تبدو على قسمات وجهه حيث علمت بقصة حزنه ، ونبأ ألمه ربوع وجنبات الباحة .. الحية المتحركة منها والثابتة الجامدة متجاوبة مع حزنه، ومتفاعلة مع ألمه ..فراحت تتجاوب مع حزنه ، وتتفاعل مع ألمه .. حيث يقول :

باحة الحب والصبا والشباب ∴ خبريني ما سر هذا العذاب ؟
مالعينيك تذرفان دموعاً ∴ كدموعى وتوقظان اكتئابى ؟!
أنا ـ والله قد كتمت أنينى ∴ وعلى حسرتى طويت ثيابى ! !
وتظاهرت بالتجلد حتى ∴ خلت أنى سلبت طبع الهضاب
وتجملت بابتسامة ثغرى ∴ فى لقائى بالأهل والأصحاب
فى حنايا الفؤاد خبأت حزنى ∴ وحبست الدموع عن أهدابى
فلماذا أرى ملامح جرحى ∴ نقلتها إلي خضر الروابى ؟!
ولماذا أرى الجبال قلاعاً من ∴ أنينى مغمورة بالضباب ؟!
من روى للجبال قصة حزنى ∴ وأنينى ومن روى للشعاب؟![٤١]

وتتسم التجربة هنا بما تتسم به تجارب الشعراء الرومانسيين فى مثل هذه المواقف ، حيث يخلع الشاعر أحاسيسه الحزينة ومشاعره الشجية هنا على مظاهر الطبيعة ، فيجعل منها شخوصاً عاقلة تنفعل بما ينفعل به ، وتتجاوب مع مايشعر

(٤١) ديوان : هي أمى ــ صـ ٤٦ ، ٤٧ .

ويحس به ، ومن ثم رأيناه يسائلها هنا منتظراً منها الرد والجواب ، خالعاً مشاعره الشجية ، وأحاسيسه الحزينه على مظاهرها :

باحـــة الحـــب والصـــبا والشـــباب ∴ خبرينـــى مـــا ســـر هـــذا العـــذاب ؟!

مـــا لعينيـــك تـــذرفان دمـــوعاً ∴ كـــدموعى وتوقظـــان اكتئـــابى ؟!

فقد جعلها ـ كما نرى ـ مثله تماماً ، قسيمة له فى الحزن والالم على فقد أمه الغالية ..

وقد أكد الشاعر ـ خلال أبياته ـ هذه ـ شدة حبه وتقديره لأمه ، وعمق وبالغ حزنه إزاء فقدها ، حيث بدا ـ وهو يحاول جهده أن يخفى حزنه ، ويباعد عنه بالتجمل ، وحمل النفس على الصبر والرضا .. ولكن من شدة الحزن ، وبالغ وعمق الأسى لا يستطيع ذلك ، حيث يضيق صدره بتحمل تلك الأحزان ، ولا تضيق نفسه كتمانها .. فتعلم من ثم مظاهر الطبيعة بها .. فتتفاعل معها ، وتتجاوب مع صاحبها .. ذلك الذى يعجب أشد العجب من معرفة تلك المظاهر ـ بما يكنه صدره، وما تحمله نفسه، لاسيما ـ وأنه قد اجتهد قدره فى إخفاء ذلك:

فـــى حنايـــا الفـــؤاد خبـــأت حزنـــى ∴ وحبســـت الـــدموع عـــن أهـــدابى

فلمـــاذا أرى ملامـــح جرحـــــــى ∴ نقلتـــــها إلـــي خضـــر الروابـــى ؟!

ولمـــاذا أرى الجبـــال قـــــــلاعاً ∴ مـــن أنينـــى مغمـــورة بالضـــباب ؟!

مـــن روى للجبـــال قصـــة حـــزنى ∴ وأنينـــى ومـــن روى للشـــعاب ؟!

ثم نرى الشاعر ـ بعد ذلك – وعبر أبيات قصيدته ذاتها – يعقد مقابلات ، ويقيم موزانات بين حال وواقع ذلك المكان الذى ضمه وإخوته وأمه الرءوم التى كانت ترفرف عليهم بأجنحة حبها ، وودها وتظللهم بألوية حنانها وعطفها .. ها هو ذا يعقد مقابلات ، ويقيم موازانات بين ذلك المكان " الباحة " قبل وبعد ذهاب ورحيل أمه عنه ، مصوراً تعجبه ودهشته ، وحسرته وحيرته إزاء تبدل الحال ، وتغير المقام به حيث يقول :

باحـــة الحـــب كـــم أرحـــت فـــؤادي ∴ فلمـــــاذا جنحـــــت للإنعـــــاب ؟!

كنـــت مســـرحاً لأنســـى وصفـــوى ∴ كيـــف أصـــبحت مســـرحاً لاغترابـــى ؟!

كيف صارت فيك الرياحين تبدو ∴ كسهام تصيبنى وحراب ؟!

كل شئ هنا تغير حتى ∴ أصبح السيف منكراً للجراب

صرت فى حيرة من الأمر حتى ∴ خلت أنى أخوض وهم السراب

لم أزل أذكر الأمومة نهراً ∴ يمنح الأرض لهفة الإخصاب

يوم كانت "عراء" تفتح نحوى ∴ من معانى سعادتى كل باب

بين أمى وبين جدى كنا ∴ لا نرى غير ألفة واقتراب

كانت الدر خيمة طرزتها ∴ يد أمى بالبشر والترحاب

زينتها أمى الحبيبة حتى ∴ أصبحت للحنان أغلى رحاب

كانت الدار ثم صارت فويحى ∴ من مساء مجرد من شهاب !!

بين كانت وبين صارت رأينا ∴ كيف يكوى القلوب حر المصاب ؟!

أصبحت دارنا كتاب حنين ∴ آه مما حوت سطور الكتاب!![٤٢]

وشاعرنا تتوزع نفسه بين ماض هنئ كانت فيه تلك الدار مسرحاً لأنسه وصفوه ، وأرضاً خصبة لحلمه وأمله ، حيث زينتها أمه الحبيبة .. وقامت عليها صباح مساء ففتحت لبنيها من معانى السعادة كل باب ، وأشاعت بينهم جو البشر والترحاب ، والألفة والإيناس ، وبين حاضر حلت فيه الوحشة محل الأنس ، والكدر محل الصفو .. واستحالت الرياحين سهاماً وحراباً ، وغدا كل شئ هنا غريبا حتى صار الإلف ينكر أليفه " ، وراح شاعرنا يخوض لجج الحيرة ، وبحار الوهم ، وشطآن السراب ، بعد أن غدت الدار ذكرى يحن إليها ، ويتحسر على مانزل ، وحل بها :

بين كانت وبين صارت رأينا ∴ كيف يكوى القلوب حر المصاب ؟!

أصبحت دارنا كتاب حنين ∴ آه مما حوت سطور الكتاب !!

(٤٢) ديوان : هي أمي – صـ ٤٨، ٤٩ .

.. وهكذا غدت تلك الدار التى جمعت شاعرنا بإخوته فى ظل أم راعية حانية ، ومربية مثالية فاضلة .. هكذا غدت تاريخاً ، وأمست ماضياً يحن الشاعر إليه ، ويتحسر على ما آل إليه ..

ثم يتساءل شاعرنا عبر قصيدته تلك تساؤل من يشعر بالحيرة والضياع ، والأسى والحسرة أين ذهبت أمه ؟!.. حيث يتفجع على فقدها ، ويستعظم المصيبة فى موتها ، وكأنه غير مصدق بنبأ رحيلها .. ، معزياً نفسه ، ومصبراً إياها باحتسابه فقدها عند ربه سبحانه ، ولولا يقينه بأن الموت نهاية كل حى لما تركها وحيدة فى التراب .. فهى عظيمة عظم الشمس ، جمة الفوائد ، متعددة المنافع مثلها ، لم يزل أثرها باقياً ، ونورها ساطعاً برغم الغياب : حيث يقول :

أين أمى ياقريتى ، لا أراها ∴ حين آتى تخصنى بالخطاب ؟!
أين أمى يابؤسه من سؤال !! ∴ أتحاشى مابعده من جواب ؟!
ودعتنا أمى فلله حزن ∴ جارف فى الفؤاد لولا احتسابى !!
إنها سنة الحياة وإلا ∴ لم أدعها وحيدة فى التراب
إنها الشمس لم يزل فى ضلوعى ∴ نورها ساطعاً برغم الغياب[٤٣]

وقد أجاد الشاعر حين ـ كرر تساؤله الوارد فى قوله : "أين أمى" .. حيث يدل ذلك التكرار على حاله ، ويجسد واقعه هنا ، فهو حائر مضطرب ، ممعن فى الحيرة والاضطراب ، حيث تفيض نفسه بمشاعر الضياع والحسرة ،واللهفة والشوق ، والذهول والدهشة إزاء فقد أمه .. وأجاد أيضاً فى تشبيهه لأمه بالشمس فهى عظيمة ، عالية القدر ، رفيعة الشأن ، بعيدة المكانة ، جمة المنافع، متعددة الفوائد .. وكذلك كانت أمه بالنسبة له ، وستظل أثارها تعود عليه بالنفع والفائدة .

ومن التجارب الجيدة ، والقصائد المثيرة فى ذلك المضمون أيضاً عند الشاعرتلك القصيدة التى تحمل عنواناً دالاً ، ومسمى موحياً : أواهٍ من هذا الفراغ!!" .. وفيها يذرف شاعرنا الدموع ، ويسكب العبرات على فراق والدته الحبيبة ، متحرقاً شوقاً إليها ، مؤكداً كيف أحدث رحيلها فراغاً كبيراً فى حياته ، وأوجد خواء واسعاً فيها .. مما أشعره باليأس والضياع ، والحيرة والاضطراب ، وأفقده الثقة والاطمئنان

(٤٣) ديوان : هي أمى صـ ٥٩ .

، وضاعف فى نفسه الآلام والأحزان .. لنعش مع الشاعر . وهو يؤكد هذا المضمون ، ويبرزه ، ويلح عليه من خلال تساؤلاته التقريرية المتتالية والتى تؤكد شوقه الشديد ، وحنينه الجارف إزاء أمه الراحلة ، وافتقاده لدفئها ، وحنانها ، وحرمانه من نصائحها ، وتوجيهاتها ، وتحفيزها ، وتشجيعها :

من لى بتقبيل الجبين مصبحاً ∴ وممسياً ، وممسحاً أعتابها ؟!

من لى بحسن الرأى منها حينما ∴ تهدى إلي من الأمور لبابها ؟!

من لى بصدق الحدس منها حيثما ∴ تلقى الخطوب على العيون ضبابها؟!

....

من ذا سأسمعه القصائد بعدها ∴ ومن الذى سينيلنى إعجابها ؟!

من ذا أبشر حين أفرح كى أرى ∴ فى وجهها فرحاً يطير صوابها ؟!

من لى بهاتفها الحبيب يجيبنى ∴ "أهلاً حبيبى" يافديت جوابها ؟!

أماه صيرنى فراقك حائراً ∴ فى بيد آلام تسل سرابها

مازلت أشعر بالضياع كسائر ∴ فى مهمه تسفى الرياح ترابها

أواه من هذا الفراغ وجدته ∴ فى نفسى الحرى يزيد عذابها !![٤٤]

وغير خاف أن الشاعر قد أكد مضمونه ، وأبرزه وألح عليه هنا من خلال تساؤلاته التقريرية المتتالية .. التى كثف بها تجربته هنا ، مظللاً بها سماءها ، والتى تؤكد شوقه الشديد ، وحنينه الجارف ، وتقديره البالغ ، واحترامه الكبير إزاء أمه الراحلة ، وافتقاده الملحوظ لدفئها وحنانها ، وشدة احتياجه لرأيها ، ومشورتها، ونصحها ،وتوجيهها ، وتشجيعها وتحفيزها :

أواه من هذا الفراغ وجدته ∴ فى نفسى الحرى يزيد عذابها ! !

أماه صيرنى فراقك حائراً ∴ فى بيد آلام تسل سرابها

مازلت أشعر بالضياع كسائر ∴ فى مهمه تسفى الرياح ترابها

(٤٤) ديوان : هي أمى ــ صـ ٣٦ ، ٣٧ .

وقد أحس بالحيرة والضياع ، وشعر بالتيه والاضطراب فصار فى حيرته وتيهه كسالك أرض شاسعة مجدبة مقفرة تغص بالآلام والأوهام .. تيقن من ثم سالكها الهلاك ، وأدرك الضياع .. وهو ـ أي شاعرنا ـ غدا بفقد أمه حائراً ضائعاً تائهاً متخبطا فى تلك البيد ، لا وزن له ولا ثبات ، حيث يغدو كالتراب الذى تذوره الرياح!! :

اواه من هذا الفراغ وجدته ∴ فى نفسى الحرى يزيد عذابها!!

وفى القصيدة ذاتها يناجى شاعرنا روح أمه الخالدة ، مؤكداً مايتملكه من حزن جارف ، ومايستبد به من يأس شديد سرعان مازال، وذهب عندما ذكر نفسه بموت الحبيب ﷺ ، واجداً فى ذلك العزاء والسلوى ، والتخفيف عنه فيما يلاقى ويُقاسى ، محتسباً موتها عند ربه سبحانه ، راجياً منه سبحانه أن يدخلها فى مستقر رحمته ، وأن يجزل فى الصالحات ثوابها .. حيث يقول :

أماه ، حين رأيت حزنى جارفاً ∴ يطوى حبال مشاعرى وشعابها

أسرجت فى قلبى خيول يقينه ∴ وركبت فى درب اليقين عرابها

ذكرت نفسى بالرسول وقد شكت ∴ بوفاته كل القلوب مصابها

خطب جليل هز أفئدة الورى ∴ هزاً ، وأشعل حزنها وأذابها

بردت بذكراها الحبيبة لوعتى ∴ وهموم نفسى واحتسبت عذابها

يا رب هيئ للحبيبة منزلا ∴ فى الخلد أجزل ياعظيم ثوابها [٤٥]

..وهكذا يبدو شاعرنا ـ خلال تجاربه الكثيرة تلك فى أمه فى صورة الابن البار بوالدته ، المحب لها ، المتفانى فى حبها ، المقدر لها حقها ، المعترف بفضلها ، المقر بمعروفها ، المكبر لصنيعها ضارباً مثلاً نادراً ، وأنموذجاً فذّاً فى البرّ بأمه ، والإحسان إليها ، ولم لا وهو القائل :

أنا يا أماه ـ نبت ∴ ظل يسقى بالحنان

أنا معنى من معان ∴ ك وما أرقى المعانى!!

أنا سطر فى سجل الـ ∴ مجد قد صغت كيانى

---

(٤٥) ديوان : هي أمى ــ صـ ٣٨ ، ٣٩ ، . يقال فرس معرب : خلصت عربيته .. مادة عرب – لسان العرب – العلامة ابن منظور – ج ٦ ، صـ ١٥٧ – ط دار الحديث – ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م .

كيـــــف لا يذكـــــر قلـــــب ∴ منـــــك عطفـــــاً وحنانـــــاً؟!

كيـــــف لا يـــــذكر إخلاصـــــاً ∴ وصـــــدقاً واتزانـــــاً؟!

أنـــــت يـــــا امـــــاه أنشـــــو ∴ دة عطـــــف ووفـــــاء

أنـــــت عنـــــوان عظـــــيم ∴ فـــــى ســـــجل العظمـــــاء

أنـــــت مهـــــدت طريقـــــى ∴ أنـــــت أكملـــــت بنـــــائى

أنـــــت يـــــا أمّـــــاه نبـــــرا ∴ س جـــــلا بـــــالنور دربـــــي

أنـــــت عطـــــف بـــــدد آلا ∴ مـــــي عـــــن صـــــفحة قلـــــبي

فلـــــك التقـــــدير يـــــا أمـــــي ∴ وإخـــــلاصـــــى وحبـــــى[٤٦]

والقائل :

مـــاذا يقـــول عـــن الأمومـــة شـــاعر ∴ لـــولا الأمومـــة مـــاترنم واشـــتهر ؟![٤٧]

المبحث الثانى : شعره فى المرأة " المحبوبة"

الناظر فى تجارب الشاعر التى أبدعها فى المرأة المحبوبة يجدها تتسم بالسمو والرقي، وتتزين بالعفة والطهر ، بعيدة كل البعد عن أدران الجسد المادية، ورغباته الحسية .. حيث يلحظ من يطالع تجارب العشماوي فى المرأة المحبوبة أنه قد هام بها روحاً وشوقاً ، وعذاباً ووجداً ، لا كياناً وجسداً .. وأن هيامه بالمحبوبة لم يكن من ذلك النوع الرخيص الذى يهيم فيه المحب بالجسد متعة ولذة .. مصوراُ فى أثناء ذلك ماتوافر عليه جسد المحبوبة من معالم الفتنة ، ومظاهر الحسن ، ومجالى الجمال .. ما يثير الغرائز ، ويهوى بالمشاعر !! .

---

(٤٦) ديوان : إلى حواء – صـ ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٤٧) ديوان : هي أمى ــ صـ ٣٢ .

أقول يبدو لمطالع تجارب العشماوى فى المرأة المحبوبة خلوها تماما من تلك الحسية ، حيث راح يأتزر خلالها بالعفاف ، محلقاً به فى عالم الروحية .. ولم يخل شعره فى المرأة المحبوبة من النظرة التأملية ، واللمحة الفلسفية ، ولم يترد فيما تردى فيه غيره من شعراء اللذة الحسية ، والمتعة الجسدية فى حديثهم عن المرأة .. فلم يتناول فى غزله شيئاً من مفاتن محبوبته ، وإنما اكتفى بوصف مشاعره – تلك التى تفيض بالحب والشوق واللهفة والحنين إزاء محبوبته ، وتصوير آلام الهجر ، ومرارة الحرمان إزاء غربتها وبعادها .. فها هو ذا يشير إلى أنه يحمل قلباً ينبض بالحب ، ويخفق بالهوى ، متمنياً أن لو لم يكن قد خفق قلبه ، ونبض فؤاده بذلك ، لما يجره عليه من حيرة وعذاب ، وقلق وحرمان ، منوهاً بمذهبه فى الحب والهوى ، وكاشفاً عن طبيعة من يحب ويهوى .. حيث يقوم حبه على الرفعة والسمو والطهر ، والرقي ، والصفاء والنقاء ، والعلو والإباء بعيداً فى ذلك عن التردى فى مزالق الحب ، ونزوات الهوى .. فهو لا يطلق لمشاعره العنان ، وإنما يجعل من عقله لجاماً يكبح جماحها ، ويرد شرودها ، ويعقل ويقيد انطلاقها .. فلا تكترث نفسه بالتغنى بما للمحبوبة من معالم الحسن ، ومظاهر الفتنة ، ومجالى الجمال.. فليكن وجه المحبوبة فى حسنه بدراً ، وليكن شعرها فى جمالها مثل الشفق فإن حبه لها ، ونظرته إليها أرقى وأسمى من ذلك .. حيث تعلو نظرته القائمة على الطهر والعفاف على أدران الحسية ، وتسمو على مفاتن المحبوبة الجسدية ، واجدا فى التعلق بذلك لوناً من العبث والترف ، والرهق والقلق ، ومشهداً الله سبحانه على طهارته فى حبه ، وعفته وسموه ، ونزاهته ، مؤكداً رفضه لذلك الحب الذى ينشد الحسية ، ويبحث عن مفاتن المحبوب الجسدية ، مستعيذاً بالله تعالى منه ، حيث يأباه خلقه ، وينفر منه ذوقه .. إذ إن الحب عنده إحساس نقي ، وشعور روحي ، حيث يقول :

إننى أحمل قلباً خافقاً ∴ ليت قلبى للهوى لم يخفق
أعشق البدر ولكن شامخاً ∴ لا صريعاً للهوى والنزق
وإذا ما جمحت عاطفتى ∴ فلعقلى نظرة فى طرقى
عبث منى إذا حاولت أن ∴ أصف الوجه وحسن الحدق
فليكن وجهك بدراً ساطعاً ∴ وليكن شعرك مثل الشفق

حبـــى الطـــاهر أسمـــى هدفـــاً ∴ فأعيذهـــــه بـــــرب الفلـــــق !

أشـــهد الله علـــى عفتـــــه ∴ وعلـــى الطهـــر وحســـن الخلـــق

لا تظنـــى أن حبـــى كـــالهوى ∴ لـــيس ضـــوء الفجـــر مثـــل الغســـق

مـــن يظـــن الحـــب لهـــواً عابثـــاً ∴ فلـــيعش مـــن دهـــره فـــى رهـــق

وإذا كـــدر حـــوض فانتظـــر ∴ كـــدراً فـــى الآخـــر الملتصـــق

أرفـــض الحـــب الـــذى ينكـــره ∴ خلقـــى فالحـــب إحســـاس نقـــى[٤٨]

وفى أكثر من تجربه للشاعر فى المرأة المحبوبة نراه يصور لنا ماتفيض به نفسه الملتاعة من مشاعر الحب والحنين ، ويجسد ما ينتابها من أحاسيس اللوعة والأنين من أثر غربة وبعاد محبوبته عنه .. سالكا فى ذلك مسلك الشعراء الرومانسيين الذين يكتفون بتجسيد تلك المشاعر الفائضة ، والأحاسيس المتدفقة ، مستعذبين فى ذلك الآلام ، ومستطيبين الأحزان .. فها هو ذا شاعرنا يجسد عبر تجربته التالية مشاعره إزاء محبوبته .. مؤكدا شوقه الشديد إلى التنعم بوصالها ، والإيناس بلقائها ؛ كى يشرق من براءة صوتها ليله المظلم ، وتتبدد بطلعتها ظلمات أفقه المعتم .. وهنا يناجى الشاعر نفسه مصوراً خوفه وتوجسه من أن يتنكب طريق الهدى .. فتنزلق فى مزالق الحب ،وتهوى فى دركات الهوى .. ولكن سرعان ماتطمئنه نفسه ، حيث تباعد بينه وبين ذلك التنكب ، والتخبط ، فأنى له أن ينزلق فى تلك المزالق . وقلبه مفعم بالإيمان . وهو بربه يستعصم ، وبعفته يسمو ويرقى .. يقول الشاعر :

بمـــا فـــى فـــؤادى يبـــوح الفـــم ∴ ويجهـــل غـــيرى الـــذى أعلـــم

حنينـــى إليـــك عظيـــم ومـــا ∴ أعانيـــه مـــن لـــوعتى أعظـــم

تعالـــي إلـــي فبـــى لهفـــة ∴ إليـــك علـــى صـــدقها أقســـم

بـــراءة صوتـــك إشـــراقة ∴ تـــوارى بهـــا ليلـــى المظلـــم

أقـــول لنفســـى التـــى أصـــبحت ∴ بســـاعة رؤيـــتكم تحلـــم

---

(٤٨) ديوان : إلى حواء – الأبيات صـ ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

أراك دخلـــــت إلـــــى عـــــالم ∴ بعيـــــد المـــــدى أفقـــــه معـــــتم

أخـــــاف عليـــــك متاهاتـــــه ∴ وقلبـــــاً يجـــــور ولا يـــــرحم

فقالـــــت : ألســـــت تـــــرى أفقهـــــا ∴ وفيـــــه الـــــرؤى أقبلـــــت تبســـــم

أتخشـــــى علـــــي متاهاتـــــها ∴ وقلبـــــى بإيمانـــــه مفعـــــم

سأدخـــــل عالمـــــها مركبـــــى ∴ وفـــــائى وبـــــالله أستعصـــــم

يمـــــوت الخـــــؤون علـــــى حقـــــده ∴ ويرقـــــى بعفتـــــه المســـــلم[٤٩]

وغير خاف ماتحفل به الأبيات المذكورة من الألفاظ والعبارات التى تجسد ذلك اللون من الحب العذري الطاهر العفيف ، والتى عزف الشاعر من خلالها على أوتاره الرقيقة من مثل : لوعتى ، على صدقها أقسم ، براءة صوتك ، إشراقة قلبى ، بإيمانه مفعم ، مركبى وفائى ، وبالله أستعصم ، يرقى بعفته المسلم ،، حيث تكشف تلك الألفاظ والتراكيب عن مذهب الشاعر فى الحب ، وتنبئ عن فلسفته فى الهوى .. وكيف أنه يقوم على نشدان العفة والطهر.

وفى قصيدته " بعض أوراقى " يجنح الشاعر قليلاً إلى الحسية فى غزله إلا أنه لا يزال يحافظ على عفته وتصونه ، ووقاره وحشمته ، حيث يقر بأن للحب سحراً نافذاً ، وأثراً ماضياً فى القلوب ، لا يشعر به سوى المحبين الأوفياء الصادقين ، لا سيما عينا المحبوبة التى يرى فيهما الشاعر أشواقه وأحلامه ، ويشرب من كأس معينهما الحب الصافى ، فإذا به يقع صريع الهوى ، شهيد الحب لتلك المرأة التى هي الراحة ، والبلسم ، والنور ، والأنس فى ليل الجراح ، وهي الحياة بالنسبة لقلبه البرئ ، الذى ينبض بحبها ، ويخفق بهواها ، وهي مصدر الخصب والنماء ، ومنبع الحياة ، وينبوع الحب السامى ، قد أخذ عليها العهد والميثاق ، مؤكداً بين يديها ، ومطمئناً إياها بأنه دائماً وأبداً لا يتخلى عن طهره ، وعفته ، وأن حبه إياها لم يكن ليوصله أبداً إلى عصيان خالقه سبحانه ..

يقول الشاعر :

فـــإن للحـــب سحـــراً لا يحـــس بـــه ∴ إلا محـــــب وفي غـــــير أفـــــاق

(٤٩) ديوان : إلى حواء – صـ ٣٦ ، ٣٧ .

قــولى لعينيــك إنــى فــى محيطهــما ∴ ســيرت مركــب أحلامــى وأشــواقى

ســقيت كــأس اشــتياقى مــن معينهمــا ∴ يــارب لطفــك بالمســقى والســاقى

ياطلعــة البــدر فــى ليلــة الجــراح ويــا ∴ حيــاة قلبــى بــرئ النــبض خفــاق

يانبتــة فــى ريــاض الحــب ســامقة ∴ أبرمــت فــى ظلــها عهــدى وميثــاقى

لا تحســبى أن حبــى ســوف يجعلنــى ∴ أقــر نفســى علــى عصــيان خلاقــى(٥٠)

وتلمح تلك الحسية غير المفرطة ، وتشتم رائحتها التى تأتى على استحياء – خلال تلك الأبيات المذكورة من خلال تلك العبارات : لعينيك .. انىَّ فى محيطهما .. سقيت كأس اشتياقى من معينهما .. يارب لطفك بالمسقى والساقى .. وما سوى تلك التراكيب فإن السمة الغالبة على تجربة الحب عند الشاعر هنا هي العذرية .. حيث يبدو خلالها فى صورة المحب العفيف .. فهو . كما ذكر . من المحبين الأوفياء غير الكاذبين ولا المخادعين .. وهو ممن لا يقر نفسه على عصيان خالقه سبحانه ، وهو ذو قلب برئ النبض ، خفاق بالحب الطاهر .. وإذا كان شاعرنا قد جنح بعض الشئ إلى الحسية فى حبه هنا فإنه لم يُفرط ، ولم يوغل فيها ،حيث لم يقع فيما وقع فيه غيره من الشعراء الذين هووا فى بحرها اللجي ، وارتطموا بصخوره العنيفة ، وأمواجه العاتية.

ومن وحي عيني محبوبته النائية .. يبدع الشاعر تجربته الغزلية الرائقة تلك ، حيث يشير إلى أنه دائب الترحال ، دائم التجوال .. يقطع المسافات .. هائماً فى عيني تلك المحبوبة التى هي أمله ، وحلمه ، متسائلاً . فى لهفة وشوق . متى يرتوى قلبه الظامئ؟! ، ومتى تُخصب وتمرع ينابيع فرحته بعد أن جفت ونضبت؟! ، ومتى تورق أشجار المنى ، وتزهر أوراق الأمل .. بعد أن ذوت وذبلت ببعاد تلك المحبوبة .. وبعد هذا التطواف ، وذلك الترحال يصل الشاعر إلى محبوبته . وهو يحمل قلباً موجعاً بآلام الغربة ، مثقلاً بأحزان البعاد .. حيث ظبيان ، والشعب – مسقط رأس الشاعر ، وأحلام طفولته ، ومنتدى صباه ، ومراتع لهوه ، ومرابع أحلامه ، ومصدر سروره وهناءته:

حيث يقول :

---

(٥٠) ديوان : إلى حواء صـ ١٥٤ ، ١٥٥ .

سـلكت إلى عينيـك أكثـر مـن درب ∴ ولم يـزل الترحـال يـا أملـى دأبـى

ظمئـت وقـد جفـت ينـابيع فرحتـى ∴ فيـاليتنى أدرى متـى يرتـوى قلبـى ؟!

ويـاليتنى أدرى متـى تخصـب المنـى ∴ فقـد مـر دهـر والمشـاعر فـى جـدب؟!

أتيـت إليـك اليـوم والقلـب موجـع ∴ أعـبر عـن شـوقى وأفصـح عـن حبـى

أرى فـى "حمـى ظبيـان"طيف سـعادتى ∴ وألمـح أحـلام الطفولـة فـى الشـعب[٥١]

وحال الشاعر ـ خلال هذه التجربة ـ هو نفسه الذى بدا عليه خلال تجاربه السابقة .. حيث لم يعن بالوقوف عند الوصف الحسي للمرأة ، والتغنى بمظاهر الحسن ، والجمال التى توفرت عليها المحبوبة ، ولكنه عني فيما عني بتصوير لوعة نفسه ، وشدة شوقه ، وما يمور بوجدانه من حرقة الشوق والهوى .. وما يكابده قلبه من لوعة الهجر ، ومرارة النوى .. ومن ثم نرى فى عاطفته ذلك التسامى الخلقي الذى لا توجد فيه أي أصداء للأدران الجسدية ، ولا هذه الحسية المفرطة التى تخدش الأذواق السليمة ، وتؤذى المشاعر النبيلة ، وتتصادم مع الفطر القويمة .

ونلتقى مع شاعرنا فى تجربة غزلية أخرى حيث نراه فى صورة المحب العفيف ، والعاشق المتيم ، والصبِّ المتفانى فى الحب والشوق ، المستعطف قلب محبوبته ، المستدر عطفها ، المستميل فؤادها ، الملقى بقياده بين يديها ، المُعلن ضعفه الإنساني إزاء حبها ، ذلك الذى لا يملك دفعه ، والفكاك منه ، مهيباً بالمحبوبة أن تكفَّ عن لومه ، وألا تتعجب من شدة حُبه ، وشوقه ، وتلهفه إزاءها ؛ فهي التى أضرمت فى قلبه نار الحُب والشوق ، فانتابته من ثم مشاعر الخوف والقلق ، وراح يخشى من قسوة المحبوبة ، ومن أن تقابل ذلك الوضوح منه ، والبوح بمشاعره نحوها بالتأبى والتمنع والتجاهل ، حيث يقول فى قصيدته : " هو الحب " :

هـو الحـب-لـو تـدرين-يـذكى مشـاعرى ∴ ويرسـم فـى عينيـك لى صـورة أخـرى

مـددت إلى كفيـك كفـيَّ فـارحمى ∴ وإنـى لأخشـى أن تعيـديهما صفـراً

---

(٥١) ديوان : إلى حواء صـ ٤٣ ، وحمى ظبيان .. "والشعب " مكانان فى مسقط رأس الشاعر وقرية – عراء " بمنطقة الباحة جنوب المملكة العربية السعودية مسقط رأس الشاعر .

ولـــو أننـــى أســـطيع ياســـر لـــوعتى ∴ وضـعتك فـى عـين وسلمـتك الأخـرى !

أمـــيرة قلبـــى، لا تلـــومى مشـــاعرى ∴ فقـد ـ عجـزت ـ والله أن تجـد الصـبرا

ولا تتركينـــى فـــى ظـــلام مخـــاوفى ∴ أجـــر رداء الوهـــم فـــى دربـــها جـــراً

ولا تعجبـــى مـــن لهفتـــى وتحرُّقـــى ∴ فأنـت التـــى أشـعلت فـى قلـبي الجمـرا

مخـــاوف قلـــب يعلـــم الله ســـــره ∴ نشـرت بـه مـن حيـث لم تشـعرى ذعـراً

أردت وفـــاء حـــين أبـــديت لـــوعتى ∴ ويسـراً وأخشـى أن تريـدى بـي العسـراً(٥٢)

وتبدو ملامح الحسية ـ خلال تلك التجربة الغزلية كما نراه على استحياء، وتأتى بقدر .. حيث تتوارى إزاء ما يغلب على تجربة الحب عند الشاعر هنا من روح العذرية تلك التى تخيم على فضاء التجربة ، فتملأ أفقها هنا .. تبدو ملامح تلك الحسية فى تلك المفرادات والتراكيب التى أودعها الشاعر تجربته هنا من مثل : عينيك ، كفيك ، مددت إلى كفيك كفى .. وما سوى تلك العبارات والمفرادات والتراكيب فهو يسبح فى بحر الحب العذري ، ويجرى فى نهره العذب .. حيث نلمح فى عاطفة الشاعر خلال تجربته هذه ـ ذلك التسامى الخلقي ، فلا نجد بها أصداء للأدران الجسدية ، ولا أثراً للحسية المفرطة ـ تلك التى تخدش الأذواق السليمة ، وتتصادم مع الفطر القويمة .. ثم نرى الشاعر يختتم تجربته الرقيقة الصادقة – تلك التى بدا خلالها فى صورة المحب العاشق ، والوله المتيم ، والصب المستهام الذى براه الحب ، وأضناه الهوى ، وأخذ منه الشوق مأخذه ، وراحت تنتابه مشاعر الخوف والقلق بعد أن أفصح عن مشاعره إزاء محبوبه ، متوجساً من أنه يقابل ذلك بالتجاهل والتغافل .. مما أكسب تلك التجربة صفات القوة والجودة بين تجارب الشاعر فى الغزل .. هاهو ذا شاعرنا يختتم تجربته هنا بكلام يؤكد من خلاله طبيعة نظرته إلى الحب والهوى ، منبئاً عن فلسفته فيمن يحب ويهوى ، مؤكداً ضعفه إزاء ذلك المحبوب ، راجياً ومستعطفاً إياه أن يرق لحاله ، فيحيل ليله نهاراً ، ويعيد إلى قلبه القلق المحزون الهدوء والبسمة والإيناس ، ويشيع فى وجدانه االرضا والراحة ، فينشرح بذلك صدره ، ويسر خاطره ..

---

(٥٢) ديوان : إلى حواء – صـ ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ .

حيث يقول :

أقمت على أرض العفاف محبتى فما ∴ أبتغى غدراً وما أرتضى نكراً

فلا تجعلى ليلى يمد رواقه ولا ∴ تجعلى أيام أشواقنا غبرا

أعيدى إلى قلبى الهدوء ببسمة ∴ تشيع الرضا فى خاطرى وتشرح الصدرا(٥٣)

وإذا لم يكن للشاعر سوى البيت الأول الذى يقول فيه :

أقمت على أرض العفاف محبتى ∴ فما أبتغى غدراً وما أرتضى نكراً

إذا لم يكن للشاعر سوى هذا البيت لكفاه فى إعطاء تصور تام ، وإرساء قاعدة راسخة إزاء فلسفته فى الحب ، وطبيعة نظرته إليه .. وغير خاف تعبيره هنا بالفعل : (أقمت) ، وأيضاً تعبيره : " بعلى " وما يدلان عليه من التمكن والاستيلاء على الشيء ، والتعايش بداخله ، ومن ثم صيرورة الحب العفيف عنده طبعاً وديناً.

وها نحن أولاء نلتقى ثانية مع الشاعر لنشاهده فى حالة من الضعف الإنساني إزاء سطوة المحبوب ، ومن ثم إلقاء القياد ، وإعلان الإذعان والاستسلام بين يديه ، مصوراً ما يمثله له بعاد المحبوبة من قسوة وحسرة ، ويأس ومرارة ، وقلق ووحشة ، وأيضاً ما يمثله ويحققه له وصالها من أمل وسعادة ، وإيناس وراحة ، وقرارة عيش ، وطمأنينة حياة ، متسائلاً فى لهفة وشوق متى ترسو سفينة أحلامه التائهة بين الشطآن ؟ فتهتدى إلى بر الأمان ، حيث المحبوبة التى نسيته وتغافلت عنه .. فراحت من ثم تسقيه كأس الحزن .. والوجوم فمتى تذكره ؟! ومتى تسقيه من كأس الفرح والسرور .. فلطالما تاقت نفسه إلى أن يجنى ثمر ماغرساه من بذور الأمل ، وحب الحياة .. كل ذلك يصوره الشاعر فى عفة وطهر ، ورقي وسمو.. حيث يقول فى قصيدته : " كأس الأسى" :

ليلى يطول وحسرتى تقسو ∴ فمتى بربك تشرق الشمس؟!

ومتى بربك يستلذ فمى ∴ طعم النشيد وتسعد النفس؟!

ومتى بربك ينتهى ألمى ∴ وأحس أن حياتنا أنس ؟!

---

(٥٣) ديوان : إلى حواء – صـ ٨٠ .

صـــخب الحيـــاة يقـــض مضـــجعنا ∴ فمتـــى يحـــل محلـــه الهمـــس ؟!

وســـــفينة الأحـــــلام تائـــــهة ∴ فمتـــى علـــى شـــطآننا ترســـو؟!

يـــا ناســـياً والقلـــب يذكـــره ∴ قـــل لى : متـــى يســـتيقظ الحـــس؟!

أســـقيتنى كـــأس الأســـى فمتـــى ∴ ياصـــاحبى يتبـــدل الكـــأس ؟!

إنـــا غرســـنا روضـــنا أمـــلاً ∴ فمتـــى بربـــك يثمـــر الغـــرس ؟(٥٤)

ويلحظ المطالع لتلك الأبيات ما تحفل به من تلك التساؤلات المتتابعة التى يصور الشاعر من خلالها استبطاءه وترقبه ، وطمعه فى وصال المحبوبة ، وشوقه وتلهفه إلى قربها .. حيث لم يعد يحتمل مرارة الهجر ، ولم تعد نفسه تقوى على أحزان البعاد بعد أن طال عليه وامتد ليل الأحزان ، وبعد أن سقمت نفسه فلم يعد فمه يستلذ طعم الأشياء .. راجياً برءها وشفاءها ، وآملاً فى سعادتها وهناءتها .. وأيضاً بعد أن تمكنت فيه آلام الهجر ، وأحزان البعاد .. فمتى يأنس بالقرب ؟ ، وينعم بالوصال ؟ .. وبعد أن تاهت سفينة أحلامه وأشواقه، راجياً ومترقباً : متى تهتدى ؟ ومتى إلى بر الأمان ترسو ؟ وبعد أن نسيه المحبوب ، وتغافل عنه وهو لا ينفك عن تذكره ، ولا يبرح عن التفكير فى شأنه .. فمتى يرق المحبوب لحاله ؟ فيتذكره .. وبعد أن سقاه المحبوب من كأس الحزن والأسى بنسيانه إياه ، وبعاده عنه فمتى يتبدل الكأس ؟ ، وبعد أن غرساً سوياً غرس حبهما ، ونبت أملهما ، وبذر شوقهما .. فمتى يثمر الغرس؟ .. ويورق من بعده الأمل .. يقصد متى سينعم بوصال المحبوب ، ويهنأ بلقائه ؟ .. وهكذا تجسد لنا تلك التساؤلات المتتالية التى كشف الشاعر من استعمالها –خلال تجربته تلك– ، وأراد أن يشغلنا بها . هكذا تجسد لنا تلك التساؤلات ما يُسيطر على الشاعر من أحاسيس القلق والخوف والحزن والاضطراب ، مما يفقده صوابه، ويصيبه بالحيرة ، ويجعله يتساءل كثيرا ، مستبطئاً ومترقباً وأملاً أن يتخلص من حالته تلك .. وينتقل بعدها إلى حالة ينعم فيها بالأنس والإيناس ، والراحة والاطمئنان ، والهدوء والاستقرار ، والهناءة ، وراحة البال .

(٥٤)ديوان : إلى حواء – صـ ٨٤ ، ٨٥ .

وكعادة الشاعر رأيناه يختتم تجاربه فى الغزل بمختتم يكشف من خلاله عن رؤيته للحب ، وفلسفته فى الهوى .. وما تقوم عليه تلك الرؤية والفلسفة من الطهر والسمو ، والعفة والعلو .. فهي تنشد الروح لا الجسد .. حيث تراه يصور محبوبته ذلك التصوير الراقى الذى يحلق فى سماء الطهر والفضيلة ، فهو يؤكد كون الحب عاطفة إنسانية خالدة .. بل هو فطرة جُبلت الخلائق عليها جميعاً :

لـــو أنطـــق الله الحصـــى حكمـــت ∴ أنَّ المحبـــة مـــا بهـــا بـــأس

تأكيداً لضرورة وجود الحب فى هذه الحياة ، وأنه سر بهجتها ، ومصدر سعادتها .. وهو أي الحب إن قام على الطهر والصدق والإخلاص غدا فى ليل الأحزان شمساً تشرق بالآمال ، وتطلع بالأفراح .

يشير الشاعر إلى تلك المعانى بقوله يكنى عن محبوبته تكنية تجمع بين الجمال والرُّقي ، وتنطق بالإباء والسمو :

يـــا وردة مـــا اســـطعت ألمســـها ∴ أخشـــى بـــأن يفســـدها اللمـــس!

للطهـــر فـــى أعمـــاقنا ألـــق ∴ يســـمو بنـــا ولجرحنـــا يأســـو

كـــم خائـــن فـــى الحـــب أرقـــه ∴ صـــوت الضـــمير فعيشـــه نحـــس

كـــم لائـــم فـــى الحـــب لا يـــدرى ∴ أن الحيـــاة بدونـــه حـــبس

لـــو أنطـــق الله الحصـــى حكمـــت ∴ أن المحبـــة مـــا بهـــا بـــأس

طهـــر وإخـــلاص فـــإن صـــدقا ∴ فالحـــب فـــى ليـــل الأســـى شمـــس(٥٥)

فما أجملها من أبيات ، وما أبلغها فى تصوير مذهب الشاعر فى الحب ، وتجسيد فلسفته فى الهوى!! .. فهو يعلم أنه شيء غريزى لا تستقيم الحياة الهانئة الآملة بدونه ، لكنه يجب أن يوضع فى إطار من الطهر والعفاف ، والفضيلة والوقار ، فيبقى من ثم المحبوب بعيداً عن العبث ، سالماً من الفساد مثل الوردة التى تسر الناظرين ، وتريح نفوسهم ، وتبهج مشاعرهم ، وهي بعد مصونة مكنونة بعيدة عن عبث العابثين.

(٥٥) ديوان إلى حواء – صـ٨٥ ، ٨٦ .

.. وهكذا لا يبعد الشاعر فى تجربته هذه وتجاربه الغزلية السابقة عن كونه لا ينشد فى المرأة ماينشده كثير من الشعراء – مما أفاضوا فى وصفه ، وأطالوا فى ذكره ، ولكنه يرجوها ، لترقأ دموعه إذا طغى سيل الحوادث ، ولتكون أغانيه وأمانيه وأشعاره وأحلامه ، ونوره ..[٥٦] .

وأختتم تلك الطائفة من تجارب الشاعر فى المرأة المحبوبة بتلك الأبيات التى يؤكد فيها تفانيه فى الشوق ، وتهالكه فى الصبابة نحو محبوبته ، واجداً فى مرارة الهجر ، وحسرة البعاد مذاقاً ألذ من الرحيق ، وهو لا يستطيع الفكاك عنه ، حيث يسرى فى عروقه ، ويجرى فى دمائه .. وهذا الشوق ماض فى عراقته ، موغل فى أصالته ، آخذاً بجذوره فى أعماق الأرض ، لا يتحول مهما جد على الزمان ، وطرأ من أحداث ومواقف .. وهو (أي شاعرنا) قد حاول جهده . أن يخفى عن محبوبته حبه ، وشوقه لها ، مع تأكد ذلك فى أعماقه ، واستقراره فى كيانه .. حيث يقول مؤكداً عذريته فى حبه ، وبعده تماماً عن النظرة الحسية فيه والجسدية :

لا تسألى كم مقلة ∴ غرقت وكم دمع أريق
شوق المحب وإن يكن ∴ مراً ألذ من الرحيق
شوق المحب إلى أحبته ∴ دبيب فى العروق
شوق تجد مع الزما ∴ ن خيانة وهو العريق
أخفيت عنك تشوقى ∴ وانا المشوق أنا المشوق[٥٧]

ولا تبعد عن رؤية المتلقى لتلك الأبيات ماتقوم عليه التجربة هنا من التكرار الملحوظ لكلمة " شوق " ، وأيضاً لعبارة: "أنا المشوق" وما يقصده الشاعر من وراء ذلك التكرار من التأكيد على فكرته ، والإلحاح على مضمونها ، والحرص على إيصالها للمتلقين بعد أن لفت أنظارهم لذلك التكرار .

.. وهكذا تتسم تجارب الشاعر فى الغزل بسمات الرقة والعذوبة ، وتتزيا بثياب العفة والوقار ، وتتزين بالحشمة والجمال .. حيث بدا الشاعر خلالها ذلك المحب الرقيق الشعور ، المرهف الحس ، الرفيع الذوق الذى سما بالحب ، وعلا به فجعله نفحة روحية ، وخلع عليه مسحة علوية ، فلم ينزلق ويترد فى استعمال

---

(٥٦) حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره – د/ محمد سعد فشوان – صـ ١٤٢ الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ـ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .
(٥٧) ديوان إلى حواء – صـ ٩٧ .

الألفاظ المبتذلة، والعبارات الساقطة الخادشة للحياء ، بل جاءت ألفاظه عفيفة ، وعباراته سامية ، وصوره راقية تجسد طهارة حبه ، وسمو عاطفته ، واكتفى بتصويرشدة حبه ، وبالغ شوقه وما يمور به وجدانه من حرقة الشوق والهوى ، وما يكابده قلبه من لوعة الفراق والنوى إزاء المرأة المحبوبة فلم يعن بتصوير مفاتن جسدها ، ولم يلح فى تجسيد معالم حسنها وجمالها .. فلا تجد فى تجاربه الغزلية . من ثم أثراً لتصوير حلاوة ريق المحبوبة مثلاً ، ولا طول وسواد شعرها .. ولا سحر وجمال وسعة عيونها ، ولا حمرة خدها ، ولا استدارة ولا جمال وجهها ، ولا طول عنقها ، ولا استواء واعتدال قامتها ، ولا دقة واستواء أنفها .. وغير ذلك مما يعنى كثير من الشعراء بوصفه وتصويره ، مما يجعلنى أقول مطمئناً إن غزل الشاعر – خلال تجاربه المذكورة هنا – من ذلك اللون العفيف: (من الغزل الذى لا يهتم بتصوير الغريزة ، أو رسم الإطار الشكلي لجسد المرأة ، والتركيز على مفاتن جسدها ، وملامح الجمال فيه ، وإنما يهتم بتصوير العاطفة العفيفة ، ويعبر عن الشوق والحنين ، وعن الصد والهجران ، وذكر الفراق، ومرارة الحرمان ، ويصور النفس المشتاقة دائماً التى لا تعرف الهدوء أو الخمول الوجداني ، فهو ضرب من المثل العليا لا نجده إلا فى الحب الصادق البعيد عن كل لذة وهوى خبيث " [٥٨] .

المبحث الثالث شعره فى الحب ، ومذهبه فى الهوى

للشاعر عبد الرحمن العشماوى أشعار كثيرة ، وتجارب عديدة أبان فيها عن طبيعة نظرته للعلاقة بين الرجل والمرأة – تلك التى تقوم على الحب والميل والهوى ، مؤكدا خلال تلك التجارب ماتقوم عليه تلك العلاقة من معانى الطهر والرفعة والسمو ، وما تحاط به من سياج العفة والصون والحفظ ، حيث تنطلق . من خلال منظور الإسلام الراشد الحكيم ..

فها هو ذا شاعرنا يطلعنا على طبيعة نظرته للحب ، ويوفقنا على مذهبه وفلسفته فى الهوى فيقول:

حـــب فـــإن مســـته كـــف الخنـــا ∴ فقـــد غـــدا ضـــرباً مـــن العهـــر

---

(٥٨) الغزل فى العصر العباسي الأول –تأليف الدكتور عبد الهادى عبد النبى على أبو على ــ صـــ ٥٧ ، ٥٨ – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـــ ، ١٩٨٧ م .

وهـــل يكـــون الحـــب ذا قيمـــة ∴ إذا خـــلا مـــن لـــذة الطهـــر؟![٥٩]

فالحب . فى نظره . هو ذلك الذى يقوم على السمو والطهر ، ويتسامى على الفحش والعهر .. وهو يفقد قيمته إذا خلا من المعانى الإنسانية الراقية والمشاعر الآدمية النبيلة تلك التى تقوم على السمو والرقى والطهر .

وفى موضع آخر من شعره نرى الشاعر يكشف عن ملامح الحب لديه تلك التى تقوم على العفة والطهر وتتسامى على أدران الهوى ومفاسده .. هاهو ذا شاعرنا يشير إلى تلك المعانى ، فى بيت واحد ، فيقول فى كلمات رنانة جميلة :

أقمـــت علـــى أرض العفـــاف محبتـــى ∴ فمـــا أبتغـــى غـــدراً ومـــا أرتضـــى نكـــرا[٦٠]

والمرأة التى يكلف الشاعر بحبها ، ويعلق فؤاده بذكرها .. هي تلك اللؤلؤة المصونة ، والدُّرّة المكنونة التى تتسامى عن أدران الهوى الحسية ، وتتعالى على مفاسد الحُب المادية .. حيث تتحصن بالطهر ، وتتزين بالإخلاص ، وتتحلى بالعفاف ، وهو أي الحب وقتئذٍ سيغدو فى ليل الأسى ، وظلمات البؤس النور والضياء ، والراحة والإيناس ، وفى المقابل فإن من يتنكب الطريق السوي فى الحب فيهوى فى درك الرذيلة ، ويحيا حياة التعاسة والشؤم والشقاء .. هاهو ذا شاعرنا يشير إلى تلك المعانى مؤكداً كيف أن الحب شئ فطري لابد منه بين الخلائق ؛ فهو مصدر أملهم وبشرهم ، وهو سر هناءتهم وانطلاقهم فى الحياة .. فلا وجه لمُنكر إذن ، ولا مجال للائم .. حيث يقول :

يـــا وردة مـــا اســـطعت ألمســـها ∴ أخشـــى بـــأن يُفســـدها اللمـــس !

للطهـــر فـــى أعمـــاقنا ألـــق ∴ يســـمو بنـــا ولجرحنـــا يأســـو

كـــم خـــائن فـــى الحـــب أرقـــه ∴ صـــوت الضـــمير فعيشـــة نحـــس

كـــم لائـــم فـــى الحـــب لا يـــدرى ∴ أن الحيـــاة بدونـــه حـــبس

لـــو أنطـــق الله الحصـــى حكمـــت ∴ أن المحبـــة مـــا بهـــا بـــأس

طهـــر وإخـــلاص فـــإن صـــدقاً ∴ فالحـــب فـــى ليـــل الأســـى شمـــس !![٦١]

---

(٥٩) ديوان :إلى حواء ــ صـ ٦١.
(٦٠) المصدر السابق ــ صـ ٨٠ .
(٦١) ديوان :إلى حواء ــ صـ ٨٥ ، ٨٦ .

وما أجمل وأبلغ تصوير الشاعر الحب إذا ماقام على الطهر والصدق والإخلاص بالشمس التى تنقشع بطلوعها غياهب الأسى ، وظلمات اليأس ، وتحل بظهورها مشاعر الراحة ، وأحاسيس الأنس .

ولنا أن نقف مع الشاعر . خلال أبياته التالية . فى تفصيله القول فى طبيعة نظرته للمرأة ، وفلسفته فى الحب والهوى .. حيث يؤكد مضمونه السابق ، ويرسى مبدأه الثابت . فى ذلك الشأن ذلك الذى يقوم على السمو، والصدق والطهر ، والتعالى ، والإباء ، والعفاف والصون .. وأن تلك المعانى الإنسانية الراقية هى التى تروقه فى الحب ، وينظر إلى المرأة من خلالها . متسامياً عن معانى الزيف ، والخداع ، والسفور والهوان ، متسائلاً ينكر على من يساوى بين تغريد البلابل ، ونعيق الغربان ؟!! حيث يقول مخاطباً محبوبته (المرأة) :

معنـــاك عنـــدى كيفمـــا اخـــ ∴ تلفـــــت مقاصـــــدنا عميـــــق
معنـــاك عنـــدى مثـــل معـــــ ∴ نـــــى الـــــروح عميقـــاً أو يفـــوق
كـــــل المعـــــانى الزائـــــف ∴ ـــــات لمثـــــل قلبـــــى لا تـــــروق
مـــن ذا يســـاوى بـــين تغـــــ ∴ ريـــــد البلابـــل والنعيـــق ؟!(٦٢)

وما أجمل تكنية . الشاعر. فى بيته الأخير عن الحب الطاهر العذرى العفيف الذى يسمو مع الروح ، ويتعالى على أدران الجسدية ، ومفاسد الهوى ، ما أجمل تكنية الشاعر عن ذلك اللون من الحب فى قوله : تغريد البلابل .. حيث يُدخل ذلك اللون من الحب على النفس الأنس والسرور ، والهناءة والحبور ، والراحة والسكون – مثلما تفعله تغريد البلابل بمن يستمع إلى نشيدها ، ويستمتع بغنائها تماما بتمام ، ثم ما أبلغ وأجمل تكنيته عن اللون المقابل للحب ذلك الذى يقوم على الفحش والسقوط ، والتهتك والمروق والخلاعة والمجون .. ما أجمل وأبلغ تكنية الشاعر عن هذا اللون من الحب بالنعيق ، ذلك الصوت الذى يُدخل على من يستمع إليه الشؤم والتعاسة ، والحزن والكآبة ، ويباعد به عن البشر والأمل، والتفاؤل والسرور .

وأختتم تجارب الشاعر فى نظرته إلى الحب والهوى بقوله يحاور محبوبته ، بائحاً ومعترفاً بين يديها بكلفه بالحب ، وتعلقه بالهوى ، حيث راح يحمل قلباً يخفق بذلك ،

---

(٦٢) المصدر السابق ــ صـ ٩٦ .

متمنياً أن لو لم يكن قد عرف الهوى . ذلك الذى يجر عليه الصبابات ، والأشواق والآلام .. كاشفاً عن لون ذلك الحب ، وطبيعة المحبوبة ، حيث يحلق به ، ويتسامى تحليق وسمو الروح " البدر" ، متعالياً عن التهتك ، والفسق والمروق والنزق ، مؤكداً كيف أنه يكبح جماح مشاعره ، ويمسك بقياد عواطفه ؛ كيلا تنزلق وتهوى فى مدارك الحسية ، فتعنى فى الأساس بتصوير محاسن المرأة ، وتكلف بتجسيد معالم الحسن والفتنة والجمال المتوفرة فيها ، بل تسمو وتعلو على ذلك العبث ، والمجون ، فيغدو من ثم حبه طاهراً عفيفاً ، متحصناً فيه برب الفلق جل وعز ، ومشهداً رب العزة سبحانه على عفته ، وطهره ، وحسن خلقه فى حبه .. حيث يقول :

إننـــى أحمـــل قلبـــاً خـــافقاً ∴ ليـــت قلبـــى للـــهوى لم يخفـــق
أعشـــق البـــدر ولكـــن شـــامخا ∴ لا صـــريعاً للـــهوى والنـــزق ! !
وإذا ماجمحـــــت عاطفتـــــى ∴ فلعقلـــى نظـــرة فـــى طرقـــى
عبـــث منـــى إذا حاولـــت أن ∴ أصـــف الوجـــه وحســـن الحـــدق
فلـــيكن وجهـــك بـــدراً ســـاطعاً ∴ ولـــيكن شـــعرك مثـــل الشـــفق
حبـــى الطـــاهر أسمـــى هـــدفاً ∴ فأعيذيـــه بـــرب الفلـــق!
أشـــهد الله علـــى عفتـــه ∴ وعلـــى الطهـــر وحســـن الخلـــق[٦٣]

ولا يخفى ما فى الإشارة فى هذه الأبيات إلى ذلك النوع من الغزل العذري العفيف ، الذى يسمو بصاحبه ويعلو به عن الغرائز، ويرقى بحسه وذوقه ، ويُباعد به عن الحسية المفرطة .. حيث يراها لوناً من العبث ، وضرباً من الهذيان :

عبـــث منـــى إذا حاولـــت أن ∴ أصـــف الوجـــه وحســـن الحـــدق

وهكذا تتفق نظرة شاعرنا إلى المرأة مع ما نادى به ، وحثها عليه من التحلى بالوقار ، والتزين بالحجاب ، والتحصن بالعفاف ، وتطابق ما نفرها وحذرها من التبرج والسفور ، مُبتغياً من وراء ذلك الأنموذج الأصيل للمرأة المسلمة ، وما يجب أن تكون عليه ..

(٦٣) ديوان : إلى حواء – صـ ١٠٢ ، ١٠٣ .

ولاشك فى هذا التوافق ، وذلك التماثل بين ما نادى به الشاعر ، وأهاب به ، وبين نظرته الخاصة إلى المرأة إن دل فإنما يدل على استواء فكرته ، واكتمال ونضج تجربته هنا .

المبحث الرابع : شعره فى زوجه

الزوجة هي رفيقة الحياة،وشريكة العمر،وقسيمة الآلام والآمال.. وصانعة الهدوء والاستقرار، والتقدم والازدهار، وهي ـ إن صلحت ـ خير متاع.

وطبعي أن تنشأ بينها وبين رفيق عمرها ، وقسيم دربها .. "زوجها" صلة مودة ، وعلاقة قربى تقوم على مشاعر الحب والحنو ، والدفء والرقي ، والطهر والسمو ، والاحترام والتقدير ، والوفاء والتبجيل ، وتتأكد تلك الصلة الحميمة ، والعلاقة الدافئة عندما يكون رفيق الدرب شاعراً مرهف الإحساس ، جياش المشاعر ، رقيق القلب ، متوقد الفؤاد .. قد رُبِي فى كنف والدة صالحة ، ونشأ فى ظل أم فاضلة ، ربته على الحب والاحترام ، والتقدير والوفاء ، والسمو والطهر ، والفضيلة والعفاف ، غارسة فيه شعوراً إيجابياً إزاء المرأة ينطلق فيه من خلال نظرة الاسلام للمرأة – تلكم النظرة الرشيدة التى تقوم على التقدير والاحترام ، والإعزاز والإكبار .

وإن كانت تجارب الشاعر فى زوجه نادرة تأتى من القلة بمكان ؛ ولعل ذلك يرجع إلى ما تقوم عليه مثل تلك التجارب عادة من الحميمية والخصوصية ، والتحفظ والتصون ، مما يجعلها بعيدة عن العيان ، كامنة فى الوجدان ، قائمة على الطي والكتمان ، ويمكن أن تندرج تجارب الشاعر فى المرأة " المحبوبة " – فى أكثرها – ضمن شعره فى زوجه .. فلعله كان يقصد بالمحبوبة فى الكثير الهائل من تجاربه تلك " زوجه" ، مكنياً ومواريا .. نازلاً فى ذلك على هدي النبي ﷺ ، وتوجيهه الشعراء إن هم اتجهوا إلى التغزل فى أشعارهم فليكن تغزلهم فى زوجاتهم وتشبيبهم بنسائهم .. حيث ورد فى هذا الشأن قول النبي ﷺ:" فإن رابك منه شئ فشبِّب بامرأتك وامدح راحلتك" (٦٤).

ومن ذلك القليل النادر الذى باح به الشاعر ، وصرح ماجاء فى قوله من قصيدته : " رحلة العمر " يتغنى ـ خلالها ـ برفيقته فى تلك الرحلة ـ زوجه ـ أم أسامه مجلياً أثرها ، ومنوهاً بدورها فى إتمام تلك الرحلة ، فى تشكيل إبداعه ، وتكوين وجدانه ، فهي منبع شدوه ، ومصدر تغريده ، والوصول بها إلى شاطئ السلامة ، وبر الأمان ، حيث فرشت طريق تلك الرحلة ، ومهدته بالحب والحنان وظللت عشهما "بيتهما"، بالدفء والوئام، زادها فى ذلك الحب والرضا والتفانى:

---

(٦٤) سبق الوقوف على هذا الحديث الشريف – خلال تلك الدراسة .

من معانيك أستقى ألحانى ∴ فاهتفى يامذيبة الأحزان

افرشى هذه الطريق وفاءاً ∴ فطريقى مفروشة بالحنان

ظللى عشنا الجديد بروح الـ ∴ حب حتى نعيش فى اطمئنان

رحلة العمر يارفيقة عمرى ∴ زادها الحب والرضا والتفانى

أنت عزف الرضا على وتر القلـ ∴ ب ولحن الوفاء فى وجدانى

أنت معنى من الطهارة يسمو ∴ بفؤادى عن مغريات الزمان

وعلى متن حبنا قد رحلنا ∴ ومضينا إلى أجل مكان[٦٥]

وفى قصيدته : " لحن وجرح " يمزج الشاعر بين ماينتابه ويتملكه من مشاعر الحب والشوق، واللهفة والحنين إزاء زوجه بعد أن ابتعد عنها واغترب، فاستبد به الوجد ، وأخذ منه الشوق مأخذه .. وبين ما يستبد بنفسه ويعتصرها من مشاعر الالم والجوى ،والحزن والأسى إزاء مايشاهده من مأسٍ تقع على كاهل نفر من بنى وطنه الإسلامي الكبير من شأنها أن تفت فى عضدهم ، وتزلزل كيانهم .. وتنغص عليهم هناءتهم .. ها هو ذا يؤكد ماينتابه من مشاعر الحب والشوق ، واللهفة والحنين إزاء زوجته البعيدة عن عينه ، الماثلة فى وجدانه حيث يقول :

حنين بقلبى وشوق دفين ∴ وقد يقتل الراحلين الحنين

ألا يابعيداً ويسكن قلبى ∴ ومن أجله لوعتى والفتون

ومن أجله غردت ذكرياتى ∴ ومن أجله هد قلبى الأنين

رحلت وبى لهفة للتلاقى ∴ يقصر عن وصفها ما أقول

رحلت وفى شفتى حديث ∴ جريح وفى عزم قلبى ذبول

رحلت وما كنت أعلم أنى ∴ سيقصر عزمى وليلى يطول

سلام على من إليهم أتوق ∴ ومن لست للبعد عنهم أطيق

ومن أسهر الليل شوقاً إليهم ∴ فيسخر من مقلتى الشروق !

---

(٦٥) ديوان: إلى حواء صـ ٢٢ ،٢٣ .

وآخـــر ذكـــراي حـــين أنـــام ∴ وأول ذكـــراي حـــين أفيـــق[٦٦]

ولا يخفى أن الشاعر تنتابه الأشواق ، وتعتريه الصبابات نحو رفيقة دربه، وشريكة عمره حيث لا يكاد ينى عن تذكرها ، ولا ينفك عن التعليق بشأنها فى كل وقت وحين :

ســـلام علـــى مـــن إلـــيهم أتـــوق ∴ ومـــن لســـت للبعـــد عـــنهم أطيـــق

وآخـــر ذكـــراي حـــين أنـــام ∴ وأول ذكـــراي حيـــن أفيـــق

ومـن أرض الفلبـين الإسـلامية .. حيـث يتعـرض المسـلمون لألـوان الأذى والإيـلام، وصـنوف التعـذيب والاضـطهاد تتـوزع نفس الشـاعر ، وتتصـارع عليهـا مشاعر الحب والشوق واللهفة والحنين ، إزاء زوجتـه البعيدة عن عينيـه ، القريبـة مـن وجدانـه ، الكائنـة فـى قلبـه ، ومشـاعر الألـم والجـوى والحـزن والأسـى إزاء مايتعرض له إخوانه وذووه من المسلمين فى تلك البقاع ..مهيباً بزوجـه ألا تغضب مما يبديه بين يديها من تلك المشاعر الحزينة ، والأحاسيس الأليمة ؛ فهى قسيمة آلامه وآماله .. وشريكة أتراحه وأفراحه.. حيث يقول :

أنـــا فـــى الفلـــبين بـــين ريـــاض ∴ تحـــرك شـــوقى وتحيـــي شـــعورى

أراكِ هنـــا فـــى جمـــال الروابـــى ∴ أراك هنـــا فـــى ابتســـام الزهـــور

وأسمـــع صـــوتك حـــين تغنـــى ∴ بلابلـــها فيغنـــى ســـرورى

وألمـــح حـــولى ضـــحايا المآســـى ∴ مـــن المســـلمين فيحـــزن قلبـــى

وأمكـــث مـــابين شـــوق إليكـــم ∴ ومـــابين حـــزن علـــيهم وكـــرب

ومـــاحيلتى فـــى فـــؤاد وفيٍّ ∴ تـــوزع مـــابين حـــزن وحـــب ؟!

هنـــا فـــى الفلـــبين تـــنهش قلبـــى ∴ دمـــاء تـــراق وظلـــم عظـــيم

لنـــا إخـــوة هـــا هنـــا يـــا حيـــاتى ∴ يـــذوب علـــيهم فـــؤادى الكلـــيم

تـــذكرت بعـــدك فـــازددت حزنـــاً ∴ وشـــاهدتهم فـــاعترتنى الهمـــوم

---

(٦٦) ديوان : إلى حواء – صـ ١٢٤ ، ١٢٥ .

بربـــك لا تغضـــبى مـــن حديثـــى ∴ فأنـــت شـــريكة بؤســـى وأنســـى

لقـــد سمعـــت أذنـــاى قـــلوباً ∴ تـــئن وتشـــكو فتجـــرح حســـى

يعـــذبنى مـــاأرى مـــن حقـــوق ∴ تضـــيع فكيـــف أصـــبر نفســـى ؟![٦٧]

ولا يخفى أن الشاعر يمزج هنا بين همه الخاص – حيث يصور مشاعره الذاتية ، ويجسد أحاسيسه الشخصية نحو رفيقة دربه ، وشريكة عمره " زوجه " التى بعد عنها واغترب ، وبين الهم العام ، حيث يصور بصفته شاعراً مسلماً مشاعره ، ويجسد أحاسيسه إزاء نفر مستضعفين معذبين مضطهدين وحدَّ بينه وبينهم الإسلام ، وراحت نفسه تتوزع بين هذين الهمين الخاص والعام :

أراكِ هنـــا فـــى جمـــال الروابـــى ∴ أراك هنـــا فـــى ابتســـام الزهـــور

وأسمـــع صـــوتك حـــين تغنـــى ∴ بلابلـــها فيغنـــى ســـرورى

وألمـــح حـــولى ضـــحايا المآســـى ∴ مـــن المســـلمين فيحـــزن قلبـــى

وأمكـــث مـــابين شـــوق إليكـــم ∴ ومـــابين حـــزن علـــيهم وكـــرب

ومـــاحيلتى فـــى فـــؤاد وفيٍّ ∴ تـــوزع مـــابين حـــزن وحـــب ؟!

تـــذكرت بعـــدك فـــازددت حـــزناً ∴ وشـــاهدتهم فـــاعترتنى الهمـــوم

بربـــك لا تغضـــبى مـــن حديثـــى ∴ فأنـــت شـــريكة بؤســـى وأنســـى

---

(٦٧) ديوان : إلى حواء – صـ ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ .

المبحث الخامس : شعره فى أخواته وبناته :

جاء حديث الشاعر عن أخواته وبناته فى أثناء بكائه لأمه ، وعزاء نفسه فى فقدها ، وتصوير حاله ، وتجسيد واقعه بعد فراقها .. حيث يهرع لشقيقاته ، وبناته ، ويفزع اليهن ، راجياً وآملاً أن يشاركنه أحزانه ، ويقاسمنه آلامه إزاء فقد أمه العزيزة الغالية ، واجداً فيهن العزاء والسلوى ، خاصاً بالذكر ابنته، حبة قلبه، وفلذة كبده "أسيل"، مشيراً إلى أنها تثير شجونه ، وتحرك مشاعره حين تنادى عليه ، وتجرى وراءه حيث كانت أنيسة أمه ، وجليستها .. وكان فى حبوها الجميل ، وعبثها بالأشياء مايبعث فى نفس أمه السعادة والرضا، متمنياً أن لو كان الله سبحانه قد مد فى عمر أمه فترى أسيل وهي تمشى الهوينى .. فى رقة وتؤدة :

يا شقيقاتنا ويا كل قلب ∴ من قلوب الأحفاد والأبناء

يا أخا أمنا ويا أخوات ∴ بالتفانى رفعن معنى الإخاء

يا سديم ويا شذا ويا حنين ∴ ياأعز الأحبة الأوفياء

يا زياد ويا يزيد ويا سعدية ∴ الخير يابلاسم دائى

يانسيماً يهب من رهف الحب ∴ عليلاً يفيض بالأشذاء

يا أسيل التى تحرك شجوى ∴ حين تدعونى"بابا"وتجرى ورائى

كنت ياطفلتى أنيسة أمى ∴ أم روحى وفرحتى وهنائى

كان فى حبوك الجميل رضاها ∴ حينما تعبثين بالأشياء

ليتها أبصرتكِ تمشين مشياً ∴ مثل مشي الحمامة الورقاء

ليتها ياأسيل .. لو أن ليتاً ∴ أرجعت ميتاً إلى الأحياء

ياصدوراً تجيش بالحزن تشكو ∴ ماشكونا من حر نار التنائى[٦٨]

---

(٦٨) ديوان : إلى أمى ــ صـ ١٨ ، ١٩ .

وتبدو مشاعر الحب الصادقة الكائنة فى أعماق الشاعر إزاء أخواته ، وبناته فى أكثر من موضع خلال تلك الأبيات ، حيث رأيناه يبوح بتلك المشاعر الخاصة فى قوله :..

يـــا أخـــا أمنـــا ويـــا أخـــوات ∴ بالتفـــانى رفعـــن معنـــى الإخـــاء

وقولـه أيضاً : يا بلاسم دائى .. فهم البلسم الشافى لما بـه من داء ، وهم الراحة مما بـه من تعب والأنس مما ينتابه من قلق ، وأيضاً فى قوله : ياأعز الأحبة الأوفياء ، وقوله :

يانســيماً يهــب مــن رهــف الحــب ∴ علـــــيلاً يفـــــيض بالأشـــــذاء

وقولـه مؤكداً مشاركتهم فى أحزانـه وآلامـه إزاء ذلك المُصاب الجلل ، والرُزء الفادح الذى فقد به حبيباً غالياً .. وأنهم جميعاً على قلب إنسان واحد :

يـــا صـــدوراً تجـــيش بـــالحزن تشـــكو ∴ ماشـــكونا مـــن حـــر نـــار التنـــائى

فهم جميعاً ذلك القلب المكلوم ، والفؤاد المحزون ، والنفس المرزوءة فى فقد حبيبتهم، وثكل عزيزتهم .. ومن ثم فقد راحوا يمثلون للشاعر البلسم الشافى، والدواء الكافى لما به من جرح وداء ، والراحة مما به من تعب ولأواء ، والأنس مما ينتابـه من قلق وإعياء .. وإن كان يؤخذ على الشاعر عدم تحريه الدقة فى استعماله هنا على لسان طفلته لكلمة : " بابا " تلك اللفظة المستحدثة الدخيلة على لغتنا العربية الجميلة ، فهي من الكلمات العصرية المستحدثة فى حياتنا اليومية .. ولعل ماجعله يُعبر بها مجيئها هنا على لسان " أسيل " طفلته الرضيعة ، وكونها تحيط بها المدنية والعصرية من كل مكان.

وها هو ذا شاعرنا يصور مايهزه من مشاعر الفرحة والسرور ، والهناءة والحبور إزاء مقدم ريحانته " ابنته" "حنين" إلى الحياة ، مجسداً ما انتاب الكون ، وعم مظاهره من بشر وابتهاج ، فرحاً وسروراً لمقدم تلك النسمة الرقيقة إلى الأرض ، مؤكداً كيف أنـه يستمد من وجودها القوة والمنعة ، والراحة والهناءة .. حيث غردت بالحب ، وشدت بالأمل مذ أطلت على الحياة ، فأدخلت من ثم فى نفسه السعادة والسرور ، وسافرت به إلى حيث صفو الحياة ورغدها ، ونعيمها ، واستقرارها ، وباعدت به عن كدر العيش ، وضيق الحياة ، وبؤس الواقع ، حيث يناديها ملحاً فى النداء بقوله :

حـــنين .. ناديتهـــا والفجـــر مولـــود ∴ والطـــير تســـبيحه شـــدو وتغريـــد

حـــنين .. وابتســـم الريحـــان وانتعشـــت ∴ روح الخزامـــى وغنـــت خصـــبها البيـــد

حـــنين ، واســـتلم الشـــعر الأصـــيل يـــدى ∴ مقـــبلاً وازدهـــت حـــولي الأناشـــيد

وفجـــرت كلمـــات الشـــعر أحرفـــها ∴ أنهـــار حـــب فحـــوض الشـــعر مـــورود

حـــنين .. وابتـــدرتنى غيمـــة هطلـــت ∴ بـــراءة واســـتقى مـــن جودهـــا الجـــود

وصـــرت أشـــعر أن الشـــمس واقفـــة ∴ لخـــدمتى وجـــدار الليـــل مهـــدود

وأن رائحـــة الأزهـــــار تمنحنـــــى ∴ ســـر الشـــذى وتنـــاجينى العناقيـــد

صـــغيرتى مـــاجرت فـــى ثغرهـــا لغـــة ∴ وسمعهـــــا لم تصـــــافحه الأغاريـــــد

لكنهـــا غـــردت بالحـــب مـــذ ولـــدت ∴ وأســـعدتنى بمـــا لم يســـعد العيـــد

وســـافرت بـــى إلى صـــفو الحيـــاة وقـــد ∴ ظننـــت أن طريـــق الصـــفو مســـدود[٦٩]

وتبدو مشاعر الفرحة والسرور المسيطرة على نفس الشاعر ، الكائنة فى أعماقه إزاء مقدم ريحانته الصغيرة : " حنين " إلى الحياة . تبدو تلك المشاعر فى أكثر من موضع – خلال تلك الأبيات . من مثل تكرار اسمها : " حنين " ، وإلحاحه فى ذلك ، متلذذا بذكره ، مستعذباً تكراره ، هانئاً بترداده .. وأيضاً فى خلعه مشاعر البهجة والسرور على مظاهر الكون إزاء مقدم تلك الريحانة .. فقد شدا الطير وسبح وغرد ، وابتسم الريحان .. وفاحت رائحة الخزامى ، وعبقت الأرجاء ، واستحالت البيد خصباً .. تجاوباً فى ذلك مع مقدم حنين إلى الحياة .

وياله من تصوير استعاري رائق بليغ هذا الذى صور فيه الشاعر الشمس بكائن عاقل يحتمى به ، ويستمد منه القوة والمنعة بعد أن أهلت حنين على الكون .. حيث يقول : وصرت أشعر أن الشمس واقفة لخدمتى .. بجانب مايدل عليه ذلك التصوير من بقاء الضياء ، ودوام النور الناتجين عن طلوع الشمس الدائب " وقوله

---

(٦٩) ديوان صراع مع النفس د/ عبدالرحمن العشماوى صـ ١١٠ ، ١١١ ـ ط مكتبة العبيكان ـ الرياض السعودية ـ الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

: وجدار الليل مهدود " يؤكد به الشاعر كيف أن مقدم تلك النسمة الرقيقة إلى الحياة يمثل له النور والضياء الدائمين المستمرين .

ثم ها هو ذا شاعرنا عبر قصيدته الرقيقة تلك يتجه إلى صغيرته تلك التى ملأت قلبه حياة، وحياته خصباً، والتى ملأت جنبات البيت بالبشر والسرور، وأشاعت بين أهله الفرحة والحبور .. حيث أبصرت عينا والدها تلك المشاعر الفرحة الهانئة فى وجه جدتها ، وأمها تبدو جلية للعيان .. فقد أحدثت وأشاعت فيما حولها نغماً .." يفعم بالأمل ، ويفيض بالحياة " .. وهنا يتجه شاعرنا إلى صغيرته تلك التى يعلم أنها لا تستوعب كلامه ، لأنها مازالت فى المهد .. لكنه يأمل لها فى مستقبل يشرق بالخير ، ويفعم بالأمل مصوراً بين يديها مايتحلى به من شمائل لها أن تزهوبها ، وتفاخر .. وباثاً إياها مايكنه إزاءها من مشاعر الأبوة الحانية حدت به إلى أن يبدع ويدبج من كلمات هنا ، داعياً لها أن يبارك الله جل وعز فى عمرها ، وأن يتعهدها بالحفظ والصون ، والرعاية ، والتعهد ، حتى تكون أهلاً للخير، ناصرة لأصحابه، ومؤيدة ،ومعينة لأتباعه .. حيث يقول:

لما رأيت الرضا فى وجه جدتها ∴ وأمها والرضا فى الوجه مشهود

وأبصرت مقلتى إخوانها هتفوا ∴ وحبل آمالهم فى الله معقود

وشاع فى بيتها من صوتها نغم ∴ به تحقق للأنغام تجديد

أطلعت خيل نشيدى فى مدى حلمى ∴ وسرنى من قوافى الشعر تأييد

حنين إن كنت لم تستوعبى لغتى ∴ ففى غد سوف يحلو منك سر ترديد

أبوك يحمل آمالاً يزاحمها ∴ فى القلب وهم وفى الأجفان تسهيد

أبوك سير للعلياء مركبه ∴ وجسره فى طريق الخير ممدود

صغيرتى ماكتبت الشعر من ترف ∴ لكنه نبض وجدان وتنهيد

يارب أنبت لى ريحانة ملأت ∴ قلبى شذى وسقى أوراقها العود

أدعوك يارب أن ترعى منابتها ∴ حتى يكون بها للخير توطيد[٧٠]

---

(٧٠) ديوان صراع مع النفس ــ صـ ١١١، ١١٢ .

وللشاعر قصيدة بكى خلالها شقيقته التى ماتت ليلة زفافها .. لم تف بطبيعة الموقف الرهيب الجد المؤثر الذى يقفه هنا .. حيث بدت نفسه ـ خلالها ـ هادئة ، ومشاعره متزنة ، وأحاسيسه رزينة قد مال فيها إلى التعقل والهدوء والرزانة ، وابتعد عن الحرارة ، وقوة الانفعال ، حيث لم يعدو فيها عن استهلاله إياها بالدعاء لأخته ، ثم إشارته إلى نبأ وداعها ورحيلها عن ذلك المنزل الذى ذاقا فيه سويا شراب اليتم ، وعاشا فيه عمراً صارعا فيه الآلام ، وحققا من بعدها الآمال فى ظل أم رءوم، ووالدة جلدة صابرة إزاء صعوبات الحياة ، وعاديات الليالى ، مؤكداً أنها وإن كانت قد ودعت ذلك البيت الذى شهد آلامهما وآمالهما فإنها ماتزال تتربع فى القلوب ، وتستقر فى الحنايا ، وتسكن فى الضلوع ، داعيا لها فى النهاية أن ينعم عليها الرحمن بالرضا والرضوان " حيث يقول : من قصيدته : "بطاقة وداع" يبكى شقيقته الراحلة :

يصونك ربى من جحود وحاسد ∴ ويحميك ربى من غيور وحاقد

إذا كنت ودعت منزلنا الذى ∴ شربنا به يتماً وفقدان والد

وعشنا به عمرا تصارع بؤسنا ∴ إلى أن وصلنا للمنى والمقاصد

رعتنا بـه أم رحيم من أجلنا يا أخيتى ∴ ولم تكترث يوما بأقوال جاحد

رعاها إلهى لم تزل فى صمودها ∴ وهل تخضع الأيام إلا لصامد

إذا كنت قد ودعتنا يا أخيتى ∴ فإنك منا فى القلوب الشواهد

دعوت لك الرحمن أن يجعل الرضا ∴ طريقك فى ظل من العيش راغد[٧١]

وعاطفة الشاعر ـ كما نرى خلال أبياته هذه ـ يشوبها الضعف والفتور، فلم يلمح خلال تلك التجربة أثر من آثار التفجع والتوجع ، وإبداء الحزن الشديد ، والأسى البالغ إزاء تلك المرثية ، لاسيما وأنها أخت قد ماتت فى ليلة زفافها ؛ مما يجعلنى أقول إن لغة الشاعر ، وصوره ، ومضامينه هنا لم تف بقدر ذلك الموقف الرهيب المؤثر ، ولا تناسب طبيعته هنا .

(٧١) المصدر السابق ــ صـ ١٣٥ ، ١٣٦ .

المبحث السادس : شعره فى المرأة المسلمة بعامة

انطلاقاً من كون الشاعر مسلماً ملتزماً ينزل على هدي الدين الحنيف ، وينطلق فى شعره ـ من خلال تصور الإسلام الراشد الحكيم فقد رأيناه ينظر إلى المرأة نظرة الإسلام إليها ، حيث يبغى لها ما يبغيه دينها ، ويأمل ما يأمله شرعها ، فهي فى نظر الدين تلك اللؤلؤة المصونة ، والدرة المكنونة ، التى تقر فى بيتها، وتتزين بعفافها، وتتحلى بحيائها، وتتزيا بطهرها، وتتوج بتصونها..

وهو ـ أي الدين الحنيف ـ يباعد بينها وبين الخلاعة والسفور ، والتهتك والمروق ، مؤكداً أن فى ذلك الشرف والرفعة ، والكرامة والعزة ، وفى غيره الصغار والضعة والذلة والحقارة ، والبوار والخسارة مهما خدعها الخادعون ، وألبس عليها الملبسون ، وزين لها المزينون ، وادعى الأفاقون ، واحتال الماكرون ..((فلقد عض أعداء الإسلام على المرأة المسلمة أناملهم من الغيظ فاجتهدوا فى الكيد لها ، والمكر بها ، وخداعها ، والإيقاع بها باسم التمدين والحرية ، والتحضر والمدنية ، ونصبوا لها الحبائل ، وتربصوا بها الدوائر لتدميرها ، ووأدها والقضاء عليها .. ففى القضاء عليها قضاء على أجيال الإسلام، وشباب الإيمان ، وحماة العقيدة ، وحراس الوطن .. فكانت حملاتهم المسعورة ، وهجماتهم المسمومة على المرأة المسلمة .. وقد بلغت هذه الحملات من ذكائها أنها لم توجه إلى عقل المرأة وفكرها ؛ لأن العقل السليم ، والفكر المستقيم يأبى التفريط فى العرض ، والمساس بالعفة والحياء .. وإنما وجهت إلى نفسها ، وخاطبت فيها نزعاتها ونزواتها ونوازعها ، وهواجسها ، وشكوكها ، ووساوسها ، وأمدت عروق الشيطان فيها بالسموم ، وروتها بصديد الزقوم ، فنخرت حياءها ، وعفافها ، وأسلمتها إلى شهواتها ، ورغباتها ، وساقتها وهي لاتدرى إلى حتفها ، فسفرت المرأة وتبرجت ، وتزينت بالعري ، وتحلت بالتحلل ، وتزيت بالتبذل ، والنتيجة مرة مرارة العلقم ، مؤلمة إيلام الجرح الغائر .. بيوت خربت ، وأطفال شردت .. وأعراض هُتِّكت .. وأوصال مُزِّقت ، وأرحام قُطِّعت .. وأنساب دُنسِّت ، وحرمات استبيحت[٧٢] .

حقاً وصدقاً ويقيناً .. فما أكثر الحملات الشعواء ، والدعوات الحمقاء التى تنادى بتبرج المرأة وسفورها ، وتدعو إلى تهتكها ، وسقوطها ، متشدقة فى

---

(٧٢) السفور والحجاب فى مرآة الشعر الحديث ــ تأليف د/ صادق على حبيب ، صـــ ٨ ، ٩ ، ط مركز آيات للطباعة والكمبيوتر ــ الزقازيق ــ الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م.

ذلك بحقها فى ممارسة حريتها ، وتمتعها بحياتها فى غير ما ضوابط أو قيود ، متناسية ماعليه المرأة المسلمة من دين قويم ، وشرع حكيم ، وما تستظل بظله من قيم وتقاليد وآداب وأعراف تضمن لها شرفها وسؤددها ، وتحقق عزتها ، وكرامتها .

وقد وقف شاعرنا من المرأة المسلمة ذلك الموقف ذاته أعنى : موقف الإسلام ، حيث كان الناصح الأمين ، والمقوم الحكيم ، فراح يبين لها فى شعره مافيه نجاتها وسلامتها ، وشرفها ورفعتها ، وأن ذلك متحقق فى حيائها وعفتها ، وحجابها ، وتصونها ، محذراً إياها من أن تتنكب الطريق ، وتضل السبيل ، وأن تنطلى عليها أكاذيب المرجفين ، ودعاوى المغرضين ، وحيل المحتالين ، وخداع المخادعين .. أولئك الذين يبيتون لها نوايا الخبث والمكر ، والشر والضياع .. فيدعونها إلى التبذل والسقوط ، والخلاعة والسفور باسم الحرية المزعومة ، والمدنية المكذوبة ، والتحضر الزائف ، مؤكداً أن فى ذلك السبيل إلى الخزى والصغار ، والخسارة والبوار .. وأن فى اتباعها الصراط المستقيم ، وارتيادها سبيل الإيمان ما يحقق لها الاحترام والتقدير ، والإكبار والتبجيل .. حيث تغدو بذلك لؤلؤة مصونة ، ودرّة مكنونة ، سالمة من عبث العابثين ، وآمنة من طمع الطامعين .. يقول الشاعر رامزاً للمرأة المسلمة الحصان الرزان ربة الخدر المصونة :

يـــا وردة مـــا اســـطعت ألمســـها ∴ أخشـــى بـــأن يفســـدها اللمـــس[٧٣]

وها هو ذا شاعرنا يقف من المرأة المسلمة موقف الناصح الأمين ، والمقوم الحكيم . مهيباً بها . بعد أن اتخذها أختاً له . أن تتسلح فى درب هذه الحياة المائجة بالمفاسد ، المليئة بالأخطار ، الحافلة بألوان اللهو والمجون ، أن تتسلح بالأخلاق ، وأن ترتاد سبيل الهدى ، وأن تتزين بالصدق والعفاف ، وأن تستقيم وتثبت على ذلك فلا تتغير بمتغيرات الحياة ، ولا تنخدع بمستجداتها ، ففى ذلك الكرامة والسلامة ، والنجاة من الملل والسآمة ، والحفاظ على عزتها وكرامتها وإبائها وصونها :

أختـــــى .. وفـــــى أخـــــلاقكن ∴ لكـــــن يـــــا أختـــــى كرامـــــةْ

أختـــــى .. وللفتيـــــات فـــــى ∴ درب الهـــــدى أغلـــــى ســـــلامه

(٧٣) ديوان: إلى حواء صـ ٨٥ .

أختى..وأنـــــت فتـــــاة عصـــــــ ∴ ر تســـــــتذل بـــــــه الشـــــــهامه

كـــــونى أجـــــل مـــــن الحـــــيا ∴ ة إذا جـــــرت فيهـــــا الســـــآمه

أختى..وفـــــى أحشـــــاء دنـــــــ ∴ يانـــــا وبـــــئس بهـــــا مجـــــون !!

نعـــــم الفتـــــاة المســـــــتقيمة ∴ لا تحـــــيط بهـــــا الظنـــــون !!

تســـــمو بصـــــدق عفافـــــها ∴ ولرمـــــز عزتهـــــا تصـــــون

تلـــــك التـــــى مهمـــــا تغـــــير ∴ دهـــــــرها لا تستكيـــــــن[٧٤]

ويلحظ على الشاعر استعماله لكلمة (أختى) وتكراره إياها ، وإلحاحه عليها خلال تلك الأبيات .. بجانب إتيانه بالمنادى هنا محذوف الأداة إشعاراً بذلك كله بدنو المنادى (المرأة المسلمة) وقربها الشديد من قلبه ووجدانه ، وأنها محور تفكيره ، ومرتكز اهتمامه .. فهي حاضرة فى وجدانه ، ماثلة فى فؤاده .. ودلالة أيضاً على حب الشاعر الشديد للمرأة المسلمة ، وحنوه عليها ، وحدبه ، وحرصه الشديد على شأنها .. وما فيه خيرها ورشادها لا سيما . وهي تحيا فى ذلك العصر الذى يموج بالخلاعة والمجون ، ويحفل بالتهتك والسقوط .

ثم ها هو ذا شاعرنا يلح فى نصحه لأخته المسلمة فيهيب بها ، منبهاً إياها ، ومحذراً ألا تسئ فهم الحرية ، فتتحرر من الضوابط والآداب باسم التحضر والتمدين والمعاصرة ، وتتخلص من التقاليد والأعراف .. فقد سبقها إلى ذلك نسوة من قبلها فغدون ذليلات تائهات حائرات ، معذبات رهينات لقيود لذاتهن .. وقد كن قبل ذلك بعفافهن ، وحيائهن سيدات عزيزات ، وفتيات مصونات ، ونساء كريمات .. موضحاً بين يديها مفهوم الحرية الصحيح . وهو ألا يُطلق الإنسان العنان لهواه ونزواته ، وأن لا يحل العقال لشهواته وغرائزه فيسير هكذا بلا وازع ولا رادع ،بجانب أن حرية الإنسان فى ثباته والتزامه ، وعدم انخداعه بالمغريات ، متمسكاً فى ذلك بصدقه ، ويقينه ، وقوة إيمانه .. مهيباً . أى الشاعر . بأخته المسلمة فى حب وحنو شديدين من أن تلوذ بربها جل وعزّ ، وتجأر إليه ،وتستعين به ،وتستهديه ، وأن تتمسك بهديه سبحانه ، وتهتدى بشرعه ، ولتكن واثقة بعونه – تعالى– وتأييده ، وهديه وتثبيته :

---

(٧٤) ديوان : إلى حواء ــ صـ ٩١ ، ٩٢ .

أختـــى وكـــم حمقـــاء أغـــ ∴ رتهـــا الملـــذات المهينـــهْ
ففـــدت .وكانـــت حـــرة ∴ لقيـــود لـــذتها رهينـــهْ
تهفـــــوإلى حريـــــة ∴ فتصـــير تائهـــة ســـجينهْ
وتســـوقها أوهامـــها ∴ فهـــي المعذبـــة الحزينـــهْ
حـــرية الإنســـان ألا ∴ يســـتبد بـــه هـــواه
يرقـــى بصـــدق يقينـــه ∴ وتســـير ثابتـــة خطـــاه
أختـــاه لـــوذى بالـــذى ∴ مـــا خـــاب يومـــاً مـــن دعـــاه
وتمســـكى بهـــداه – فالـــ ∴ إشـــراق يـــا أختـــى هـــداه[٧٥]

ويبدو حرص الشاعر وحدبه وحرصه وحنوه..ومن ثم صدقه وإخلاصه فى نصحه وتوجيهه إزاء تلكم المرأة المسلمة لما فيه سلامتها ونجاتها مما يقع فيه الكثير والكثير من النساء الحمقاوات المخدوعات ببريق المدنية الزائف، وزيف التحضر المزعوم من الأخطار والمهالك،وما يعانينه من قيود الذلة والمهانة .. تبدو تلك المشاعر المشار إليها فى صدرهذا التعليق ، والكائنة فى أعماق الشاعر إزاء المرأة المسلمة – من خلال تعبيره إزاءها بكلمة : "أختى"، والحاحه فى استعمالها وحذف حرف النداء منها: أختى .. أختاه .. أختى .. مما يؤكد قربها الشديد من نفس الشاعر، ومثولها فى ذاكرته، وحضورها فى وجدانه .

وفى قصيدته : " ضدان يا أختاه " تلك التى يبدو مضمون التجربة فيها من خلال عنوانها الدال الموحى والمعبر هذا .. فى قصيدته تلك يقيم الشاعر حواراً بينه وبين إحدى النساء – تلك التى اتخذها رمزاً للمرأة السافرة المتحررة المخدوعة ببريق التحضر ، وزيف التمدين ، والمعاصرة .. حيث بدت عليها ألوان الزينة ، ومظاهر التبرج .. فبدت من ثم مفاتنها ، وحلت محاسنها ، وغدا لها تأثيرٌ قوي ، وسحر نافذ فيمن يرنوا إليها ، وينظر إلى جمالها .. حيث عيناها الجميلتان الساحرتان اللتان ما نظرتا إلى أحد إلا وأردته صريعاً قتيلاً ، لا حراك ولا قوة به ، ومن أسف فقد كانت تلك المرأة مسلمة عربية .

(٧٥) ديوان إلى حواء ــ صـ ٩٢ ، ٩٣ .

وهنا يتوجه الشاعر إليها يسائلها من أين أنت ؟ يامن تبدو عليك مخايل الحسن ، ومعالم الجمال ، ومظاهر الفتنة ، ويا من أثارت هيئتك فى نفسى، وفضولاً إلى التعرف إليك .. فأجابته إجابة أثارت تعجبه واستغرابه : عربية أنا .. وما تراه من هيئتى وحالى إنما يرجع إلى إيمانى بحريتى ، وزهوى بحسنى وجمالى .. حيث أجوب جنبات الأرض فرحة مرحة أنعم بحريتى ، وأهنأ بانطلاقى معتدة بذاتى !! .. وهنا يضيف عليها الشاعر هذا السؤال المهم والذى يعد المحك الرئيس للتجربة هنا أمسلمة أنت ؟! فتجيبه إجابة فيها من الغرابة والتناقض ما فيها : نعم ولخالقى الحمد !! وهنا يسائلها الشاعر فى حيرة وحسرة ، ودهشة ومرارة : إذن من أين هذا الزي الذى تبدين فيه سافرة متبرجة .. والذى ماعرفت أرض الحجاز (أرض الإسلام) ، ولا رأت مثله (نجد) وغيرها من حواضر الإسلام ، وعواصمه الممتدة .. إنه إذن هو التبذل والسقوط ، والخلاعة والمجون يامحدثتى .. وهو ضرب من الردة والضلال ..وهنا ينتاب تلك المرأة المخدوعة المغرورة إحساس شديد من الغضب والجنون ، فتثنى عطفها كبراً ، وتعالياً ، وتطلق للسانها العنان صلفاً وغروراً فتهذى بالشتائم والسباب ، وترد على الشاعر تبرر له ما هي عليه ، حيث توضح له ـ من خلاله ـ كيف أنها بذلك تمارس حريتها ، وتحيا حياتها فى مرح وانطلاق .. فيحسها الشاعر فى إحساس صادق ، وشعور عميق والحزن يلفه ، والأسى يعتصره ، والحسرة تتملكه : إنى أخاف عليك من تلك الحرية المطلقة الخالية من الالتزام .. والتى لا ضابط لها ، ولا وازع ولا رابط .. !! فهي سبيل إلى الهلاك ، والطريق إلى الضياع ، ولتعلمى يا أختاه أن هناك ضدين لا يجتمعان فى امرأة مسلمة ، إما أن تكون ملتزمة بدين الهدى والرشاد ، وإما أن تكون سافرة متحللة ، مقيمة فى الفسق والضلال .. واقفاً بين يديها على مكمن الداء ، وأس الضياع لأمتنا الإسلامية .. وأنه يتمثل فى ذلك الازدواج بين الشيء وضده .. والأمر ونقيضه .. حيث يخالف السلوك المعتقد ، ويناقض المظهر المخبر ، متمثلاً فيما ينادى به الشرع الحنيف .. هاهو ذا شاعرنا ينتقد التبرج والسفور، ويدعو إلى العفة والحجاب فيقول :

هذى العيون وذلك القد ∴ والشيح والريحان والند

هذى المفاتن فى تناسقها ذكرى تلوح وعبرة تبدو

سبحان من أعطى أرى جسدا ∴ إغراؤه للنفس يحتد

عينان ما رنتا إلى رجلٍ ∴ إلا رأيت قواه تنهد

من أين أنت أأنجبتك ربا ∴ خضر فأنت الزهر والورد؟!

من أين أنت فإن لى شغفاً ∴ وإليك نفسى لهفة تعدو؟!

قالت وفى أجفانها كحل ∴ يغرى وفى كلماتها جد:

عربية ، حريتى جعلت ∴ منى فتاة مالها ند !!

أغشى بقاع الأرض ماسنحت ∴ لى فرصة بالنفس أعتد

عربية ، فسألت مسلمة ؟ ∴ قالت : نعم ولخالقي الحمد؟!

فسألتها والنفس حائرة والنار فى قلبى لها وقد: !!

من أين هذا الزي؟ما عرفت ∴ أرض الحجاز ولا رأت نجد !!

هذا التبذل يا محدثتى ∴ سهم من الإلحاد مرتد

فتنمرت ثم انثنت صلفاً ∴ ولسانها لسبابها عبد

قالت : أنا بالنفس واثقة ∴ حريتى دون الهوى سد

فأجبتها والحزن يعصف بى ∴ أخشى بأن يتناثر العقد

ضدان ياأختاه ما اجتمعا دين الهدى والفسق والصد

والله ما أزرى بأمتنا ∴ الا ازدواج ماله حد[٧٦]

وإن كنت لا أرتضى للشاعر قوله يتساءل عن تلك المرأة التى رمز بها إلى التبرج والسفور .. ذلك الأنموذج المرفوض فى ميزان الإسلام :

من أين أنت أأنجبتك رُباً ∴ خضر فأنت الزهر والورد؟!

من أين أنت فإن بى شغفاً ∴ وإليك نفسى لهفة تعدو ؟!

---

(٧٦) ديوان : إلى حواء ــ صـ ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .

حيث يبدو مضمون هذين البيتين غير منسجم مع المضمون العام للتجربة ، ويظهر منفصماً عن رأي الشاعر وموقفه خلالها ، فهو ينتقد التبرج والسفور .. فكيف به يشير بعد ذلك إلى أنَّ به شغفاً إلى تلك المرأة .. وأن نفسه تتلهف على مظهرها ؟! بجانب وصفه إياها بأنها : الزهر والورد .. ذلك الوصف الذى يبدو فيه الشاعر – وكأنه يصف شيئاً حسناً طيباً !! .

وهكذا يتبين لنا من خلال تلك القصيدة الدالة المعبرة ذات المضامين المهمة ، والمعانى القيمة ، والتى أقامها الشاعر على ذلك الحوار الذى دار بينه وبين تلك المرأة ..هكذا يتبين لنا من خلال ذلك : " أن هناك ازدواجية فى سلوك بعض نساء الإسلام ، إذ يجمعن بين ضدين لا يلتقيان ، وهما الإسلام والهدى ، أو الفسق والانحراف ؛ فيبدر منهن السفور والتبرج والابتذال ، وهو لا يليق بامرأة تدين بدين الهدى[٧٧] .

وتلك القضية – أعنى الازدواجية عند المرأة المسلمة .. تلك التى ينفصم مظهرها عن مخبرها " دينها " ، ويناقض ظاهرها مُعتقدها .. تُعد تلك الازدواجية عند المرأة المسلمة من أخطر معاول هدم المجتمع المسلم ، وسبب أكيد فى تصدع بنيانه ، وتداعى أركانه : " فإن سبب ما حل بأمتنا من ضعف وخوار ، وما أصابها من تحلل وانحدار ، هذه الازدواجية .. فمعظمنا مسلم بالتبعية ، ولكنه لم يسلك سلوك الإسلام ، ولم يتخلق بأخلاقه ، وقد استطاع الشاعر العشماوي بهذه القصيدة أن يُطوِّع الشعر لمعالجة قضية من أخطر قضايا الانحراف فى مجتمعنا الإسلامي ، وهي سفور المرأة وتبرجها وتبذلها ، مبيناً أنَّ المسلم الحق ينبغى أن يتبعد عن هذا الفسق والتبذل[٧٨] .

وفى قصيدته : أنشودة : " الفجر" يلح شاعرنا على معالجة تلك القضية المحورية بين قضايا المرأة فى المجتمع المسلم المعاصر .. تكلم هى سفور المرأة ، وتبرجها ، وتحررها ، وتبذلها .. حيث يشير إلى تبدل الحال، وتغير الواقع ، وانقلاب الموازين ، وضياع القيم ، وانهيار الأخلاق بعد أن نجح أعداء الدين فى طمس الهوية الإسلامية والقضاء على ثوابت الدين فى المجتمع المسلم المعاصر ، فراح الناس من ثم يتخذون من التبرج قدوة تُبتغى ، ومن السفور قدوة تُحتذى ، فربات الصون والحشمة والعفاف :" ليلى " أولئك اللائى كن معلماً بارزاً من معالم ذلك

---

(٧٧) التيار الإسلامي فى شعر عبد الرحمن صالح العشماوى – سهيلة زين العابدين حماد – صـ ١٠٤ .

(٧٨) المرجع السابق ــ صـ ١٠٦ .

المجتمع ، غدون " كارينا " متبرجات " متهتكات ، سافرات .. كأثر من آثار تلك الأعراف والتقاليد السقيمة الطارئة التى هى غريبة كل الغرابة على المجتمع المسلم المعاصر ، فقد انتابته علل ، وتناوشته أمراض خلقية ، كادت تنخر عوده ، وتنهش كيانه ، وتتداعى منها أركانه .. ويتصدع بها بنيانه .. مشيراً إلى مكمن الداء فى ذلك الواقع المتردى ، وأنه يتمثل فى تنكر المسلمين لماضيهم ، وتخليهم عن تراثهم ، ونصرتهم لأتباع الكفر ، وأشياع الفساد ، وانقيادهم لفكرهم السقيم ، فتبدلت من ثم أذواقهم ، وتغيرت طباعهم ، فعافت أنفسهم الماء العذب ، واستطابت الملح الأجاج .. فأنى لهم أن يتحقق لهم العزة والكرامة ، والتقدم والسيادة ، مختتماً أبياته هذه بذلك الاستفهام الدال على الاستبطاء ـ والذى ينتقد فيه تبعية وانقياد المسلمين لأعدائهم ، وجريهم لاهثين وراء كل زاعق وناعق منهم بالحرية المزعومة ، والتحرر المقيت باسم التمدين والتحضر والمعاصرة .. حيث يقول:

تبـــدلت حالتـــــنا ، أصبحـــــت ∴ غربـــــة هـــذا العصـــر تشقيـــــنا

زماننـــا والنـــاس فـــى غفلـــة ∴ قـــد ضـــيعوا فيـــه الموازيـــــنا

" ليلـــى " التـــى أعرفهـــا أصـــبحت ∴ يـــا ضـــيعة الأحـــلام " كارينـــا"!!

وصـــاحبى أصـــبح يـــا حســـرتى ∴ يتخـــذ القـــدوة " لينيـــــنا !!

الـــداء ـ لوتـــدرين ـ فـــى عـــالم ∴ طوفانـــه قـــد لفـــظ الـــدينا !!

الـــداء فـــى أنفســـنا لم تـــزل ∴ ممـــدوة للكفـــر أيـــديـنا !!

عفنـــا زلال المـــاء "ياويحـــنا" ∴ واســـتعذبت أنفســـنا الطينـــا!!

كيـــف نريـــد العـــز فـــى حـــاضر ∴ ونحـــن نســـتنكر ماضـــينا ؟!

إلى متـــى نبقـــى علـــى حالـــنا ∴ نســـير فـــى ركـــب أعـــادينا ؟! (٧٩)

ولا يخفى ماترمز إليه تلك الكلمات الدالة ، واللبنات المعبرة الورادة فى تلك الأبيات من مثل : " ليلى " ، كارينا ، لينينا " من معان ومضامين لا تنفصم عن سياق المضمون العام هنا ، حيث يرمز بها الشاعر إلى تبدل الحال ، وتغير الواقع ، وانقلاب الموازين ، واضطراب المعايير ، وانهيار القيم ، والأخلاق فى المجتمع المسلم المعاصر ، فبعد ما كانت " جل نسائه " " ليلى " عربيات أبيات مصونات ، يزينهن التصون والعفاف ، والحشمة والوقار ، غدون فى معظمهن " كارينا " أو "

(٧٩) ديوان إلى حواء – صـ ١٦، ١٧ ، ١٨ .

لينينا " متبرجات متهتكات أشبه بالأجنبيات .. وما أجمل وأبلغ تعبير الشاعر بكلمة: "لفظ " تلك التى نسبها الشاعر للمجتمع المسلم المعاصر ، وخلعها على أكثر أبنائه إزاء موقفهم الشائن البغيض من دينهم ، وكيف أنهم يرفضون منهج الدين ، ولم يرتضوا بشرعه ، ولم يهتدوا بهديه .. وهذا ولا شك فى أنه سر شقائهم ، وتراجعهم ، ومكمن هلاكهم وتخلفهم :

الـــداء ـ لوتـــدرين ـ فـــى عـــالم ∴ طوفـــــانه قـــد لفـــظ الديـــــنا !

ولا يخفى ما تدل عليه كلمة : " طوفانه " ، وما توحى به من معانى الغرق والهلاك الذى سيئول إليه حال المجتمع المسلم المعاصر آنئذ ، بجانب ما تدل عليه من ذيوع ذلك الداء ، وتمكنه من المسلمين .. ولن يعوض المسلمين أي شئ عن دينهم مهما كان ، ففى تمسكهم بدينهم ـ بما فيه من تكاليف وأخلاق، وتقاليد وشمائل العز والسيادة ، والتمكين والريادة ، والتحضر والقيادة .. ثم ما أجمله وأبلغه من تعبير استعاري يقوم على التجسيد والتشخيص فى قوله يُجلى مكمن الداء فيما حل بالمسلمين من تخلف وتأخر ، وأنه يكمن فى تبعية وانقياد المسلمين لأعدائهم .. ما أجمله وأبلغه من تعبير استعاري .. حيث جعل الشاعر من الكفر شخصاً عاقلاً ، وشيئاً حسياً تمتد إليه أيدى المسلمين بالعون والمدد صاغرة منقادة :

الـــدَّاء فـــى أنفســـنا لم تـــزل ∴ ممـــــدودة للكفـــــر أيدـــــينا !!

ولا يخفى ما يتوافر عليه البيت :

عفنـــا زلال المـــاء "ياويحنـــا" ∴ واســـتعذبت أنفســـنا الطينـــا !!

من كلمات دالة ، وتراكيب موحية تشيع فى فضاء التجربة هنا ، وتحلق فى أجوائها من مثل : عُفنا ، يا ويحنا !! ، استعذبت أنفسنا الطِّين .. حيث تجسد طبيعة المجتمع المسلم المعاصر ، وتكشف عن أذواق أبنائه السقيمة ، وطباعهم المريضة التى طرأت عليهم ، وجدت ، والتى حملت الشاعر على توبيخهم ، وإلقاء اللائمة عليهم ، ولا يخفى ما يدلان عليه الاستفهامان الواردان فى البيتين الأخيرين من تلك الأبيات من معانى التعجب والإنكار ، والاستبعاد والاستبطاء .. التى تجسد حال المسلمين المعاصرين – أولئك الذين تنكروا لماضيهم ، وتمردوا على ثوابتهم ، فأنى لهم أن يتقدموا ، ويتحضروا .. ، وإلى متى يبقون على حالتهم تلك – فيظلّون هكذا يسيرون فى ركب أعاديهم ؟!! .

وهكذا يتبين لنا أن الشاعر العشماوي قد نظر إلى المرأة نظرة الإسلام لها ، وهي نظرة تكريم وتقدير ، واحترام وتبجيل ، فهى فى نظره إنسانة حرة كريمة طاهرة ، عفيفة.. حيث حرص فى شعره على المحافظة على إنسانيتها وكرامتها ،

بل حثها على المحافظة على طهرها وعفتها .. فتبقى من ثم تلك الؤلؤة المصونة ، والدرة المكنونة، وتحظى بالاحترام والتقدير لقد أمرها الله بالحجاب ، وإدناء الجلباب حتى لا تتعرض لأذى الذئاب ، وطنين الذباب .. وأمرها بالإقرار فى البيوت والدور ، ونهاها عن التبرج والسفور ؛ صوناً لها من أبناء الخنا ، وعشاق الفجور .. فهل بعد هذا التكريم من تكريم ؟![٨٠].

(٨٠) السفور والحجاب فى مرآة الشعر الحديث – د/ صادق على حبيب – صـ ٧ ، وينظر : التيار الإسلامى فى شعر عبدالرحمن العشماوي ــ سهيلة زين العابدين حماد ــ صـ ١٠٧ .

الفصل الثانى :
السمات الفنية لشعر المرأة عند د/عبدالرحمن صالح العشماوي

ويتضمن الظواهر الأسلوبية والفنية " المباحث" التالية :

المبحث الأول : بناء القصيدة – خلال تجارب الشاعر فى المرأة .

المبحث الثانى : معجم الشاعر ـ خلال شعره فى المرأة :

المبحث الثالث : من خصائص التراكيب فى أساليب الشاعر – خلال شعره فى المرأة .

المبحث الرابع : من الظواهر البديعية فى أساليب الشاعر – خلال شعره فى المرأة .

المبحث الخامس : الصورة الفنية – خلال تجارب الشاعر فى المرأة .

المبحث السادس : عاطفة الشاعر – خلال تجاربه فى المرأة .

المبحث السابع : موسيقى الشاعر – خلال تجاربه فى المرأة .

المبحث الأول : بناء القصيدة ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة

عُني نقدة لغتنا العربية الجميلة بالحديث عن بناء القصيدة .. واهتموا بذلك اهتماماً كبيراً ، وراحوا يتحدثون –من خلال ذلك عن المطلع والتخلص والخاتمة ، وما ينبغى للمبدع أن يلتزمه ويرتسمه – وهو بصدد صوغ قصائده ، وصُنع تجاربه .. سواءٌ فى البدء ، أم فى التخلُّص ، أم فى الختام .. وحُق لهم أن يعنوا بذلك ؛ لما يمثله من أثر بارز ، ودور فعال فى إكساب التجربة صفات القوة والجودة ، والحُسن والبراعة والطرافة والإثارة ... ومن ذلك ما جاء فى كتاب العمدة : لابن رشيق ت ٤٥٦هـ : "أنه قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر لقد طار اسمك ، واشتهر ؛ فقال : لأنى أصبت المحز ، وطبقت المفصَّل ، وأصبتُ مقاتل الكلام ، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح ، والخواتم ولطف الخروج إلى المدح والهجاء .. وقد صدق ؛ لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ، ومطية النجاح ، ولطافة الخروج إلى الممدوح سبب ارتياح الممدوح ، وخاتمة الكلام فى السمع ألصق بالنفس ؛ لقرب العهد بها ، فإن حَسُنت حسن ، وإن قبحت قبح ، والأعمال بخواتيمها كما قال رسول الله ﷺ" (٨١) .

---

(٨١) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج١ صـ ٢١٧ – ط بيروت ١٩٧٢م .

وغير ذلك من الأقوال الكثيرة فى ذلك الشأن .. وإننى أتساءل الآن ما حال تجارب الشاعر فى المرأة ؟ وما موقعها بين ما ارتضاه النقاد ، ونادوا به ، واشترطوا تحققه فى المطلع ، والتخلص ، والختام ؟ .. وتقوم السطور المُقبلة بدورها بالإجابة على هذا التساؤل – بعون الله تعالى وبتوفيقه .

أولاً: المطالع :

أول طارق يطرق سمع المتلقين ، وأول كلام يقرع آذانهم هو مطلع القصيدة .. كما أنه أول مؤشر لمدى مستوى ، ومقدرة الشاعر الفنية .. ولذلك فقد عُني الشعراء كُل العناية بتجويد مطالعهم محتشدين فى ذلك بكل ما أوتوا من مقدرة ، ووُهبوا من ملكة .. والنقاد قد عنوا – بدورهم أيضاً – بالحديث عن المطلع ، منوهين بأثرها فى القصيدة ، متحدثين عن الضوابط التى ينبغى للمُبدعين أن يقفوا عندها ، ويرسموا نهجها – وهم بصدد صوغ مطالعهم ، وصُنع ابتداءاتهم ، لتتحقق فيها صفات القوة والجودة ، والطرافة والإثارة .. وتسلم بالضرورة من الضعف والفتور والرداءة .

فها هو ذا أبو هلال العسكري ت ٣٩٥هـ ينوه بأهمية المطلع ، ويشيد بكبير أثره ، وعظيم خطره ، وخطر دوره فى القصيدة .. حيث يقول : " المطلع أول ما يقع فى السمع من القصيدة ، والدال على ما بعده ، المنزل من القصيدة منزلة الوجه والغرة ، فإذا كان بارعاً وحسناً بديعاً ، ومليحاً رشيقاً ، وصُدِّر بما يكون فيه تنبيه ، وإيقاظ لنفس السامع ، أو أشرب بما يؤثر فيها انفعالاً ، يثير لها حالاً من تعجب أو تهويل أو تشويق كان داعياً إلى الإصغاء والاستماع إلى ما بعده [٨٢] .

وهناك ضوابط أخرى وضعها النقاد ، وارتضوا للشعراء الوقوف عندها، والالتزام بها من هذه الضوابط :

أولاً: براعة الاستهلال ومراعاة تلك القاعدة البلاغية المشهورة : مطابقة الكلام لمقتضى الحال التى طبقوها على المطلع حين أرادوه متمشياً مع موضوع القصيدة ، ومع من تقال فيه .

---

(٨٢) الصناعتين : لأبى هلال العسكري صـ ٤٧ – تحقيق على محمد البجاوى – محمد أبو الفضل ابراهم – مطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه – الطبعة الثانية ١٩٩٧م ، وينظر: بناء القصيدة العربية فى النقد العربي القديم فى ضوء النقد الحديث: د/يوسف حسين بكار صـ ٢٠٤ ط دار الأندلس – بيروت – لبنان – ط الثانية ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

ثانياً: أن يباعد الشاعر بالتعقيد عن مطالعه ، ويتجنب الخطأ والغموض فيها .. كما قال ابن رشيق ت ٤٥٦ هـ: وليرغب (أي الشاعر) عن التعقيد فى الابتداء ؛ فإنه أول العي ودليل الفَّهه" [٨٣] .

وقد قبل النقاد ، وارتضوا من المطالع : "ما كان بيناً واضحاً ، لا غموض فيه ، سهل المأخذ لا تعقيد فى تراكيبه ، ولا صعوبة فى فهم معناه [٨٤] .

والناظر فى مطالع الشاعر ، والمطالع لابتداءاته – خلال تجاربه فى المرأة– يجدها تتسم – فى أغلبها – بالقوة والبراعة ، والجودة والطرافة ؛ وذلك لأنها تنبئ – من الوهلة الأولى – عن غرض القصيدة الرئيس ، وتومئ إلى مضمونها الأساس الذى ستعالجه أبياتها بعد ذلك .. حيث تلوح افتتاحاته بطبيعة التجربة ، وتشى بجوها منذ البداية – مما يدعو المُتلقى إلى تتبع المعانى التى تأتى بعد ذلك ،ويحثه على ترقبها ، وتتبعها ، والوقوف عليها ، ويُغريه بذلك .

ومن المطالع التى يتحقق فيها صفات القوة والبراعة ، والجودة والإثارة ، والإيحاء والطرافة – خلال تجارب الشاعر فى المرأة – قوله فى مستهل قصيدته : " دمعة على سماعة الهاتف " يجسد ما ينتابه من مشاعر الحُب الفائض ، والحنين الجارف ، والشوق العارم إزاء والدته بعد أن غاب عنها ، واغترب .. مصوراً – من خلال ذلك الاستهلال المثير ، والافتتاح البليغ – كيف أثار فيه سماع صوت أمه – عبر الهاتف مشاعر مفعمة ، وأحاسيس متنوعة ، فقد سرّه من حيث أبكاه ، وأبكاه من حيث سرّه .. حيث فجّر فى داخله كوامن الحب والحنين ، وأثار فى أعماقه لواعج الشوق والأسى الدَّفين .. وكم كان سماع ذلك الصوت بالنسبة للشاعر شيئاً مأمولاً ، وأمراً مرتقباً لطالما انتظره وارتقبه .. فقد أشاع الأنس والرَّاحة والطمأنينة فى كيانه :

بعث الصوت كامن الأشجان ∴ مثلما سرَّنى فقد أبكانى

نقل الهاتف الحديث المرجى ∴ فسرى الدِّفء والرضا فى كيانى[٨٥]

---

(٨٣) بناء القصيدة العربية فى النقد العربي القديم فى ضوء النقد الحديث: د/يوسف حسين بكار صـ ٢٠٥ ، وينظر: العمدة : لابن رشيق ٢١٨/٢ والفهه ، والفهاهة : العي .. والفه: الكليل – اللسان– مادة – فهه – ١٨٣/٧.

(٨٤) أسس النقد عند العرب : د/ أحمد أحمد بدوي – صـ ٢٩٧– ط نهضة مصر للطباعة والنشر – الفجالة – القاهرة – ١٩٧٩ م .

وهكذا ينبئ ذلك المطلع المثير ، والافتتاح البليغ عن مضمون التجربة هنا ، ويكشف عن ملامحها – بما تضمنه من الألفاظ الدالة ، والمفردات المعبِّرة – بجانب الطباق الوارد فى البيت الأول –وما يجسده من طبيعة ذلك الموقف الذى يقفه الشاعر هنا ، حيث تنتابه مشاعر الحب والحنين ، ويأخذ الشوق منه مأخذه نحو والدته البعيدة عن عينه ، وإذا بصوتها المرجو ، وحديثها المأمول عبر الهاتف يذكى فى داخله ، ويحرك فى كيانه تلك المشاعر ، فيخفف عنه من وطأة الاغتراب ، ويؤنس وحشة البعاد .

ومن المطالع المثيرة ، والابتداءات البليغة التى تتحقق فيها صفات القوة والبراعة .. والجودة والإثارة ، والإيحاء والطرافة– خلال تجارب الشاعر فى المرأة قوله فى مستهل إحدى مراثيه القوية الصادقة فى أمه ، حيث تُجسد ما تفيض به أعماقه من مشاعر الُحبِّ والإعزاز الشديدين ، والتقدير والوفاء البالغين إزاء روح أمه الحبيبة .. وذلك من خلال إهابته بمن يبدى تعجبه من شدة بكائه وذهوله ، وبالغ حزنه وتفجعه إزاء فقد والدته أن لا يتعجبوا من حاله هذا فما يرونه من دمع غزير ، وحزن دفين ، وألم عميق إنما هو بكاء المُحب الوفي الذى ذاق مرارة الفراق ، وتجرع آلام البعاد ، بعد أن نعم فى ظل أمه الرءوم بحلاوة الوصال ، وهنئ بنعيم اللقاء:

لا تقولوا بكيت أقسى بكاء ∴ فبكاء المحبّ رمز الوفاء

كيف لا يذرف الدموع محب ∴ ذاق مر الفراق بعد اللقاء؟![٨٦]

فما أجود ذلك المطلع ، وما أبلغه فى الدلالة على مضمون التجربة هنا .. حيث تنطق كلماته كلها بأن الشاعر بصدد تجربة باكية ، آسية .. وبإزاء موقف حزين مؤثر يقف فيه موقف المحب الوفي إزاء حبيب استقر فى قلبه حبه ، ونحو عزيز غالٍ على نفسه .. يجسد ذلك ، وينطق به الكلمات: بكيت – أقسى بكاء – بكاء المُحب – رمز الوفاء – يذرف – الدموع – محب – ذاق مُرَّ الفراق .. بجانب الاستفهام الوارد فى البيت الثانى – بمعناه الدال على التعجب ، والذى يجسد فيه الشاعر ، ويؤكد –من خلاله– شدة حبه لأمه ، وبالغ تعلقه بها .. حيث لا مجال

---

(٨٥) ديوان: إلى حواء صـ ٣٨ .
(٨٦) ديوان: هي أمى صـ ١٦.

للاستغراب من حالته شديدة الأسى والذهول ، بالغة الحزن والوجوم .. وقد صدر الشاعر مفتتحه الباكي هنا – كما نرى – بأسلوب النهي ، وفى ذلك إثارة لانتباه المتلقين ، وجذب لأسماعهم ، واستمالة لنفوسهم .. وإغراء لهم بمتابعة الكلام الذى يقع بعد النهي .

.. وهكذا يبدو ذلك المطلع قوياً ، جيداً ، موجزاً ، بليغاً ، بيناً ، واضحاً، دالاً على مضمون التجربة ، منبئاً عنها ، متمشياً مع موضوعها ، كاشفاً عن ملامحها .. حيث لا يشك شاك فى أن الشاعر قد بدأ كلامه هنا راثياً ، وبهذا يكون قد راعى القاعدة البلاغية المشهورة التى تتمثل فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، حيث إن لكل مقام مقالا.

ومن المطالع الآسرة ، والبدايات القوية ، والافتتاحات المثيرة – خلال تجارب الشاعر فى المرأة أيضاً – قوله: يناجي ربوع "الباحة" – تلك التى شهدت مسرح حبه ، ومرتع لهوه ، ومنتدى صباه وشبابه ، ومنبع دفئه وأنسه فى ظل أم رءوم ، ووالدة حنون .. مُسائلاً ذلك الربع العزيز على نفسه ، متعجباً ماذا حل به حتى جعل الأسى والوجوم يخيمان عليه ، فغدا مصدراً للأحزان ، وبات منبعاً للآلام .. بعد أن كان مرتعاً للأفراح ، ومسرحاً للإيناس .. ثم هاهو ذا شاعرنا يلح فى مسائلة ذلك الربع – خلال افتتاحه البليغ ، واستهلاله المثير هذا – على سبيل التخيُّل – ماذا دها عينيكِ ، وماذا أصابهما ؟! .. حيث تذرفان الدمع السخين – مشبهتين فى ذلك عينيه اللتين انهمرتا فى البكاء ، وجادتا بالدمع الغزير على فراق والدته الحبيبة الغالية .. حيث أثار شجونه ، وبعث أحزانه ما رآه من تبدل الحال ، وتغير المقام فى ذلك الربع الذى أقفر وأجدب وأوحش وصار يباباً بعد أن ارتحل عنه الأحباب ، وغدا من يعيش فيه يُعانى آلام الوحشة ، وعذاب الاغتراب .. كل تلك المعانى الباكية المؤثرة ، والمضامين الرقيقة الآسية يجسدها ذلك المطلع الدال الرقيق الباكي المؤثر :

باحـــة الحـــب والصـــبا والشـــباب ∴ خـــبريني ، مـــا ســـر هـــذا العـــذاب؟!

مـــا لعينيـــك تـــدرفان دمـــوعاً ∴ كـــدموعى وتوقظـــان اكتئـــابى ؟! (٨٧)

(٨٧) ديوان : هى أمى – ص ــ ٢١ .

وتكمن قوة وجودة وبراعة ذلك المطلع فى كونه دالاً على مضمون التجربة الباكى الآسى هنا .. حيث يُجسد الشاعر – من خلال كلماته الموحية ، وتراكيبه البليغة ، وصوره الرائقة ما ينتاب الشاعر ، ويتملكه من مشاعر الألم والحزن الدفينة المترسبة فى أعماقه إزاء رحيل أمه عن الحياة ، وغيابها عن باحة الحُب والصبا والشباب ، وقد صدر الشاعر ابتداءه هذا – كما نرى – بما فيه تنبيه وإيقاظ لنفس المُتلقي بالنداء – ذلك الذى يُجسد ما ينتابه من حيرة وقلق إزاء ذلك الموقف الباكي الحزين الذي يقفه هنا .. بجانب إثارته لانفعال المُتلقِّي ، وتحريكه لمشاعره – من خلال إشراكه مظاهر الطبيعة فى مشاعره ، وخلعه عليها من ذوب إحساسه ووجدانه ، واتحاده وامتزاجه بها فيما يسيطر عليها من مشاعر الحزن والكآبة ، والألم والقتامة إزاء رحيل أمه الحبيبة عنها .. جاعلاً من ذلك الربع – وهو الجماد– عاقلاً يناديه : باحة الحبِّ والصِّبا والشباب ويسائله : خبريني ما سر هذا العذاب ؟! ، مسنداً إليه بذلك صفات البشر ، وخالعاً عليه سمات العقلاء ، وباثاً فيه روح الحياة – مثلما يصنع الشعراء الرومانسيون – فى تعاملهم مع الطبيعة ، وتفاعلهم مع مظاهرها ، حيث يُشركونها فى بناء تجاربهم ، ويخلعون عليها من ذوب إحساسهم ومشاعرهم وذلك بعد أن يتحدوا معها ، ويمتزجوا بها :

باحـــة الحـــب والصـــبا والشـــباب ∴ خـــبريني ، مـــا ســـر هـــذا العـــذاب؟!

مـــا لعينيـــك تذرفـــان دمـــــوعاً ∴ كدمـــــوعى وتوقظـــان اكتئـــابى ؟!

وأيضاً هو – أي الشاعر – يُحرك مشاعر المُتلقى ، ويثير انتباهه وانفعاله بتلك التساؤلات الدالة على التعجب والدهشة ، والذهول والأسى – إزاء ما أصاب ذلك الربع الذى ضمه هو وأمه الرءوم ، وما كان ينعم به فى ظلها بالأنس والوئام ، والدفء والحنان : ما سر هذا العذاب؟! .. ما لعينيك تذرفان دموعاً ؟! ...

وأختتم تلك النماذج التى تتوافر فيها مطالع الشاعر – خلال شعره فى المرأة – على صفات القوة والجودة والبراعة والإثارة والإيحاء والطرافة بقوله يستهل قصيدته: "رحلة العمر" تلك التى أبدعها فى رفيقة دربه،وشريكة عمره، وقسيمة آلامه وآماله:"زوجه" ، مُؤكداً – من خلال ذلك الاستهلال الدال الموحي– كيف أنه يستمد منها إبداعه ، ويستوحي أشعاره ، وهو يأنس بتغريدها ، ويسعد بترنيمها – ذلك الذى يُذيب الأحزان ، ويذهب بالألام ، مهيباً بها أن تظلل عُش حياتهما "بيتهما "

بالحب والوفاء والأنس والحنان.. حتى يعم فى أرجائه الأمن والاطمئنان، مؤكداً بين يديها كيف أن رحلة الحياة زادها الحب والرضا والتفاني ، وكأني به هنا يهيب بها أن تتزود بذلك الزاد الذى يصنع التقدم والنجاح فى الحياة:

من معانيكِ أستقى ألحاني ∴ فاهتفى يا مذيبة الأحزان

افرشى هذه الطريق وفاءً ∴ فطريقي مفروشة بالحنان

ظللي عشنا الجديد بروح ال ∴ حُبِّ حتى نعيش فى اطمئنان

رحلة العمر- يا رفيقة عمري ∴ زادها الحب والرضا والتفانى(٨٨)

وهكذا ينبئ المطلع هنا -من أول وهلة- عن الشخصية التى سيتحدث عنها الشاعر طيلة قصيدته ، مؤكداً من خلال كلمات ذلك الاستهلال كيف أنه يُكن لزوجته كل احترام وتقدير ، مقدراً لها وقوفها بجواره ، وقطعها معه رحلة العمر – فى حب ووفاء ، ومجسداً مدى قيمتها فى حياته .. فهي مصدر سروره وهناءته، وهي مذيب أحزانه ، ومُبدد آلامه، وهي منبع شدوه، ومصدر تغريده، بل هي رفيقة عمره .. كل هذه المعانى قد أنبأ عنها ودل عليها ذلك الافتتاح البارع ، والابتداء البليغ .

وهكذا تتحقق فى مطالع وابتداءات الشاعر فى المرأة – فى أكثرها صفات القوة والجودة والإثارة والبراعة ، والإيحاء والطرافة ، كما تتسم – فى أغلبها – بالوضوح والإيجاز ، ومراعاة مقتضى الحال ، وما يكون لكل مقام من المقال ، وتتسم كذلك بخلوها من المقدمات التقليدية من طللية وخمرية وغزلية..؛ ولعل فى ذلك ما يومئ ويشير إلى قوة شخصية الشاعر وتميزها ، واستقلالها .

كما تتسم بعض تلك المطالع بكونها تحمل نفس عنوان القصيدة ، بمعنى أن يكون عنوان القصيدة هو نفسه مطلعها من مثل قول الشاعر فى مستهل قصيدته : " يا دفق القلم الباكي " يمعن فى بكاء أمه الراحلة ، متفجعاً إزاء رحيلها ، ومستعظماً المصيبة فى فقدها :

يا دفق القلم الباكى

سطر بمداد دموعي

---

(٨٨) ديوان : إلى حواء – صـ ٢٢ .

حسرة قلبي الشاكى..[٨٩]

وقوله من مستهل قصيدته : "أماه " :

أمـــاه .. لا تيأســـي فـــالله يرعانـــا ∴ وفـيض إحسـانه فـى البـؤس يغشـانا[٩٠]

وقوله فى مستهل قصيدته : " عام مضى " :

عـــام مضـــى يـــا أمنـــا الغاليـــة ∴ وأنـــتِ عـــن منزلـــنا نائـــيه[٩١]

وقوله فى مستهل قصيدته : " مرحباً بالندى.." وقد عبر فيه بكلمات دالة، ومفردات موحية بذلك المقام – الذى يفيض بالمشاعر الحانية، ويمتلئ بالأحاسيس الدافئة .. إنها مشاعر جدٍّ نحو أحفاده وحفيداته.. حيث تغمره مشاعر الفرحة والهناءة ، وتهزه أحاسيس السرور والسعادة إزاء أولئك الأحباب:

مرحبـــاً بالنـــدى وأهـــلا وســـهلا ∴ أخصـــب الـــروض بعـــد أن كـــان محـــلا

هـــذه البســـمة التـــى أســـرتنى ∴ كيـف هـزت مشـاعري وهـي خجلـى؟![٩٢]

ومما يميز مطالع الشاعر ، ويُعد مظهراً من مظاهر عنايته بها حرصه الشديد على التصريع والتقفية ، وولعه الكبير بتزيين الكثرة الهائلة من ابتداءاته – خلال شعره فى المرأة – بتلك النغمة الموسيقية الرائقة .. مما يُعطى لها جرساً أخاذاً تطرب لـه الأذن ، وتستريح لوقعه النفس .. إلى جانب دلالته المطلع المصرع والمقفى على القافية من أول نظرة .. حيث يُدرك المُتلقى قافية القصيدة عند بداية قراءتها ... ولا يخفى على القارئ الكريم ما تتسم به مطالع الشاعر – خلال الأنماذج المذكورة من كونها مُزينة بالتصريع والتقفية هنا .

ثانياً : حسن التخلص : وقد سماه ابن رشيق ت ٤٦٣هـ "حُسن الخروج" ، ويقصد به عنده : " أن يخرج الشاعر من نسيب أو غيره بلطف تحيل، ثم يتمادى الشاعر فيما خرج إليه"[٩٣].

---

(٨٩) ديوان : هي أمي – صـ ١٢ .
(٩٠) ديوان : إلى حواء – صـ ٩.
(٩١) ديوان : هي أمي – صـ ٢٥ .
(٩٢) ديوان : إلى حواء – صـ ١٣٨ .
(٩٣) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق ٢٣٤/١ بتصرف ويسير .

ولا يخفى ما لحُسن التخلص من أثر بارز ، ودور فاعل فى القصيدة .. فهو يكسبها – مع حسن الافتتاح ، وحسن الاختتام – صفات القوة والجودة والبراءة والبراعة والإثارة ، فكما أن حُسن الافتتاح – كما ذكر ابن رشيق – هو داعية الانشراح ، ومطية النجاح ، فإن لطافة الخروج إلى (الممدوح) – وكما ذكر ابن رشيق أيضاً هو سبب ارتياح الممدوح .

كما فى قول شاعرنا فى مستهل قصيدته :" ينابيع الحنان" حيث يجتهد –قدره– فى تعداد أفضال أمه عليه – تلك التى لا حدّ لنهايتها ، ولا غاية لوصفها من كثرتها وتنوعها ؛ ولذا فهو – أي الشاعر يهيب – من خلال ذلك الاستهلال – بكلماته وقوافيه أن ترفق به ، وتسعفه ولا تعزب عن فكره ، ولا تشرد عن وجدانه ، وأن ترفق بفؤاده ، ولا تغيب عن ذاكرته ، وأن تفسح له الخيال فى التأنق والابداع علَّه يستطيع أن يعبر عن تلك الأحاسيس والمشاعر الفياضة المتدفقة التى يقف فيها موقف المحب الوفي ، والتى تنثال عليه انثيالا ، وتنهمر انهمارا ، وتتسارع على وجدانه ، وتتزاحم على مخيلته .. أيُّها يعبر عنه أولاً ؟ .. هذه المعانى والمضامين هي ما دلت عليه ، ونطقت به أبيات الشاعر التالية فى مستهل قصيدته سالفة الذكر :

لا تشـــــردى يـــــا قافيـــــه ∴ وترفقـــــــــى بفـــــــــؤاديه
لا تشـــــردى ودعـــــى الخيـــــا ∴ ل ورددى ألحـــــــــــــانيه
لا تشـــــردى علِّـــــي أعبّـــــ ∴ ر عـــــن مشـــــاعر خافيـــــه
وترجلـــــى عـــــن صـــــهوة ال ∴ أحـــــلام يـــــا أشـــــواقيه [٩٤]

فهذه الأبيات – وما تضمنته من معان بليغة ، ومضامين دالة تُوحى وتشى بجو التجربة هنا ، وتجسد طبيعتها ، وتتوافق مع عنوانها : "ينابيع الحنان" .. فالشاعر هنا بإزاء التعبير عن مشاعرفياضة متدفقة ، وأحاسيس ثرة غزيرة مُتلاحقة يستمر تجددها ، ولا يكاد ينقطع تدفقها ، ولم لا ؟ ، وهي فى أعماق مُبدع إزاء أمه الحبيبة الغالية النادرة المثال بالنسبة له .. ويلحظ أن الشاعر قد انتقل بعد هذا المطلع وثيق الصلة بالتجربة هنا – إلى ما بعده من أفكار وموضوعات

(٩٤) ديوان : إلى حواء – صـ ٢٥ .

القصيدة بعد ذلك – تلك التى تدور حول إبراز فضل أمه ، وتعداد مظاهر ذلك الفضل عليه .. انتقل شاعرنا من هذا المطلع الدال الموحى إلى ما بعده من أفكار وموضوعات فى يُسر وسماحة ، وسهولة ، وطواعية لا يشعر المتلقى إزاء ذلك الانتقال بأدنى انقطاع ، ولا أقل انفصام .. ، حيث يقول فى سياق متصل بالتجربة ، منسجم مع مضمونها العام هنا:

إنى استقيت من الأمو ∴ مة كل ذكرى ساميه

ورشفت من كأس الوفا ∴ ء فمن تكون الساقيه؟

أمى سقتنى عطفها ∴ نفسي أجلّ صفاتيه[٩٥]

والناظر فى قصائد الشاعر التى أبدعها فى المرأة يجده يكاد يشرع فيها جميعاً – فى موضوعه الرئيس ، ويدلف إلى غرضه الأساس من أول بيت فى القصيدة دون أن يمهد لذلك ، ويقدّم عليه بشئ من المقدمات التقليدية من طللية وخمرية وغزلية .. منتقلاً من المطلع إلى ما بعده فى يسر و سماحة ، وسهولة وطواعية .. على نحو ما بدا لنا خلال المواضع المذكورة من مطالعه فى شعر المرأة .. بحيث تبدو القصيدة عنده نسيجاً واحداً تتشابك خيوطه فتقوم من ثم بين أبيات القصيدة جميعاً لحُمة أكيدة ، وصلة شديدة ، وتبدو كذلك بنياناً مرصوصاً تتراص لبناته باستثناء القليل النادر جداً من قصائد الشاعر فى المرأة الذى قدَّم عليه بمقدمات هي من صميم التجربة ، وأحد خيوط نسيجها .

ثالثاً : ختام القصيدة : لا يقل ختام القصيدة فى الأثر والأهمية – بحال – عن مفتتحها حيث لا يخفى ما للختام الجيد المنسجم مع المطلع من أثرٍ بارزٍ فى أداء المعنى ، ودور كبير فى إجادته .. يقول أبو هلال العسكري ت ٣٩٥هـ : "والابتداء أول ما يقع فى السمع من كلامك ، والمقطع آخر ما يبقى فى النفس ، فينبغى أن يكونا جميعاً مونقين[٩٦] .. ويقول : " ينبغى أن يكون آخر بيت فى قصيدتك أجود بيت فيها وأدخل فى المعنى " [٩٧] .

(٩٥) ديوان : إلى حواء – صـ ٢٥ .
(٩٦) الصناعتين – صـ ٤٥٥ .
(٩٧) المصدر السابق – صـ ٤٦٤ .

وينوه ابن رشيق القيرواني ت ٤٥٦ – هو الآخر بأهمية الختام ، ويشيد بأثره فى القصيدة ، مبيناً ما يجب أن يتسم به ، ويتحقق فيه ، حتى يكون جيداً مؤثراً فيقول : "وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى فى الأسماع ، وسبيله أن يكون محكماً لا يمكن الزيادة عليه ، ولا يأتى بعده أحسن منه [٩٨] .

والحال فى خواتيم الشاعر – خلال شعره فى المرأة – هو ذاته فى افتتاحاته ، حيث أجاد فى خواتيمه ، وعُني بتحسينها – مثلما أجاد وأحسن فى مطالعه .. فجاء من ثم ختام قصائده فى المرأة فى أكثر الأحيان ملائما لمضونها الأساس ، مناسباً لغرضها الرئيس ، مؤكداً لذلك ، بحيث يتم به المعنى .. ويكتمل المضمون ، ويجد فيه المتلقى بغيته ، ويشفى به غلته فلا يطلب شيئاً بعده.

ومما يتحقق فيه ذلك بين خواتيم الشاعر الجيدة الكثيرة –خلال شعره فى المرأة قوله فى مختتم تجربة له من وحي الغربة يصور من خلالها ما ينتابه من مشاعر الُحب والحنين إزاء والدته البعيدة عنه .. والتى خفّف عنه صوتها الذى سمعه عبر الهاتف بعض ما يلاقى ويقاسى من ألم الغربة ، وعذاب البعاد ... وفى هذا المختتم يشير إلى ذلك ضارعاً متوجهاً إلى الله سبحانه بالدعاء ، راجياً منه – جلّ وعزّ – أن يخفف عنه فيما يُلاقى ويقاسى من الآلام والشدائد ، وأن يجمع شمله بأمه وإخوته ، وأن يخرجه من تلك الهموم والأحزان :

صوت أمى –لاشك– لكن عينى ∴ لا تراها ، ولا ترى إخوانى
ربِّ عوناً ،فلى فؤاد رقيق ∴ يتناسى الآلام بالألحان
فاجمع الشمل يا إلهى وهب لى ∴ مخرجاً طيباً من الأحزان[٩٩]

وهكذا يأتى هذا الختام مُلائما لموضوع التجربة الأصلي هنا ، مؤكداً لمضمونها ، متمماً ومكملاً له .. بحيث يقنع المُتلقى به ، ويُحسن السكوت عنده .

ومما يتحقق فيه صفات القوة ..والجودة والبراعة والإثارة بين نهايات الشاعر – خلال تجاربه فى المرأة أيضاً قوله يختتم إحدى بكائياته القوية الصادقة المؤثرة فى أمه ، حيث يتفجع جزناً وكمداً إزاء فراقها ، مستعظماً المصيبة فى فقدها .. وفى ذلك المختتم ذاته يسرى عن نفسه ، ويواسيها ، ويخفف عنها ويُعزيها فيما انتابها

(٩٨) العمدة – صـ ٢٣٩/١ .
(٩٩) ديوان : إلى حواء – صـ ٤٠ .

من حزن جارف ، وشوق عارم إزاء والدته ، محتسباً فراقها عند ربه –سبحانه – موطناً نفسه على ذلك المصاب الجلل – من خلال تذكيرها بما ينتظر الناس جميعاً من ذلك المصير المحتوم "الموت" الذى هو نهاية كل حي ، وبالرغم من غيابها وتواريها عن أنظاره فهي كالشمس فى علو قدرها ، وعظم نفعها ، وتجدد نورها ، فهي ماثلة فى وجدانه لا تغيب عنه قط:

ودعتنـــا أمـــــى ، فللـــه حـــــزن ∴ جـــارف فـــى الفـــؤاد لـــولا احتســـابي !

إنـــــها ســـــــــنة الحيـــــاة وإلا ∴ لم أدعهـــا وحيـــدة فـــى التـــــراب

إنهـــا الشـــمس لم يـــزل فـــى ضـــلوعى ∴ نورهـــا ســـاطعاً بـــرغم الغيـــاب[١٠٠]

وما أجمل تشبيه الشاعر أمه – عبر ذلك الختام – بالشمس ، فهي – أي الشمس – عالية القدر ، رفيعة الشأن ، جمة الفوائد ، عظيمة المنافع ، قديمة قِدَم الحياة ، متجددة بتجددها ، وكذلك أمه بالنسبة له .

ومثل هذا المختتم الدَّال المعبر الموحى بجو التجربة .. نلتقى به فى واحدة من مراثى الشاعر القوية الصادقة الحارة المؤثرة فى أمه .. حيث يقول فيه – وبعد أن أفاض فى تصوير ما ينتابه من مشاعر الحزن والحسرة والألم والحنين إزاء فراق والدته .. مُبدياً تفجعه ، وتوجعه إزاء ذلك الفراق ، مستعظماً المصيبة فى فقدها .. معدداً لما لها عليه من أياد سابغة ، وأفضال عديدة

هاهو ذا شاعرنا يسرى عن نفسه ، ويعزيها ، ويخفف عنها ، ويواسيها بتلك الحقيقة الدامغة ، وهي أن الحياة الدنيا معجونة بالفناء ، وأن الموت هو نهاية كل حي .. فإن كانت والدته الحبيبة قد غابت عنه فى هذه الحياة الفانية ، فإن له من رجائه ، وأمله فى أن يلتقى بها فى مقعد صدق عند رب العباد له من ذلك خير السلوى ، وأجمل العزاء:

إن تكـــن غابـــت الحبيبـــة عنـــا ∴ فـــى حيـــاة معجـــونة بالفنـــاء

فلنـــا مـــن رجائنـــا فـــى التلاقـــى ∴ عنـــد رب العبـــاد خـــير عـــزاء[١٠١]

(١٠٠) ديوان : هي أمي – صـ ٢٤ .
(١٠١) المصدر السابق – صـ ٢٠ .

وهكذا تتوافر فى ذلك الختام – والذى قبله – صفات القوة والجودة، والطرافة والبراعة والإيحاء والإثارة .. حيث يأتى ممتزجاً ومرتبطاً بما قبله من أفكار ومضامين عالجها الشاعر – خلال قصيدته .. كما يأتى مؤكداً لتلك الأفكار والمضامين ، ومجملاً لتفضيل عالجه الشاعر طيلة قصيدته .. وهو – أي ذلك الختام – والذى قبله – يتضمن معاني مؤسية ، ومضامين باكية تلائم جو التجربة الباكى الحزين ، وتناسب مقامها الآسى المؤثر هنا .. حتى إذا طالعه المتلقى رضى به ختاماً ، مُستريحاً إلى أنه لم يعُد فى حاجة إلى إضافة ، ولا زيادة عليه ، بعد أن شفى غُلَّته ، وأشبع نهمه.

وأختتم تلك الأنماذج من نهايات الشاعر – خلال شعره فى المرأة بما جاء فى قصيدته : ينابيع الحنان – تلك التى يعدد فيها أيادى أمه السابغة ، وأفضالها غير المتناهية عليه .. حيث تتزاحم الأفكار ، وتتصارع المشاعر فى ذلك المقام المؤثر الذى يقوم على الحب والوفاء ، وإسداء بعض الفضل لذوى الفضل من ابن وفي بار نحو أمه النادرة المثال فى حياته .. ها هو ذا شاعرنا يختتم قصيدته تلك باختتام دالٍ بليغ أجمل فيه ما فصل من قول – خلال قصيدته كلها ، وأوجز ، وأكد فحمل المتلقى على أن يقنع ، ويرضى به ختاما .. يقول موجهاً بالكلام لأمه :

لـــو ينطـــق الحـــب الرفيـــ ∴ ع لقـــال أنـــت الراعـــيه

تفنـــى الحيـــاة ونبضـــة القلـــ ∴ ـــب الحنـــون البـــاقيه[١٠٢]

فما أبلغه هنا من ختامٍ لتلك التجربة الإنسانية الصادقة المؤثرة ! يظل لاصقاً بالنفس ، عالقاً بالوجدان حتى نهاية التجربة .

---

(١٠٢) ديوان : إلى حواء – صـ ٢٨ .

وهكذا تتسم – نهايات الشاعر –خلال شعره فى المرأة– بكونها فى الكثير الغالب منها معبرة موحية مؤكدة لمضمون التجربة ، دالة على جوها ، مجملة لموضوعها ، كافية شافية ، يقنع المتلقى بها ، ولا يبغى زيادة ولا إضافة عليها.

المبحث الثانى : معجم الشاعر ـ خلال شعره فى المرأة :

اللفظة هي: القالب الذى يصب فيه الأديب معانيه وخواطره ، وهي الوعاء الذى يودع فيه ، ويُجسّد أحاسيسه ومشاعره ، وتراكيبه وصوره ، وموسيقاه وأنغامه ، حيث تُعَدُّ " الأداة الأولى للشاعر ، وللأديب عموماً ـ أو لنقل إنها المادة الأولى التى يشكل منها ، وبها بناءه الشعري بكل وسائل التشكيل الشعري ـ المعروفة ، أي أنها الأداة الأم التى تخرج كل الأدوات الشعرية الأخرى من تحت عباءتها ، وتمارس دورها فى إطارها "(١٠٣) .

واللفظة هي وسيلتنا الوحيدة إلى إدراك القيم الشعورية فى العمل الأدبى، وهي الأداة الوحيدة المهيأة للأديب لينقل إلينا خلالها تجاربه الشعورية، وهي لا تؤدى المهمتين إلا حين يقع التطابق بينهما ، وبين الحالة الشعورية التى تصورها ، وعند إذن فقط يستنفذ على قدر الإمكان تلك الطاقة الشعورية ، ويوجهها إلى نفوس الآخرين"(١٠٤) .

ونظراً للأهمية الشديدة للكلمة فى بناء وتشكيل مقومات ومكونات النص الأدبي ، وانطلاقا من مسؤليتها عن إيصال ما يحس به الشاعر ، وينفعل ويمر به من مواقف وتجارب للمتلقين يجدر بالأديب : " أن يختار من الكلمات أدقها فى أداء المعنى الذى يجول فى نفسه .. فقد تتقارب الكلمات من حيث المعنى ، ولكن بعضها أدل على إحساس الشاعر من بعض ، والشاعر الموفق هو الذى يهتدى إلى الكلمة التى تكون شديدة الإبانة عما يريد "(١٠٥) .

حيث : " تكمن مهارة الشاعر فى استعماله اللفظة فى الشعر استعمالاً شعرياً دقيقاً يدل على مهارةوفن ، فعلى الشاعر أن يستخدم ألفاظاً موحية ، لأن الكلمة الموحية أهم عناصر الصياغة الشعرية .. "(١٠٦) .

وبتأمل معجم الشاعر ـ خلال تجاربه فى المرأة يبدو بجلاء ماتتسم به ألفاظه ومفرداته من الوضوح الشديد ، والبساطة المفرطة ، والرقة والحلاوة والعذوبة

---

(١٠٣) عن بناء القصيدة العربية الحديثة : د/ على عشرى زايد – صـ ٤٥ ـ الناشر – مكتبة الشباب ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

(١٠٤) النقد الأدبى الحديث ـ أصوله ومناهجه: سيد قطب صـ ٧٠ طـ دار الشروق ـ القاهرة ـ الطبعة الخامسة ١٩٨٣م .

(١٠٥) أسس النقد الأدبى عن العرب : د/ أحمد احمد بدوى ـ صـ ٤٢٥ .

(١٠٦) النقد الأدبى فى مذاهبه وقضاياه : د/ عبد الفتاح على عفيفى صـ ٩٤ – ط١٩٨٧م .

، والسلاسة والانسيابية ، ولاسيما شعره فى المرأة "المحبوبة" .. كما يبدو خلو معجمه الشعري فى المرأة من الألفاظ الغريبة ، والمفردات الوعرة ، والكلمات الحوشية التى تحتاج فى فهم معناها إلى الغوص ، والتنقيب عنها فى معاجم اللغة ..

ويبدو أيضاً خلو معجم الشاعر ـ خلال تجاربه فى المرأة ـ تقريباً من الألفاظ الشعبية ، والمفردات العامية .. حيث حافظ شاعرنا على فصاحة مفرداته ، وسلامة تراكيبه .. فجاءت لغته فصيحة سليمة جارية على أساليب العرب ، موافقة لطرائقها فى التعبير .. ويبدو كذلك لمن يطالع معجم الشاعر ـ خلال تجاربه فى المرأة ما يتحقق فى ألفاظه ومفرداته من سمات الدقة ، والإيحائية ، والأُلفة ، والسهولة ، والطرافة ، والشاعرية ، مما يستبجيد تحققه النقاد .. حيث يلحظ المتلقى لشعره ـ فى المرأة ذلك التآلف والانسجام ، والتوافق بين ألفاظه وبين ما ترد فيه من تجارب وتدل عليه من معان .. حيث يتوفر لدى الشاعر قدرة فائقة على اختيار ألفاظه ، وانتقاء مفرداته التى تنبئ عن حالته النفسية والشعورية بعد أن توفر لديه امتلاكه لناصية البيان ، وتمرسه بألفاظ اللغة ، وأساليبها الثرية المتنوعة ، وتحقق فيه : "ما يجب على الشاعر أن يتسلح به من رصيد هائل من الألفاظ اللغوية حتى يتسنى له الانتقاء والاختيار والتفضيل بين الكلمات ذوات الإيحاءات المتسقة مع تجربته"(١٠٧).

ويطيب لى فى هذا الشأن أن أورد طرفاً من تجارب الشاعر ـ خلال شعره فى المرأة نتعرف من ـ خلالها ـ على سمات معجمه الشعري ، ونقف على ملامحه وقسماته .

حيث نلتقى فى ذلك الصدد بتلك التجربة الرقيقة الصادقة المؤثرة التى يبث الشاعر ، ويسكب ـ من خلالها ـ أحزانه وشجونه ، ويزرف آهاته ودموعه إزاء رحيل أمه الحبيبة الغالية ، مستعظماً المصيبة فى فقدها ، وممعناً فى إبداء الحسرة والتفجع إزاء ذهابها .. ها هو ذا شاعرنا يجسد تلك الأحاسيس والمشاعر الرقيقة الآسية ، ويعبر عنها بكلمات تسيل رقة ، وتتناهى دقة ، وتفيض إيحاءً ونفاذاً وتأثيراً فى نفوس وأعماق المتلقين ، وتؤكد فى الوقت ذاته قوة وصدق إحساس

---

(١٠٧) ينظر : التجربة الشعرية عند المتلقى: ، د/ عبد اللاه محمود حسن ــ صـ ٧٢ ــ مطبعة الأمانة ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٨٩ .

الشاعر بفقد أمه .. وشدة وقع ذلك الفقد على نفسه ، وبالغ أثره فى حياته .. يقول :

يا دفق القلم الباكى
سطر بمداد دموعى
حسرة قلبى الشاكى
أغرق صفحاتى بدموعك
لا تخشى جفافاً
فدموعى أنهار تجرى
أنهار ساخنة تجرى
أنهار تتدفق من قلبى
.....
رحلت يا قلمي أُمِّى
يرحمها الله تعالى !
ما عادت تمسح بأنامل كف أمومتها همِّي
ما عادت تغسل بالنظرات الحانية جراحى
تُذهب غمِّى
ما عادت تمنحنى فرصة تقبيل جبين العطف
صباح مساء
ما عادت تمنحنى فرصة تقبيل يديها
تقبيل الشرفاء(١٠٨)

وتفيض تلك السطور الشعرية . كما نرى بالألفاظ الرقيقة . الدالة المتناهية فى الرقة والدقة ، والتى من شأنها أن تمس شغاف النفس ، وتعزف على أوتار القلب ، وتصل إلى الوجدان ، وتنفذ إلى الأعماق ، مؤكدة رفعة قدر وعلو شأن أمه ، وعظم فضلها عليه من مثل : دفق القلم الباكى . دموعى . حسرة قلبى الشاكى . دموعى أنهار تجرى . أنهار ساخنة تجرى . أنهار تتدفق من قلبى . تمسح بأنامل كف أمومتها همِّي . تغسل بالنظرات الحانية جراحى .. وهكذا تجمع تلك

(١٠٨) ديوان : هي أمى صـــ ١٣ ، ١٤ .

الألفاظ بين الرقة والدقة ، والسلاسة والإيحاء ، حيث تجسد ذلك الموقف الرهيب المؤثر الذى يفقه الشاعر هنا إزاء أمه الراحلة أيما تجسيد !! .

وتفيض تجارب الشاعر فى المرأة فى . معظمها . بمثل تلك الألفاظ الرقيقة ، والكلمات الدالة ، المتناهية فى الرقة والإيحائية .. تناسباً فى ذلك مع ماترد فيه من تجارب .. جد رقيقة .. فها هو ذا . وعبر إحدى تجاربه الرقيقة التى يؤكد فيها ما للحب من فائدة عظيمة ، وقيمة كبيرة ، ونفع عميم فى هذه الحياة .. وذلك إذا ما قام على السمو والصدق ، وتحلى بالعفاف والطهر .. حيث يغدو للمحب حيئذ طوق النجاة من المخاطر والآلام ، ويمثل له الراحة والإيناس ، والمأوى والملاذ ، والأمن والأمان .. حيث يقول :

فالحب فى رحلتنا مركب ∴ من سطوة الآلام ينجينا

وفى هجير الصيف ظل لنا ∴ من قسوة الصحراء يحمينا

الحب ياروضتنا منزل ∴ من نزوات الريح يؤوينا[١٠٩]

وتفيض تلك الأبيات . كما نرى . بالألفاظ الدالة ، والمفردات المعبرة، والكلمات الرقيقة من مثل : الحب مركب . سطوة الآلام . ينجينا ، هجير الصيف . ظل . قسوة الصحراء . يحمينا . نزوات الريح . يؤوينا .. حيث تُجسد تلك الكلمات الدالة المعبرة مدى أهمية الحب الصادق السامى فى حياة المحب ، وتؤكد عظم نفعه ، وبالغ فائدته .. فهو أي الحب . طوق النجاة المُخلص من الآلام ، والمُنجى من المخاطر التى تحدق بالإنسان فى هذه الحياة ، وهو الظل الظليل له فى هجير الصيف ، وهو الملاذ والمأوى من قسوة الليالى والأيام ، وفتك الظروف والأحداث ، وهو البيت والسكن إذا ماعصفت الريح .. وذهبت فى كل مذهب .

وقبل تلك الأبيات التى ينوه فيها شاعرنا بعظم فائدة الحب ، وبالغ نفعه فى هذه الحياة رأيناه يجسد الداء الذى يكمن فى الحب فيذهب بقيمته ، ويأتى على فائدته ، إنه حين يتنكب المحب الطريق القويم ، فيهوى بالحب فى مهاوى الانحراف والسقوط ، ويسفل به نحو درك الرذيلة والمجون .. يقول الشاعر وقد عبر عن ذلك المضمون وجسده فى كلمات تتسم بالإيجاز الشديد ، والدقة والإيحائية ، موجهاً بها نحو محبوبته :

---

(١٠٩) ديوان : إلى حواء ــ صـ ١٧ .

الـــداء ـ لـــو تـــدرين فـــى عـــالم ∴ طوفانـــــه قـــــد لفـــــظ الـــــدِّينا[١١٠]

فما أبلغ كلمتي " طوفانه " و" لَفَظ " .. فى الدلالة على المضمون هنا .. حيث تتوفر فى تلك الكلمتين ما ارتضاه النقاد للكلمة البليغة من صفات الدقة والإيحائية .. فكلمة :" طوفانه " ـ أي الحب ـ تجسد ما يقوم عليه الحب حينئذ بعد أن ينتكب المحب الطريق القويم من تخبط واضطراب ، وما يؤدى إليه من غرق وهلاك .. شأنه شأن الطوفان .. بجانب كلمة " لفظ " وما تدل عليه بوقعها الشديد – من رفض أكيد لمنهج الدين الحنيف من قبل هؤلاء المحبون ، وتنكبهم لطريقه المستقيم ، بل وبغضهم لروحه ، وكرهه لهديه الراشد الحكيم ، فيدب إليه من ثم الدّاء .. ويحتاجون إلى الدواء ..

ونلتقى بالفعل :" أقمت " الذى جاء على لسان الشاعر ـ يؤكد من خلاله تمكن الطهر والعفاف ، وتأكد الفضيلة والوقار فى حبه ، واستيلائه على ذلك .. فما أبلغ تعبير الشاعر بكلمة : " أقمت" فى الدلالة على تمكنه من الطهر والفضيلة فى حُبه!! ، وأنه أى الشاعر يقف فى ذلك على أرض صلبة ، ومكان ثابت لايتحرك ، ولا يتزعزع أبداً ، وكونه لا يبغى عن الصدق والسُّمو فى حبه حولا ..يقول الشاعر :

أقمـــت علـــى أرض العفـــاف محبتـــى ∴ فمـــا أبتغـــى غـــدراًوما أرتضـــى نكـــرا[١١١]

ومن المواضع التى يتحقق فيها دقة الألفاظ ، وإيحائية المفردات ، ودلالتها على مضمون التجربة الواردة للتعبير عنها ، وانسجامها مع السياق الذى ترد فيه .. خلال تجارب الشاعر فى المرأة ما جاء فى قول الشاعر ـ وقد بدا فى صورة الناصح الأمين، الصادق فى نصحه وتوجيهه إزاء تلك المرأة " أخته فى الإسلام " ، محذراً إياها أن تكون مثل تلك الحمقاء التى انخدعت بطلاء المدنية الزائف ، وتنكبت طريق الحرية المزعومة ، فأغرتها الملذات المُهينة ، واستبد بها هواها الجامح ، وانساقت وراء أوهامها، فضلت من ثم طريق الحرية التى كانت تنشده ، وتتوهم تحققه من وراء ذلك التحرر والانطلاق إلى حيث الحيرة والتخبط ، والقيد والاضطراب .. وراحت تعانى الحزن ، وتقاسى العذاب :

أختـــــى ، وكـــــم حمقـــــاء أغـــــ ∴ رتهـــــــا الملـــــــذات المهينـــــــه

---

(١١٠) المصدر السابق – والموضع نفسه. –
(١١١) ديوان : إلى حواء ــ صـــ ٨٠ .

فغـــــدت – وكانـــــت حـــــرة ∴ لقيـــــود لـــــذتها رهينـــــه

تهفـــــو إلى حريـــــــــة ∴ فتصـــــير تائهـــــة ســـــجينه

وتسوقـــــــــها أوهامـــــــــها ∴ فهـــــي المعـــــذبة الحـــــزينه[١١٢]

وتـذيع فـى تلـك الأبيـات الألفـاظ الدالـة ، والمفـردات المعبـرة ، والكلمـات الموحية التى من شأنها أن تجسد المضمون ، وتؤكده وتبرزه هنا من مثل كلمة: " حمقاء " التى وصف بها الشاعر تلك المرأة المخدوعة بزيف المدنية ، وبريق التحضر المزعوم ، والتى هوت فى مزالق الفساد ، وتردت فى دركات السقوط .. وتأتى قبلها كلمة: " كم " – تلك التى تفيد التكثير . لتؤكد كثرة النساء المخدوعات .. وأيضاً كلمات : أغرتها ، الملذات المهينة ، رهينة ، تائهة ، سجينة . أوهامها . المعذبة . الحزينة .. كلها كلمات تجسد حال وطبيعة تلك المرأة " الفريسة التى وقعت فى شباك المدنية الزائف ، وفخ التحضر المزعوم .. فهي تعانى الذل والهوان ، والضيق والقيد ، والوهم والحزن، والتيه والحيرة ، والتخبط والاضطراب .. بجانب تعبيره بكلمة: " تهفو "– بشأن تلك المرأة الحمقاء المخدوعة ، وما تنبئ عن مكنون نفسها ، وخبيئة صدرها ، وأنها إذ تفعل ذلك فإنها تشتاق وتتلهف إلى الحرية .. المزعومة ظانة فيها الخير والسعادة .. ولكن أنَّى وهيهات؟! وأيضاً تعبيره بكلمتي : " تسوقها أوهامها" ، وما يؤكدانه ويدلان عليه من تبعية تلك المرأة وانقيادها ، واستسلامها لتلك الأوهام والأزياف ، وجريها وراءها بلا وعي .. حيث تجرُّها إلى نقيض ما تأمله ، وغير ما ترجوه من السعادة فتصير تائهة سجينة .. فهي المعذبة الحزينة .. بجانب ما تؤكده كلمة : " أختى" ، وتدل عليه من شدة حدب الشاعر ، وحرصه على ما فيه الخير والرشاد للمرأة المسلمة ، وصدقه فى نصحه ، وإخلاصه فى توجيهه .

والحال ذاته متحقق فى الكثير الغالب من تجارب الشاعر فى المرأة .. حيث تفيض تجاربه بالألفاظ الدالة ، والمفردات المعبرة ، والكلمات الموحية ، باستثناء بعض الألفاظ والمفردات التى أخفق الشاعر فى استعمالها ففقدت بذلك صفات الدقة والإيحائية، وبدت غير ملائمة لما ترد فيه من معنى ، ولا منسجمة مع ماتجسده من مضمون ، من مثل قوله يصور وقع حياته ، بعد رحيل أمه وذهابها عنها ،

---

(١١٢) المصدر السابق ــ صـــ ٩٢ ، ٩٣ .

مؤكدا كيف خلف فقدها لديه فراغا كبيراً ، وحرماناً بالغاً ، ووحشة عارمة ، وشوقاً جارفا:

عـــام مضـــى لم نرتشـــف رشـــفة ∴ واحـــــدة مـــــن روحـــــك الغاليـــــةْ

عـــام مضـــى والقـــبر مســـــتأمن ∴ والبيـــت فـــى وحشـــته الثاويـــه[١١٣]

حيث تبدو كلمة "مستأمن" تلك التى وصف بها القبر فى البيت الثانى قلقه فى غير موضعها تفتقد الدقة .. وتعوز إلى الإيحائية ، وأولى للشاعر أن يعبر بدلاً منها بكلمة : "مستأنس" ، حيث تقابل فى مضمونها كلمة: "وحشته" .. وهذا أقرب وأبلغ فى التعبير عن المضمون المراد هنا .. فإذا كان القبر الذى ثوت فيه أم شاعرنا العزيزة الغالية قد استأنس برقدتها فيه ، واستألف بثوائها فى رحابه ، فإن البيت الذى كانت تسكنه فى الدنيا مع بنيها . قد استوحش ببعدها ، واستقفر بغيابها .

ونلتقى فى تجربة أخرى – بين تجارب الشاعر فى المرأة بكلمة تبدو غير دالة ولا موحية ولا مُشعة ولا شاعرية .. حيث يقول مُحدثا بفضل أمه عليه ، وعلى إخوته ؛ فقد نذرت نفسها فى تربيتهم ، وبذلت روحها فى رعايتهم ، ومرفرفة عليهم أجنحة حبها ، وحنانها وودها وحدبها :

كنـــا صـــغاراً حـــين فارقنـــا أبـــى ∴ فمضـت تقـدم روحهـا وكيانهـا وشـبابها

نشـــرت لنـــا ظـــل الأمومـــة وارفـــاً ∴ وإلى المشـــــــاعر طـــيرت أســـرابها[١١٤]

حيث نلتقى عبر البيت الأول بكلمة : " تُقدِّم " تلك التى تبدو غير دالة ولا معبرة عن المضمون ، ولا وافية بهذا الموقف العظيم ، ولا محلقة ولا مشعة فى أجوائه الفسيحة .. وأولى للشاعر أن يعبر بدلا منها بكلمة :" تُرخِّص" ، حيث تفى تلك الكلمة بحق وفضل أم الشاعر ، وتجسد قدرها وشأنها ، وتؤكد محورية دورها ، وجوهرية أثرها فى بناء وتشكيل كيان بنيها بعد أن قامت معهم بدور الأب والأم معا ، وراحت تتفانى فى رعايتهم وتربيتهم ، مرخصة فى ذلك شبابها ، وباذلة عمرها وروحها.

(١١٣) ديوان هي أمى ــ صـــ ٢٥ .
(١١٤) ديوان هي أمى ــ صـــ ٣٥ .

ولنا أن نطالع تلك الأبيات التى يُعزِّى فيها الشاعر نفسه .. ويحملها على الصبر ، ويدعوها إلى الرضا إزاء فقد أمه ، مستمطرا لها الرحمة والرضوان ،حيث يقول :

أمـــاه هـــذا جهـــد قلبـــى الـــذى ∴ يســـــتمطر الرحمـــــة والعـــــافيه
آمنـــــت بـــــالله الـــــذى عنـــــده ∴ " أســـتثمر " الصـــبر علـــى حاليـــه
لـــــولا يقـــين عـــز قلبـــى بـــه ∴ فـــاز الأســـى بالضـــربة القاضـــيه[١١٥]

حيث نلتقى خلال تلك الأبيات بكلمة :"أستثمر" تلك التى تفتقد صفة الشاعرية ، فهى بعيدة عن روح الشعر وروائه ، ونضرته وبهائه ، وهى إلى العقل والمنطق أقرب منهما إلى الشعور والقلب .. وأولى للشاعر لو عبر بكلمة: "أستودع" ، فهي: أقرب إلى روح الشعر وروائه ، ونضرته وبهائه .. ومهما يكن من أمر فإن تلك الكلمة التى بدت غير شاعرية هنا هي من لغة الشعر المعاصر – تلك التى يختلف عن لغة الشعر التراثي ؛ نظرا لاختلاف العصر ، وتغير مقاييسه .. فالقصيدة المعاصرة تضجُّ بعالم من المفردات والتراكيب المشحونة بالتوتر والقلق ، فنجد بها أصداء من معجم الفلسفة ، ومعجم الاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، وعلم الانسان[١١٦] .. وغير خاف أن تلك الكلمة المعنية هنا تدخل ضمن معجم علم الاقتصاد ، فهي مفرده من مفردات ذلك العلم الحديث.

وقد جاءت ألفاظ الشاعر –فى الكثير الهائل من تجاربه فى المرأة فصيحة جارية على أساليب العرب ، برئت من الركاكة ، وخلت من العامية ، باستثناء مواضع نادرة جدا خرجت فيها ألفاظه عن حد الفصاحة إلى العامية ، ويمكن تصنيفها إلى ألفاظ مستحدثة وليدة العصر الحديث ، وألفاظ أعجمية وافدة إلى لغتنا العربية ، ودخيلة عليها من لغات أجنبية ، من مثل تعبير الشاعر : بكلمة

---

(١١٥) المصدر السابق ــ صـ ٢٩ .

(١١٦) ينظر : مقال بعنوان :"القصيدة المعاصرة بين الرؤية الناضجة ، والأدوات الفنية الجديدة – د/صابر عبد الدايم يونس – مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق – صـ ٤٢ العدد الثامن – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

" بابا " – تلك التى جاءت على لسان طفتله الصغيرة " أسيل " تدعوه بها فتحرك مشاعره .. وتثير أشواقه ، حيث يقول :

يـــا أســـيل التـــى تحـــرك شـــجوى ∴ حـــين تـــدعو" بابـــا " وتجـــرى ورائـــى[١١٧]

وإذا كان هناك من مسوغ للشاعر فى استعماله تلك الكلمة العامية المستحدثة الوافدة إلى لغتنا العربية ، الدخيلة عليها : "بابا " هنا ، فهو فى مجيئها على لسان طفلة صغيرة يناسبها التدلل ، مما يجعل التعبيربها هنا غير مقحم على المضمون ، ولا منفصم عن السياق .

ووجود مثل هذه الالفاظ ، وتلك المفردات القليلة جدا التى أخفق الشاعر فى استعمالها ، ولم يوفق فى التعبير بها عن مضامينه لا يغض من مقدرته الفنية ، ولا ينفى تمكنه من زمام اللغة وتمرسه بأساليبها ، وخبرته بأسرارها ودلالاتها .

(١١٧) ديوان هى أمى ــ صـــ ١٨ .

المبحث الثالث : من خصائص التراكيب فى أساليب الشاعر- خلال شعره فى المرأة :

إن الاسلوب هو الركن الأساس للنص الأدبي ، لا تقوم له قائمة بدونه ، فهو الطريقة التى يعبر المبدع - من خلالها - عما يجيش فى صدره ، ويمس إحساسه وشعوره إزاء ما يمر به من تجارب حياتيه مختلفة تتشكل على إثرها عواطفه ، وتتلون انفعالاته .. والأسلوب هو : "الوجه الذى يطل علينا به الأديب ، فإذا كان الوجه طيبا ومشرقا أثار فى نفس السامع والقارئ النشوى والسرور ؛ لأن الشاعر يمتلك الكثير من الأساليب التى غرسها فى سامعه لفجر بها أنهاراً وأنهاراً ، ويا للكلمة من آثار إذا كانت طيبة ومثيرة !! ، ويالها من إحباط إذا كانت ساقطة !!"[١١٨] .

والأسلوب أيضا هو المرآة التى تنعكس شخصية الشاعر على صفحتها، وتتراءى على وجهها .. ويبدو من خلالها صدقه من زيفه .. فالإخلاص فى تصوير ما فى النفس من فكرة واضحة أو عاطفة صادقة يجعل الأسلوب مقبولا ، ويصبح من ثم مرآة العقل والخلق والمزاج والتخيل ، سواء أكانت تلك الفكرة أو العاطفة جميلة أم قبيحة ، مستقيمة ، أم مضطربة"[١١٩] .

وأسلوب شاعرنا عبد الرحمن العشماوى يعد صدىً وانعكاساً لشخصيته الواضحة الصريحة الملتزمة بروح الإسلام ، النابعة فى حقل الإيمان المثمر ، المنطلقة من خلال تصور الإسلام الراشد الحكيم ، وهديه القويم ؛ بفضل نشأته فى ظل أسرة متدينة ، ووسط محافظ على الأصول والتقاليد .. ولأن شاعرنا كان ممن اتخذ من شعره رسالة صدع بتبليغها إخوانه من بنى وطنه الإسلامي الكبير يبغى لهم - من خلالها - كل خير وصلاح ، ويقوم مابهم من ميل واعوجاج ، فقد حرص كل الحرص على أن تكون أساليبه وتراكيبه واضحة المعنى ، جلية المضمون تنطلق من وحي شخصيته الواضحة ، وتنبع من ذوب قلبه الشفاف ، وتعبر عن مشاعر صادقة أحسها بذاته ، وتجارب واقعية عاناها بنفسه .. ولنستمع إلى الشاعر - وهو يطلعنا

---

(١١٨) محمد السنهوتى شاعراً ــ رسالة ماجستير للدكتور حسن عطية طاحون ــ صـــ ٢١٤ وهى مخطوطة فى مكتبة كلية اللغة العربية بالزقازيق .

(١١٩) الأسلوب : أحمد الشايب – صـــ ١٧٥ .

على ذلك من خلال رده على من اتهمه بالوضوح الشديد والتقريرية والمباشرة والخطابية فى صوغ تجاربه ، وبناء أساليبه وتراكيبه.. حيث يقول :

يقولون فى شعرى وضوح وحكمة ∴ وذلك أسمى ما يقال وأرفع
يقولون فى شعرى رنين خطابة ∴ ولو سمعوا دقات قلبى لأقلعوا
أما علمو أنى أصوغ مشاعرى ∴ وأنى على أوتار قلبى أوقع
وأن فؤادى كنز حب وحسرة ∴ يبيح لشعرى ما يشاء ويمنع
وفى القلب أصل الشوق والحزن والرضا ∴ ومن أصله أغصان شعرى تفرع(١٢٠)

وهكذا نجد الشاعر يعد هذا الاتهام ، وذلك العيب الذى وجه إلى شعره ميزة ،ويراه حسنا ، حيث يؤكد كيف أن وضوح أساليبه ، وجلاء تراكيبه دليل على صدق مشاعره ، ومؤشر إلى قوة انفعاله ،ـ وأنه ـ أي الشاعر ـ إنما يصوغ تجاربه من ذوب نفسه ، ونبع وجدانه ، وأعماق قلبه .. ومن ثم تجد الوضوح والبساطة باديين على أساليبه ، وتراكيبه .. كما تجد التواؤم والتناسب بينها فيما تجسده من مشاعر وأحاسيس ، وبين ماترد فيه من معان ومضامين .

والناظر فى تجارب الشاعر فى المرأة يجده ـ كغيره من المبدعين ـ قد زاوج فى استعمال أساليبه وتراكيبه – خلال تلك التجارب بين الإنشائية والخبرية حيث يؤدى كل نوع منها دوره المنوط به فى خدمة المعنى وأدائه .

أما عن الأساليب الإنشائية ـ التى يستعان بها عادة فى إثارة أذهان المتلقين ، ولفت أنظارهم ، وجذب انتباههم ، واسترعاء أسماعهم لما يطرحه المُبدع من معانٍ ومضامين ، وما يجسده من مشاعر وأحاسيس فتبدو متحققة – خلال تجارب الشاعر فى المرأة ـ فى أساليب: الاستفهام والنداء .. ويلحظ المطالع للمواضع التى يرد فيها أسلوبا الاستفهام والنداء إلحاح الشاعر عليها ، وتأكيده إياها بالإتيان بها مكررة متتابعة على نحوٍ يجسد طبيعة التجربة عنده.

فها هو ذا ـ وعبر تجربته الصادقة المؤثرة ـ تلك التى يقف فيها أمام ذكرى أمه الحبيبة الغالية ، وما يكتنفه من مشاعر وأحاسيس بشأنها يُجسِّد بين

(١٢٠) التيار الإسلامي فى شعر عبدالرحمن العشماوي – سهيلة زين العابدين حماد صـ ٢٢٧ .

يدي قلمه الباكى ، ويراعه الآسى مؤكدا ما يلفه وما ينتابه من مشاعر الحزن والآسى ، والحسرة والدهشة والذهول والألم إزاء فراق والدته العزيزة الغالية.
.. ها هو ذا يجسد لنا تلك المشاعر والأحاسيس –من خلال تلك التساؤلات المتتابعة التى ألحّ فى استعمالها ، وكثف من وجودها .. حيث يقول :

رحلت يا قلمى أمى
هل تعرف معنى رحلت أمى؟!
هل تعلم أنى أنزلت حبيبة قلبي فى الحفرة بيدى؟!
هل تعلم أنى بيدي
قد كورت وسادة طين مبلولة ؟
ورفعت الرأس قليلا
ووضعت وسادة طين لحبيبة قلبى ؟!
هل تعرف أنى قد أحكمت عليها إغلاق القبر ؟!
هل تعرف معنى هذا الأمر ؟![١٢١]

ولا يخفى على القارئ الكريم تلك التساؤلات المتتابعة التى ترد فى كل بيت من تلك الأبيات تقريبا .. حيث ألح الشاعر فى استعمالها ، وكثف من وجودها ، فغطت سماء التجربة ، وحلقت فى فضائها ، مؤدية دورها فى أداء المضمون ، ومحققة أثرها – بما تدل عليه من التعجب والاستغراب والذهول والاندهاش .. حيث يؤكد الشاعر . من خلالها . حبه الشديد لأمه ، وتقديره البالغ لشخصها ، ومن ثم حزنه البالغ وألمه العميق إزاء ذهابها، واستعظامه المصيبة فى فقدها ، وتعجبه من أمر رحيلها ، وكأنه غير مصدق بنبأ ذلك الرحيل .. حيث تسيطر عليه مشاعر الأسى والحسرة والدهشة والحيرة إزاء ذلك الرزء الفادح ، والخطب الجلل الذى حل به ، والذى لا يكاد يتحمله.. ونلحظ استهلال الشاعر لأبياته المؤثرة هذه بالنداء على قلمه: " خله الوفي" ، ونجيه الصفي يسكب بين يديه العبرات ، ويذرف الدمعات إزاء ما يقفه من موقف جد رهيب ..وقد أتى الشاعر بالمنادى –كما نرى– مقرونا بحرف النداء:" يا " – بما يقوم عليه من مد من شأنه أن يعطى للشاعر مساحة كافية للتنفيس عن آهاته الممتدة فى أعماقه ، والتخفيف من أحزانه البالغة العميقة المترسبة فى كيانه .

(١٢١) ديوان : هي أمى – صـــ ١٣ ، ١٤ .

ومثل تلك التساؤلات الواردة فى هذه التجربة المثيرة – بما تدل عليه من معانى التعجب والاستغراب ، والذهول والاندهاش ، وما تجسده من مشاعر الحزن والأسى ، والألم والجوى تلك التى تلف الشاعر ، وتتملكه إزاء فقده أمه الحبيبة .. مثل تلك التساؤلات التى ألح الشاعر فى استعمالها نلتقى بها فى قول الشاعر يوجه بتساؤلاته فى هذه المرة إلى قريته – ذلك الربع العزيز الذى كان يضمه هو ووالدته :

أيـــن أمـــى يـــا قريتـــى لا أراهـــا ∴ حـــين آتـــى تخصـــنى بالخطـــاب ؟!

أيـــن أمـــى يابؤســـه مـــن ســـؤال ∴ أتحاشـــى مـــا بعـــده مـــن جـــواب[١٢٢] ؟!

والتفجع والذهول باديان فى هذه التجربة . والتى قبلها .. والألم عميق ، والحزن بالغ ، والشاعر يكاد يصل إلى حد الهلع والجزع إزاء ما يقفه من موقف جد جلل رهيب .. والكلمات تسعف فى نقل تلك الأحاسيس الأليمة ، والمشاعر الشجية .. ويقوم أسلوب الاستفهام بدوره فى تجسيد تلك الأحاسيس والمشاعر – بما يدل عليه هنا من معانى الاستغراب والتعجب والحيرة بالإضافة إلى القافية المكسورة هنا ؛ تناسباً مع حالة الشاعر الشاجية ، ومشاعره الآسية التى يغلب عليها الُحزن والانكسار .

وإمعانا من الشاعر فى تجسيد أحاسيسه الشجية ، ومشاعره الحزينة . تلك رأيناه يخْلع لى ذلك التساؤل : أين أمى ؟ وصفاً يؤكد – من خلاله – ما يتملكه من قلق واضطراب ، وأسى وضياع إزاء فقد والدته الغالية : يابؤسه من سؤال !! ، لما يخشاه من الإجابة المؤلمة الصادمة عنه : أتحاشى ما بعده من جواب !! وهو : ذهبت أمى .. هذا بجانب حروف المدّ الشائعة فى هذين البيتين والتى تلائم التجربة هنا ، حيث تعطى الشاعر مساحة كافية للتنفيس عن آهاته الممتدة ، وأحزانه العميقة ، حيث يتساءل الشاعر مُلحاً فى تساؤله ، بادياً فى صورة الحائر التائه المضطرب الذى فقد صوابه ، وطاش عقله ، وانخلع قلبه .. أين أمي ؟! ، أين أمي؟! .. بجانب أسلوب النداء ، ومجيء الشاعر بالمنادى مقروناً بحرف النداء " يا " : " يا قريتي " .. وشاعرنا إذ يستعمل ذلك الحرف فإنه ينفس عن آهاته الممتدة ، ويخفف من أحزانه العميقة .

---

(١٢٢) ديوان : هي أمى ــ صـــ ٢٤ .

وها هو ذا شاعرنا يجسد ما يكنه فى أعماقه من مشاعر الحب والتقدير البالغين لوالدته .. حيث نراه يؤكد ـ من خلال ـ تساؤلاته المتتابعة تلك عظم فضل أمه عليه ، وجليل نفعها إياه ، وكيف أنها كانت تمثل له كل شيء إيجابي فى هذه الحياة ، فهي سبيله إلى مرضاة ربه ، وهي موضع مشورته ، ومصدر قوته ، وهي قسيمة فرحته ، وشريكة هناءته ، وهي ملاذه عندما تنزل به الخطوب ، وتدلهمّ الصروف.. وهي المحفز والمحرك له نحو كل تقدم وفلاح .. يقول :

من لى بتقبيل الجبين مصبحاً ∴ وممسيا وممسحاً أعتابها ؟!
من لى بحسن الرأى منها حينما ∴ تهدى إليَّ من الأمور لبابها
من لى بصدق الحدس منها ∴ حينما تلقى الخطوب على العيون ضبابها؟!
من ذا سأسمعه القصائد بعدها ∴ ومن الذى سينيلنى إعجابها ؟!
من ذا أبشر حين أفرح ،كي ∴ أرى فى وجهها فرحاً يطير صوابها
من لى بها تفها الحبيب بحيبى ∴ أهلاً حبيبي يا فديت جوابها !![١٢٣]

وتجسد تلك التساؤلات المتتابعة بجانب ما تؤكده من عظم فضل أم الشاعر عليه ، وجليل نفعها .. تجسد بجانب ذلك ـ نفسيته الحائرة القلقة الضائعة التى فقدت توازنها ، فراحت تتنازعها خطوب الحياة ، وتتجاذبها صروفها ، وراحت تشكو فراغا قاتلا ، وخواء بالغا ؛ ولذا فهي تنشد من يملأ ذلك الفراغ ، وتبحث عمن يعيد لها ثباتها وتوازنها ، ويدفع بها إلى الأمام .. فمن يكون للشاعر بعد أن ذهبت عنه أمه فغاب صوتها ، وتوقف جوابها؟ ـ ذلك الذى يفتديه الشاعر ، وكم يدعو له راجيا بقاءه مدويا :

من لى بهاتفها الحبيب يجيبنى ∴ أهلاً حبيبى يا فديتُ جوابها؟![١٢٤]

وكثيرة هي المواضع التى ورد فيها الاستفهام ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة .. ويلحظ المطالع لها ، أنها تكاد تنحصر فى شعر العشماوي فى أمه بعد ذهابها عن الحياة ، حيث يجسد الشاعر ـ خلال تلك المواضع ـ عن طريق الاستفهام – بمعانيه المختلفة– عظم فضل أمه عليه ، وجليل نفعه إياها ، ويجسد

(١٢٣) ديوان : هي أمى ــ صـ ٣٥ ، ٣٦
(١٢٤) المصدر السابق – صـ ٣٦

فى الوقت ذاته طبيعة ـ حياته ـ القلقة الحائرة المضطربة ، وما يسيطر على نفسه ، ويلفها من مشاعر الحسرة والضياع والوحشة والاغتراب .

ويبدو أسلوب النداء متحققا أيضا فى تجارب الشاعر فى المرأة .. حيث يكثر من استعماله النداء ، ويلح عليه فى كل بيت من أبياته التالية مجسدا من وراء ذلك ، ومؤكدا ما تنتابه من مشاعر الحيرة والقلق والضياع والأسى إزاء فقد أمه التى كانت تمثل له الحياة فى كل معانيها الإيجابية .. ناشدا من تلك النداءات على أهله وذويه ، واخوانه وبنيه ، بل وعلى النسيم الذى يهب بالهواء العليل من ناحية قبر أمه حيث مثواها الاخير ، ناشدا الراحة والإيناس ، شاكيا بين يدي هؤلاء الأصفياء الأحباب الذين اكتووا مثلما اكتوى من حر نأي حبيبتهم، وتحرقوا كما تحرق بنار بعادها .. شاكيا بطئ ليله ، وتثاقل كواكبه ، وامتداد احزانه معزيا نفسه ، ومسرياً عنها بتذكره تلك الحقيقة الثابتة وهي فناء الحياة والأحياء جميعاً لا محالة ، راجياً فى اللقاء بأمه فى الجنات عند رب العباد ، واجداً فى ذلك أطيب السلوى ، وخير العزاء .. حيث يقول :

يا أبا صالح ، أخى وشقيقى ∴ يا رفيقى فى شدتى ورخائى
يا شقيقاتنا ، ويا كل قلب ∴ من قلوب الأحفاد والأبناء
يا أخا أمنا ويا أخواتٍ ∴ بالتفانى رفعن معنى الإخاء
يا سديم ويا شذا وحنين ∴ يا أعز الأحبة الأوفياء
يا زياد ويا يزيد ويا سعدية ∴ الخير ، يا بلاسم دائى
يا نسيماً يهب من رهف الحُب ∴ عليلاً ، يفيض بالأشذاء
يا أسيل التى تحرك شجوى ∴ حين تدعو"بابا" وتجرى ورائى

....

يا صدوراً تجيش بالحزن تشكو ∴ ما شكونا من حر نار التنائى
سافر الليل به بطيئاً ثقيلاً ∴ باهت البدر خافت الجوزاء
يتمطى بصلبه ويُريني ∴ كيف تبدو حقيقة القلاء

وجـــه ظلمائـــه تجهـــم حتـــى ∴ خـــاف قلـــبي تجهـــم الظلمـــاء

ســـافر الليـــل بـــى ، فلمـــا طـــوانى ∴ فـــى ظـــلام الـــدُّجى وأشـــجى مســـائى

وبنـــى لى مـــن الغياهـــب ســـجناً ∴ زاد مـــن وحشـــتى وطـــول شـــقائى

حينمـــا أســـرف الظـــلام ، تجلّـــى ∴ مـــن يقينـــى بـــالله أسمـــى ضـــياء

شمعـــة بـــددت ظـــلام الدِّياجـــى ∴ وبإشـــراقها دفعـــت بلائـــى

يـــا جبـــال الأســـى تطامنـــت لَّـــا ∴ صـــار قلـــبي فـــى القمـــة الشـــماء

إن تكـــن غابـــت الحبيبـــة عنـــا ∴ فـــى حيـــاة معجونـــة بالفنـــاء

فلنـــا مـــن رجائنـــا فـــى التلاقـــى ∴ عنـــد رب العبـــاد خـــير عـــزاء[١٢٥]

ولا شك فى أن كثرة نداءات الشاعر . خلال أبياته هذه . تدل على مايتملكه من حيرة وضياع ، وتؤكد ما يسيطر عليه من قلق وعناء ، ويلفه من تيه واضطراب، ووحشة واغتراب .. وأن ذلك هو ما دفعه إلى أن ينادى أصفياءه ويناجى أحبابه من أهله وعشيرته الأقربين :" إخوانه ، وأخواته ، وبناته ، آملا منهم أن يخففوا ويلطفوا عنه ما يلاقى ، ويواسوه ويُسرّوا عنه فيما يقاسيه .. فهم كما ذكر: بلاسم دائه ، وأعز أصفيائه .

ولا يخفى إيثار الشاعر فى نداءاته المتتابعة تلك لحرف النداء " يا " ، وما فيه من مد يتسنى للشاعر به أن ينفس عن آهاته الممتدة ، وأحزانه العميقة ، فيخفف عنه من ثم بعض ما يلاقى من ألم الفراق ، ومرارة الثكل ، ونار الفقد ، وعذاب البعاد ، ووحشة الاغتراب !! .

ونرى أسلوب النداء . وهو يتجاور مع أسلوب الندبة والتأوه فى موضعين ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة ..حيث وظفهما الشاعر ، واستعان بهما فى تجسيد ما ينتابه من مشاعر الحب الجارف ، والشوق المتقد ، والحنين الفائض ، والألم البالغ ، والأسى الشديد ، والحزن العميق إزاء فراق والدته الحبيبة الغالية ، مؤكدا . من خلال هذين الأسلوبين بالإضافة إلى ما يتضمنه هذان الموضعان من كلمات دالة ، وعبارات موحية ، بجانب توظيفه التراث الإسلامي . من خلال أحداثه

---

(١٢٥) ديوان : هي أمى ــ صـــ ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

وشخوصه ـ مؤكدا من خلال ذلك كله ـ كيف أنه كاد يصل إلى حد الهلع والجزع لولا قوة إيمانه ، وصدق عقيدته ، وحسن علاقته بربه .. حيث يقول :

أواه-يـــا أمـــاه- مـــن لوعـــة ∴ ماتركـــت مـــن مهجتـــى زاويـــه!!

عـــام مضـــى يـــا أمنـــا الغاليـــة ∴ وأنـــت عـــن منزلنـــا نائيـــه!! (١٢٦)

ويقول :

أواه ياأمـــاه مـــن لفـــح الأســـى ∴ لمـــا تمكـــن مـــن فـــؤادى واســـتعر

لـــولا التعلـــق بالإلـــه لنـــالنى ∴ مانـــال قلـــب "مـــتمم" لمـــا انفطـــر(١٢٧)

ويؤكد هذان الأنموذجان –كما نرى- حب الشاعر الشديد ، ووفاءه النادر لأمه ... حيث تبدو مشاعر الحزن الملتاعة ، وأحاسيس الشوق الجارفة تلك التى تنتابه ، وتسيطر عليه إزاء فراق والدته ـ تبدو ـ فى قوتها وثباتها ، واتقاد نارها ، واشتعال جذوتها كأنها قد قيلت فى يوم رحيلها !! وليس بعد عام من ذلك الرحيل ـ كما أشار الشاعر .

ويجسد هذان الأسلوبان ـ أعنى : أسلوب الندبة والنداء ـ كما نرى ـ ما يستعر ويفور فى أعماق الشاعر من تلك المشاعر والأحاسيس المشار إليها ، والتى بدا ـ خلالها ـ فى صورة المحب المتهالك فى الحب ، والصب المستهام ، والمشوق المتفانى فى الشوق .. وكاد يصل بعد فراق حبيبته "أمه" إلى حد الجزع والهلع ، لولا قربه من ربه .. ولا يخفى مايتوافر فى هذين الأسلوبين من مد يعطى للشاعر فسحة فى أن يرفع صوته ، ويمده محاولاً أن ينفس عن نفسه الملتاعة ، ويخفف عن قلبه الملكوم ، وعقله الطائش ، وصوابه الطائر من أثر فراق والدته التى فت فراقها فى عضده ، ونال من نفسه ، وقطع نياط قلبه ، وهدَّ كيانه :

أواه ـ يـــا أمـــاه ـ مـــن لوعـــة ∴ مـــا تركـــت مـــن مهجتـــى زاويـــه!!

ويلحظ على الشاعر أنه عند التأكيد على ما يتحلى به من صبر جميل ، وما يتسلح به من رضا تام يُباعدان به عند الهلع والجزع إزاء ذلك الحدث الجلل، وعن أن يبدو فى صورة غير الراضى بقضاءه الله وبقدره سبحانه .. هو عند تأكيد

(١٢٦) المصدر السابق ــ صـــ ٢٧ .
(١٢٧) السابق ذاته ــ صـــ٣١ .

ذلك المضمون قد وظف التراث الاسلامي وذلك من خلال أحداثه وشخوصه .. حيث أشار إلى حادثة مقتل شقيق الشاعر متمم بن نويرة – ذلك الذى بكى على فراق أخيه بكاء مُراً غزيراً متفجعاً إزاء رحيله ، حتى بدا فى صورة الجزع الهلع غير المُسلم بذهاب أخيه مالك .. حيث يُبدي متمم حزنه إزاء فراق أخيه بقوله :

فلمـــا تفرقنـــا كـــأني ومالـــكاً ∴ لطـــول اجتمـــاع لم نبـــت ليلـــة معـــاً

وكنـــا كنـــدماني جذيمـــة حقبـــة ∴ مـــن الـــدهر حتـــى قيـــل لـــن يتصدعـــا

فـــإن تكـــن الأيـــام فـــرقن بيننـــا ∴ فقـد بـات محمـوداً أخـى حـين ودعـا[١٢٨]

وأنه أى : "شاعرنا" لولا صلته القوية بربه ، وصدقه فى إيمانه لنال قلبه ، ولنزل على نفسه من الهلع والجزع مثلما نال قلب ونفس متمم بن نويرة ، حيث انفطر قلبه كمدا وحزنا وحسرة وهلعا وجزعا على فراق أخيه !! .

وللأساليب الخبرية . تلك التى ترد فى المضمون . بقصد تثبيته ، وتأكيده ، وترسيخه فى أذهان المتلقين . لتلك الأساليب وجود وتحقق . هي الأخرى . فى تجارب الشاعر –فى المرأة .. حيث تذيع بها تلك التجارب .

ويمكننا أن نحيا فى السطور المقبلة مع بعض أنماذج الشاعر فى المرأة . تلك التى تأخذ صفة الخبرية ، وتندرج تحت غرضٍ من أغراضه البلاغية .

فمن الأغراض البلاغية للأسلوب الخبري إظهار فضل المخاطب ، والتنويه بقدره ، والإشادة بشأنه ، والثناء عليه بما يستحقه .. ومن تلك الأغراض البلاغية للأساليب الخبرية أيضا إظهار التحسر على فقد عزيز ، وإبداء التفجع والتوجع والحنين والأنين إزاء فقده .. ويمكن لنا أن نسوق أنماذج على هذين النوعين . خلال تجارب الشاعر فى المرأة .. حيث تفيض تجارب الشاعر فى المرأة . لا سيما فى أمه . محور نظمه ، وبؤرة إبداعه فى عالم المرأة بالأنماذج التى تأخذ صفة الخبرية ، وتدل على تلك الأغراض المشار إليها قبل قليل .

---

(١٢٨) المفضليات : ديوان العرب – مجموعات من عيون الشعر : المُفضّل بن محمد بن يعلى الضبي – صـ ٢٦٧ – تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، عبدالسلام هارون – ط دار المعارف – الطبعة السابعة – د .ت .

..ومما يمكن أن يندرج تحت : إظهار فضل المخاطب ، والتنويه بقدره، والإشادة بشأنه ، والثناء عليه بما يستحقه قول الشاعر يُسقط هذا الكلام على أمه مؤكداً – من خلال ضمائر المخاطبة المتتالية . تلك التى يخاطب بها والدته عظم فضلها عليه ، وبالغ نفعها إياه :

أنـــت يـــا أمـــاه أنشـــو ∴ دة عطـــــــف ووفـــــــاء
أنـــــت عنـــــوان عظـــــيم ∴ فـــــى ســـــجل العظمـــــاء
أنـــــت مهـــــدت طريقـــــى ∴ أنـــــت أكملـــــت بنـــــائى
أنـــت –يـــا أمـــاه- نـــبرا ∴ س جـــــلا بـــــالنور دربـــــي
أنـــــت عطـــــف بـــــدد الآ ∴ لام عـــــن صـــــفحة قلـــــبي
فلـــك التقـــدير – يـــا أمـــى ∴ وإخلاصـــــــى وحُبـــــــي[١٢٩]

ويدخل ضمن إظهار التحسر على فقد عزيز ، وإبداع التفجع والتوجع ، والحنين والأنين إزاء فقده ، قول الشاعر من قصيدته التى بعنوان :"عام مضى" يبدى تحسره على فقد أمه ، ويظهر تفجعه وتوجعه وحنينه وأنينه إزاء فقدها :

عـــام مضـــى يـــا أمنـــا الغاليـــة ∴ وأنـــــت عـــــن منزلنـــــا نائيـــــه
نأيـــت يـــا أمـــاه نأيـــــا بـــه ∴ دارت طـــــواحين الأســـــى القاســـــيه
عـــام مضـــى لم نســـق أرواحنـــا ∴ مـــن نبـــع تلـــك البســـمة الصـــافيه
لم نمســـح الآلام فـــى ظـــلـــه ∴ بنظـــــرات المقلـــــة الحانيـــــه
عـــام مضـــى لم نرتشـــف رشـــفة ∴ واحـــــدة مـــــن روحـــــك الغاليـــــه
عـــام مضـــى والقـــبر مســـتأمن ∴ والبيـــــت فـــــى وحشـــــته الثاويـــــه
كـــل القناديـــل التـــى أســـرجت ∴ مـــن بعـــد أمـــى أصـــبحت ذاويـــه
حتـــى نجـــوم الليـــل أنكرتهـــا ∴ بـــالرغم مـــن أنوارهـــا الزاهيـــه
أروح أغـــــدو ومعـــــي حســـــرة ∴ مـــــن بعـــــدها رائحـــــة غاديـــــه[١٣٠]

(١٢٩) ديوان : إلى حواء ــ صـ ١٢٣.

ومن بين الأساليب الخبرية التى كان لها وجود ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة ـ أسلوب التكرار ، وهو : " من الوسائل اللغوية التى يمكن أن تؤدى فى القصيدة دورا تعبيرياً واضحا ، فتكرار لفظة " ما " ، أو عبارة " ما " يوحى بشكل أولي بسيطرة هذا العنصر المكرر ، وإلحاحه على فكر الشاعر، أو شعوره ، أولا شعوره .. ومن ثم فهو لا يفتأ ينبثق فى أفقه رؤياه من لحظة لأخرى "(١٣١) .

وللتكرار بواعث نفسية تدفع الشاعر إليه ، فالشاعر يجد فى التكرار خير معين فى إيصال معانى الحسرة أو التحدى أو السخرية .. أو غير ذلك .. "(١٣٢) .

وهو ـ أي التكرار ـ أيضا : " مثير للانتباه ، وداع للاهتمام بالشيء المكرر مما يلفت انتباه السامع ويجذبه "(١٣٣) .

وقد وظف الشاعر أسلوب التكرار ، واستعان به فى ترسيخ مضامينه وتأكيدها فى نفوس المتلقين .. حيث يلحظ من يطالع المواضع التى تحقق فيها ذلك الأسلوب مايحدثه التكرار من أثر بارز ، وما يؤديه من دور فاعل فى أداء المعنى ، وإبرازه وتأكيده .. فلم تعدم الكلمات المكررة أن تضيف إضافة جديدة للمضمون الذى ترد فيه ، وأن تثير انتباه المتلقى ، وتلفت نظره للوقوف على حقيقة الشيء المكرر ـ ذلك الذى ألح على فكر الشاعر ، وسيطر على شعوره .. وامتلأ به وجدانه وكيانه .. ومن ثم لم يشعر المتلقى إزاء ذلك التكرار بملٍ أو رتابة يحدثان عادة عند تكرار الكلام دون أن يكون من وراء ذلك فائدة .

ومن مواضع التكرار الجيدة ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة قوله يُحدث بفضل أمه عليه ، معددا أياديها السابغة ، وآثارها الإيجابية غير المتناهية فى حياته .. ملحا على تلك الفكرة التى سيطرت على بؤرة شعوره وتفكيره ـ من خلال تكراره للفظة : " كم " – تلك التى تفيد التكثير هنا ، وأيضا من خلال تكراره لعبارة :"من أجلى" متخذا من تلك الكلمات المكررة معينا فى الإلحاح والتأكيد على تلك الفكرة ، ومثيرا من وراء ذلك انتباه المتلقين ، ولافتا أنظارهم ، وجاذبا أسماعهم نحو

---

(١٣٠) ديوان هى أمى ــ صـ ٢٥ ، ٢٦ .

(١٣١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة : د/ على عشرى زايد صـ ٦٥.

(١٣٢) يُنظر: التكرير بين المثير والتأثير : د/ عز الدين على السيد – صـ ١١٧ ــ ١٣٤– عالم الكتب ــ بيروت ــ الطبعة الثانية– ١٤٠٧ هـ .

(١٣٣) التكرار فى شعر الخنساء:د/ عبد الرحمن الهليل ــ صـ٢٧ـ ط دار المؤيد ــ الرياض – ط١/ ١٤١٩ هـ .

ما تأكد من عظم فضل أمه عليه ، وجليل نفعها إياه ، وتعدد مظاهر ذلك الفضل والنفع فى حياته :

أمـــــاه .. كـــــم أيقظـــــت فـــــى ∴ نفســـــــى أجـــــــل صـــــــفاتيه

ولكـــــم ســـــهرت الليـــــل مـــــن ∴ أجلـــــــى وعينـــــــى غافيـــــــه

ولكـــــم ســـــكبت الـــــدمع مـــــن ∴ أجلـــــــى ونفســـــــى خاليـــــــه[١٣٤]

ويمكننا أن نسقط هذه المعاني برمتها على تلك الأبيات التى يؤكد فيها الشاعر ما كان لأمه من أثر جوهري ، ودور محوري فى بناء كيانه ، وتشكيل وجدانه .. وما استقر فى أعماقه ، وسرى فى دمائه ، وتأكد فى كيانه من ذلك الحب الشديد ، والتقدير البالغ ، والتعلق النادر بشخصها ، والشوق الجارف ، والحنين الفائض إزاء روحها .. تلك التى فارقت الدنيا منذ عام ، وكأنها قد فارقتها ساعة إبداع تلكم القصيدة .. لنستمع إلى الشاعر . وهو يجسد تلك الأحاسيس العميقة ، والمشاعر الدفينة – من خلال ما تضمنته تلك الأبيات من ألفاظ دالة ، وعبارات بليغة تنطق بعظم فضلها ، وبالغ نفعها ، ويستعظم الشاعر من خلالها المصيبة فى فقدها .. بجانب تكراره لعبارة : " عام مضى " ، والحاحه فى ذلك التكرار عبر أبيات قصيدته . التى تحمل عنوان : " عام مضى " أيضاً .. قصدا فى ذلك أن يشغلنا بتلك الفكرة التى تلح على فكره ، وتسيطر على وجدانه .. وانطلاقاً فى ذلك من خلال باعثٍ نفسي يدفع به دفعا إلى ذلك التكرار ، حيث يشعر بالحسرة والحيرة ، والوحشة والغربة ، ويعانى الفقد والحرمان ، والبُعد والثكلان .. وكأنه وحتى بعد مُضي عام على الرحيل غير مصدق بنبئه ، ولا محتمل لوقعه :

عـــام مضـــى يـــا أمنـــا الغـــاليه ∴ وأنـــــتِ عـــــن منزلنـــــا نائيـــــه

نأيـــــتِ يـــــا أمـــــاه نأيـــــا بـــــه ∴ دارت طـــــواحين الأســـــى القاســـــيه

عـــام مضـــى لم نســـق أرواحنـــا ∴ مـــن نبـــع تلـــك البســـمة الصـــافيه

لم نمســـــح الآلام فـــــى ظلـــــه ∴ بنظـــــرات المقلـــــة الحانيـــــه

عـــام مضـــى لم نرتشـــف رشـــفة ∴ واحـــــدة مـــــن روحـــــك الغاليـــــه

(١٣٤) ديوان : إلى حواء ــ صـ ٢٦ .

عـــام مضـــى والقـــبر مســـتأمن ∴ والبيـــت فـــى وحشـــته الثاويـــه

كـــل القناديـــل التـــى أســـرجت ∴ مـــن بعـــد أمـــى أصـــبحت ذاويـــه[١٣٥]

ومثل هذا الموضع والذى قبله نلتقى به فى قول الشاعر يؤكد عِظم فضل أمه عليه ، ويُجسد بالغ حزنه ، وعميق ألمه إزاء فقدها . ذلك الذى فقد معه السعادة والهناءة ، والعطف والحنان ، والبرد والسلام ، والدفء والوئام .. ها هو ذا يؤكد عظم فضل أمه عليه – من خلال تكراره للضمير الذى يعنيها به فى كل بيت من تلك الأبيات ، مصوراً أسفه ، ومجسداً ما ينتابه من شوق جارفٍ – إزاء فقد أمِّه العزيزة الغالية:

هـــي أمـــى فقـــدها فقـــد عمـــــر ∴ وحيـــــاة مـــــن الرضـــــا والصـــــفاء

هـــي كنـــز الـــدُّعاء ، يـــالهف نفســـى ∴ وأســـــاها لفقـــــد كنـــــز الـــــدُّعاء!!

هـــي نبـــع الحنـــان والعطـــف مـــن لى ∴ بعـــد أمـــي برشـــفة وارتـــواء ؟! [١٣٦]

وأسلوب الحوار كان له وجود فى تجارب الشاعر فى المرأة .. ولكنه قليل، حيث يرد ذلك الأسلوب فى موضع أو موضعين تقريبا – خلال شعر العشماوي فى المرأة .

ومن ذلك قوله . من قصيدته :" ضدان لا يجتمعان " – وقد أقام حواراً طريفا هادئاً بينه وبين إحدى النساء اللاتى انخدعن ببريق المدنية الزائف ، ووقعن فى شرك التحضر المزعوم فرحن ينشدن السعادة ، ويبحثن عن الراحة فتراءت لهن فى الحرية المطلقة .. وأن يعشن هكذا بلا وازع ولا رادع يتفنن فى إبداء ألوان الزينة ، ومظاهر التبرج ، فيلفتن من ثم إليهن أنظار مرضى القلوب ، وضعاف النفوس من البشر ، ويبدين فى صورة مستهجنة ، وهيئة مستغربة ، هي بعيدة عن المجتمع المسلم ، وليدة مجتمعات الكفر والإلحاد .. وهنا يسائل شاعرنا تلك المرأة المخدوعة التى تبدو متفننة فى ألوان الزينة ، وتظهر غارقة فى مدارك التبرج والرذيلة .. من أين أنت .. فتجيبه إجابة تزيده استغرابا .. وتعجبا : عربية أنا .. أباشر حريتى تلك التى جعلتنى أشعر بذاتى ، وأُحس بحياتى ، وأعتد بكيانى .. وهنا

---

(١٣٥) ديوان : هي أمى ــ صـــ ٢٥ .
(١٣٦) المصدر السابق – صـــ ١٦.

يطرح عليها الشاعر سؤالا جديدا : أمسلمة أنت؟! .. فتجيبه إجابة كلها تناقض وغرابة : نعم ولخالقي الحمد .. وهنا يسألها الشاعر- ونفسه تعلوها الحيرة ، وتأخذها الدهشة ، وقلبه يسيطر عليه الغضب والعجب .. إذن من أين هذا الزي الغريب على أرض العرب والمسلمين ؟! إنه التبذل والخلاعة ، والتهتك والمجون يا محدثتى .. إنه سهم من الإلحاد مرتد .. وهنا تأخذ تلك المرأة العزة بالإثم فتبدو متنمرة غاضبة ، وتثنى عطفها صلفا وكبرا ،وغرورا وتيها ، مؤكدة أنها بنفسها واثقة ، وبذاتها معتدة ، وأنها بمأمن من الأخطار .. فيجيبها شاعرنا ، والحزن يعصف بنفسه ، والألم يعتصر فؤاده : أخشى عليك من الوقوع فى المخاطر والانزلاق فى المهالك .. حيث لا تحصدين حينئذ إلا الحصاد المر ، ثم يصل شاعرنا إلى بيت القصيد فى تلك التجربة ، حيث يؤكد لتلك المرأة التى يحاورها ، ولكل متلقى شعره بأن هناك ضدين ما اجتمعا أبدا .. دين الهدى والفضيلة والعفاف ، والفسق والعهر والرذيلة والضلال ، وأن ما أصاب أمتنا من تخلف ورجعية وما جعلها فى ذيل الأمم ، وأزرى بشأنها إنما يرجع فى الأساس إلى هذا الازدواج الذى يفصل فيه صاحبه بين المظهر والمخبر، والقول والفعل !! :

هذى العيون ، وذلك القد ∴ والشيح والريحان والند
هذى المفاتن فى تناسقها ∴ ذكرى تلوح وعبرة تبدو
سبحان من أعطى ، أرى جسداً ∴ إغراؤه للنفس يحتد !!
عينان مارنتا إلى رجل ∴ إلا رأيت قواه تنهد !
من أين أنت ، أأنجبتك ربا ∴ خضر ، فأنت الزهر والورد
من أين أنت فإن بى شغفا ∴ وإليك ـ نفسى لهفة ـ تعدو
قالت وفى أجفانها كحل ∴ يغرى ، وفى كلماتها جد :
عربية حريتى جعلت ∴ منى فتاة ما لها ند
أغشى بقاع الأرض ماسنحت ∴ لى فرصة بالنفس أعتد
عربية ، فسألت: مسلمة ؟ ∴ قالت : نعم ، ولخالقي الحمد
فسألتها ، والنفس حائرة ∴ والنار فى قلبى لها وقد

من أين هذا الزي ؟ ما عرفت ∴ أرض الحجاز، ولا رأت نجد؟!

هذا التبذل ، يامحدثتى ∴ سهم من الإلحاد مرتد

فتنمرت ، ثم انثنت صلفا ∴ ولسانها لسبابها عبد

قالت : أنا بالنفس واثقة ∴ حريتى دون الهوى سد

فأجبتها ـ والحزن يعصف بى ∴ أخشى بأن يتناثر العقد

ضدان يا أختاه ما اجتمعا ∴ دين الهدى والفسق والصد

والله ما أزرى بأمتنا ∴ إلا ازدواج مالـه حد[١٣٧]

.. وهكذا نرى الشاعر ـ وقد أقام تجربته هنا على الحوار الهادئ الطريف بينه وبين تلك المرأة التى تخالفه فى الفكر والتوجه ، حيث رأيناه يتجاذب معها أطراف الحديث ، مُقلِبا هذا الشأن :" موضوع الحوار " على كل وجوهه ؛ ليصل فى النهاية إلى الفكرة التى يريد تبليغها ، والمبدأ الذى يجتهد فى إرسائه ، حيث يؤكد مدى أهمية العفة والاحتشام ، والطُهر والوقار ، والفضيلة والالتزام فى حياة المرأة المسلمة ، مُهيبا بتلك المرأة المخدوعة أن تفيق من سكرتها ، وأن تنتبه من غفلتها ، فتنزل على مفهوم الحرية الصحيح ، وتلتزم بهديها الراشد .. فلا تكون واحدة من المخدوعات فى معنى الحرية .

ولا شك فى أن هذا الحوار الهادئ الذى أقامه الشاعر مع ذلك الطرف المخالف له فى الفكر والتوجه ، حيث تلك المرأة التى حادت عن الهدى ، وتنكبت طريق العفة، وسلكت مسلك الضلال ، فهامت مخدوعة تبحث عن الحرية الموهومة ، وراحت تنشد التمدين المزيف .. لا شك فى أن ذلك الحوار الذى أقام الشاعر تجربته عليه هنا من شأنه أن يوقظ شعور المتلقين ، ويثير انتباههم ، ويبعث فيهم شعورا بالحيوية والنشاط ، بما يقوم عليه ذلك الأسلوب ـ أعنى : أسلوب الحوار ـ من الجدة والإثارة والطرافة ، وما يكسره من حدة الرتابة التى يحس بها المتلقى فى حال مالو طُرِح الكلام هكذا طرحا مباشرا ، بعيدا عن أسلوب الحوار الماتع المثير .. حيث لا يخفى مايمنحه الحوار للتجربة من بُعد درامي يجعلها قريبة من النزعة القصصية ،

---

(١٣٧) ديوان : إلى حواء ــ صـ ٧١ ــ٧٣ .

كما لا يخفى ما لتلك الظاهرة الأسلوبية من أثر جذاب فى الشعر والنثر ، فهي مظهر فني يضفي على العمل الأدبي حيوية وتجديدا ، ويبعد عنه ما يمكن أن يعتريه من سأم وملالة ، وضيق ورتابة : " فهي طريقة وإن لم تكن جديدة ، لكنها تقطع الملل ، وتوقظ الإحساس ، وتدعو إلى الإثارة والدهشة "(١٣٨) .

وأسلوب التعجب كان من بين الأساليب الخبرية التى وردت فى شعر عبد الرحمن العشماوي فى المرأة .. وقد ورد فى مواضع قليلة جدا ، حيث لا يتجاوز تحققه الموضعين أو الثلاثة .. ومن ذلك ما جاء فى قول الشاعر . وهو بمعرض نصحه وإرشاده للمرأة المسلمة ، وتوجيهه إياها . بصفتها أختا له فى الإسلام . إلى ما يجب أن تنزل على هديه ، وتنهجه وتلتزم به فى هذه الحياة، لاسيما فى العصر الحاضر . ذلك الذى يموج بالمفاسد والشبهات ، ويعج بالمخاطر والانحرافات :

أختـــى .. ، وفـــى أحشـــائى دُنـــ ∴ يانـــا ـ وبـــئس بهـــا ـ مجـــون ! !
نعـــم الفتـــاة المستقيـــمة ∴ لا تحـــيط بـــها الظنـــون ! !
تسمـــو بصـــدق عفـــافـــها ∴ ولرمـــز عزتـــها تصـــون(١٣٩)

فالشاعر يتعجب . كما نرى . مما يفيض به واقعنا المعاصر ، وما تفعم به حياتنا الحاضرة من لهو ومجون ، ذاما إياه .. فى الوقت الذى يمتدح ذلك الأنموذج الأمثل الذى تمثله المرأة المستقيمة على منهج الدين الحنيف .. والتى تبتعد عن الريب والظنون ، حيث تسمو بصدقها ، وتتزين بعفافها ، محافظة فى ذلك على عزتها ، مبقية على كرامتها .. فنعمت المرأة المسلمة هذه ! ، وأكرم بها ! :

نعـــم الفتـــاة المســـتقيمة ∴ لا تحـــيط بهـــا الظنـــون ! !
تســـمو بصـــدق عفافهـــا ∴ ولرمـــز عزتهـــا تصـــون

(١٣٨) محمود حسن اسماعيل بين الأصالة والمعاصرة ــ د /صابر عبد الدايم ــ صـ ٦٥ ــ ط دار المعارف ــ د ت .
(١٣٩) ديوان : إلى حواء ــ صـ ٩١ ، ٩٢ .

المبحث الرابع: من الظواهر البديعية فى الأسلوب ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة .

الذى يطالع تجارب العشماوي التى أبدعها فى المرأة ، ووظف من خلالها الأساليب المتنوعة ، والتراكيب المختلفة ـ تلك التى استعان بها فى أداء معانيه ، وإبراز مضامينه ، وجذب وإثارة انتباه مُتلقيه ، وخلق عنصر التشويق والاستمالة فى نفوسهم ؛ فيقبلون من ثم على تلك المضامين فى شوق وحب .. الذى يطالع تلك التجارب ـ بما تتوافر عليه من أساليب متنوعة ، وتراكيب مختلفة يجد صاحبها قد زينها ووشاها ببعضٍ من المحسنات البديعية التى جاءت فى أكثر الأحايين طبعية عفوية برئت من التكلف ، وسلمت من التعسف .. فلم يقصد إليها الشاعر قصدا ، ولم يذهب إليها عمدا ، ولم يقسرها قسرا ، وإنما تطلبها المعنى ، واقتضاها المضمون ، ودعت إليها التجربة ، وألح عليها الموقف .. فمما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد أن أسلوب الشاعر جاء ـ فى الأعم الأغلب ، والكثرة الهائلة من تجاربه فى المرأة مطبوعا بعيدا كل البعد عن الصناعة اللفظية .. وأن لجوءه إلى استعمال المحسنات البديعية إنما كان فى المقام الرئيس بقصد إيضاح معانيه ، وإبراز صوره ، وتأكيد مضامينه ـ بجانب توشيتها وتزيينها .. ومن ثم فقد أضفت على أسلوبه رونقا وبهاءً ، وزادته جمالاً ورواءً .. على نحو ما سنطالع خلال الأنماذج التالية من شعر العشماوي فى المرأة .

ويأتى كل من الطباق والمقابلة ضمن المحسنات البديعية التى استعان بها الشاعر ، وأفاد منها فى أداء وإيضاح معانيه ، وإبراز وتأكيد مضامينه ، بجانب توشيتها وتزيينها.

ومن المواضع التى يتحقق فيها الطباق ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة ـ قوله يمعن فى تصوير ما ينتابه ويتملكه ويلازمه من مشاعر الحيرة والحسرة إزاء فقد والدته :

أروح ، أغـــدو ، ومعـــى حســـرة ∴ مـــن بعـــدها رائحـــة غاديـــه[١٤٠]

وهكذا يجلى الشاعر ، ويبرز ويؤكد من خلال الطباق الكائن بين " أروح " ، " أغدو " ، " رائحة " ، " غادية " ـ ما يلازمه من مشاعر الحزن والحيرة ،

---

(١٤٠) ديوان : هي أمي – صـ ٢٦ .

والدهشة والحسرة إزاء فقد والدته .. حيث تظل تلك المشاعر العميقة جاثمة على صدره ، مسيطرة على كيانه فى الغدوة والروحة ، لا تنفك عنه صباح .. مساء .

.. وها هو ذا شاعرنا يستعين بالطباق ، ويفيد منه فى إبراز وتجسيد ما ينتابه من مشاعر الحب والحنين ، والشوق الدفين إزاء والدته ، بعد أن غاب عنها واغترب .. حيث يشير إلى وقع صوت أمه الذى سمعه عبر الهاتف ، فأثار شجونه ، وبعث أحزانه ، وحرك كوامن الشوق فى أعماقه نحو رؤيتها..- وهو- أي ذلك الصوت مثلما أدخل عليه السرور فقد حمله على البكاء .. ولذا فهو . أي الشاعر يناجى ذلك الصوت متسائلا فى أسى وحسرة كيف حل البعد محل القرب؟! .. وكيف تبدل المقام من التنعم بالوصال إلى التلظى بنار البعاد ، والاكتواء بلهيب الوحشة والاغتراب .. حيث يقول فى قصيدته: "دمعة على سماعة الهاتف " :

بعث الصوت كامن الأشجان ∴ مثلما سرنى فقد أبكانى!!

أيها الصوت أين تلك الليالى ؟! ∴ كيف حل النوى محل التدانى؟!![١٤١]

.. ولا يخفى الطباق الكائن بين سرنى ، وأبكائى ، وبين النوى والتدانى . وما أحدثه من إبراز مضمون التجربة ، وتجليته وتأكيده هنا .

ونلتقى بالعديد من الطباقات . خلال الأبيات التالية . تلك التى يبرز فيها الشاعر فضل أمه عليه ، مؤكدا من خلال تلك الطباقات مالها من دور محوري ، وأثر جوهري فى بناء كيانه ، وتشكيل وجدانه .. حيث يقول محدثا بفضل أمه عليه :

منك استقيت صمودى فى الحياة فما ∴ أعلنت يأسا ولا أعلنت خذلانا

مضيت فى رحلتى والقيظ ملتهب ∴ فكنت ظلا على دربى وأغصانا

وكنت فى ظلمتى نورا أسير به ∴ وفى صحارى الأسى وردا وريحانا[١٤٢]

.. وهكذا تبرز تلك الطباقات الواردة خلال الأبيات المذكورة عِظم فضل أم الشاعر عليه ، وتنطق بتعدد مجالى نفعها إياه .. فهي الظل الذى يستظل ويستروح به فى رحلة حياته القائظة المستعرة المجدبة: فكنت ظلاً فى رحلتى والقيظ ملتهب ،

(١٤١) ديوان : إلى حواء ــ صـ ٣٨ ، ٣٩ .
(١٤٢) ديوان : إلى حواء ــ صـ ١٠ .

وهي النور الذى يسير فى هداه مبددا الغياهب ، ومجليا الظلمات : وكنت فى ظلمتى نوراً أسير به .. وهي الورد والريحان (الخصب والنماء) فى القفر واليباب : وفى صحارى الأسى ورداً وريحانا .. يريد أن يقول إنها منطلقه نحو كل فضل ومجد .. وهي شعاع الأمل الذى يتراءى له عندما يستبد به اليأس، ويكاد يقتله الأسى .

وأسلوب المقابلة كان له وجود وتحقق خلال تجارب الشاعر فى المرأة، وهي ـ أي تلك المواضع التى يرد فيها ذلك الأسلوب يتحقق فيها البلاغة والجودة والبراعة .. فالمقابلة فيها من النوع السلس المطبوع غير المتكلف ولا المصنوع الذى يرد فى الكلام بقصد تلوينه فقط ، حيث تسمجها النفوس حينئذ ، وتعافها الأسماع ، وتأباها الأذواق ..

ومن مواضع المقابلة الجيدة ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة ـ قوله .. وقد خاطب إحدى النساء : يشكو مما ذاع وتأكد فى المجتمع المسلم المعاصر من تدن للأخلاق ، وتنكر للمثل والقيم والأعراف ، وانقلاب للموازين ، ، وتبدل فى الأوضاع ، شابت منها الرؤوس ، وتاهت فيها العقول .. حيث استشرى فى ذلك المجتمع الفساد ، وراج فيه سوق الرذيلة ، فيما تراجع وتخلف فيه الصلاح ، وكسد سوق الفضيلة :

فى عصرنا لو تعلمين مفاوز ∴ هرم الزمان لها ، وفيه فجاج

سوق الفضيلة والكساد تحالفا ∴ فيها وسوق رذيلة ورواج[١٤٣]

وما أبلغ تجسيد الشاعر لذلك العصر الذى استشرت فيه أوصال الفساد، وتعددت مظاهره ، وراجت من خلاله سوق الرذيلة .. ما أبلغ تجسيده إياه بأنه محفوف بالقفار والبيد ، بما فيها من جدب وقحط ، وأسى ويأس .. فى عصرنا لو تعلمين مفاوز .. ثم هو شخص الزمان فى صورةعاقل تشيب رأسه ، ويتقدم سنه من هول مايرى ويشاهد : هرم الزمان لها ..والزمان سبل وفجاج يتيه ويحار فيها من حاد عن الهدى ، وتنكب الصراط المستقيم .. ثم ما أبلغ الشاعر فى جعله من كل من الفضيلة والرذيلة سوقاً أقيمت على أرض المجتمع المسلم المعاصر، راجت فيه الرذيلة ، وكسدت الفضيلة .. .. وما أبلغ تعبير الشاعر بكلمة: " تحالفا " – تلك التى جسدت ذلك التلازم الشديد ، والترابط الوثيق ، والتآزر الأكيد بين سوق

(١٤٣) المصدر السابق ــ صـ ١٥٨ .

الفضيلة والكساد ، وأيضا بين سوق الرذيلة والرواج .. حيث تكمن المقابلة بين هذين المعنيين المتقابلين خلال التجربة هنا .

وهاهو ذا شاعرنا . وانطلاقا من حبه الشديد لدينه ، وغيرته الكبيرة على حرمته ، ورجائه وأمله فى كل مجد وتقدم له . يستعين بالمقابلة فى تصوير وتشخيص مـاألم بأبناء المجتمع المسلم المعاصر من داء عضال سقمت به طباعهم، ومرضت ذائقتهم . فراحوا يعافون الماء الصافي الزلال :" الطهر ، العفاف ، الفضيلة . الاستقامة ، ومضوا ومن أسف يتنكبون ذلك الصراط المستقيم ، فى حين أنهم من مرض طباعهم ، وسقم ذائقتهم . راحوا يستطيبون طعم الطين ، مستعذبين مذاقه !! ؛ ولذا فأنى لهم والعز والسيادة ، والتقدم والريادة ، وقد تنكرو لماضيهم ، وقيمهم وثوابتهم ، متسائلا فى استبطاء : إلى متى سيظل المسلمون يسيرون فى ركب أعدائهم متخلفين عن اللحاق . بهم ، بل والتفوق عليهم مثلما كانوا .. يقول الشاعر :

عفنـــا زلال المـــاء ياويحنـــا !! ∴ واســـتعذبت أنفســـنا الطينـــا !!

كيـــف نريـــد العـــز فـــى حاضـــر ∴ ونحـــن نســـتنكر ماضـــينا ؟!

إلى متـــى نبقـــى علـــى حـــالنا ∴ نســـير فـــى ركـــب أعادينـــا ؟![١٤٤]

وتقوم التجربة هنا –فيما تقوم– على أسلوبي المقابلة ، والاستفهام – بمعناه الدال على التعجب والإنكار ، بجانب ماتوافر فى تلك الأبيات من الكلمات الدالة المعبرة ، والمفردات الموحية المُشعة من مثل : عفنا ، زلال ، استعذبت ، الطينا ، نستنكر .. وأخيراً يسهم أسلوب الندبة الواقع فى قوله : " يا ويحنا ! " يسهم – هو الآخر – فى تجسيد التجربة ، وإبراز مضمونهاهنا .

وتتحقق المقابلة البليغة – خلال تجارب الشاعر فى المراة أيضا فى قوله يجسد طبيعة حياته بعد ذهاب أمه عنها ، مؤكدا كيف تبدل الحال ، وتغير المقام فى باحته –" ذلك الربع العزيز الذى ولد فيه ونشأ ونما ، وأنس وسعد بأمه ونعم ، حيث يناجى ربوعها . متسائلا فى حسرة ، وأسى: لماذا جنحت وأصبحت مصدراً للآلام والإتعاب بعد أن كنت منبعا للراحة والإيناس .. وكنت بالنسبة لى مرتعا ، ومسرحا لأنسى ، وهناءتى ، فكيف أصبحت مسرحا لكدرى واغترابى؟! ، وكيف بدت

---

(١٤٤) ديوان : إلى حواء ــ صـ ١٨ .

الرياحين فى أرضك الخصبة الطيبة فى صورة السهام التى تصمى فؤادى ، والحراب التى تنفذ فى أعماقى ؟!:

باحة الحب كم أرحت فؤادى ∴ فلماذا جنحت للإتعاب ؟!

كنت لى مسرحاً لأنسى وصفوى ∴ كيف أصبحت مسرحا لاغترابى

كيف صارت فيك الرياحين تبدو ∴ كسهام تصيبنى وحراب ؟![١٤٥]

وقد استعان الشاعر ـ كما نرى ـ فى تجسيد مشاعره ، وتصوير انفعالاته ، ونقل أحاسيسه ـ تلك ـ بأسلوبي المقابلة ، والاستفهام ـ بمعناه التعجبي ، بجانب التشبيه الرائق البليغ الكائن فى البيت الأخير .. وإن كان يؤخذ على الشاعر أنه لم يات فى الشطرة الثانية .. بما يقابله من معنى فى الأولى .. حيث أتى فى الشطرة الأولى بكلمتي : " أنسى " و" صفوى " ، بينما أتى فى الثانية بكلمة : " اغترابى " فقط ـ تلك التى تقابل فى معناها كلمة " أنسى" .. وكان الأولى والأجدر به أن يأتى بكلمة تقابل ـ فى معناها كلمة :" صفوى " .. ولتكن مثلا كلمة : " كدرى " فتكون المقابلة حينئذ صحيحة ، مستوفية الأركان .

وأختتم تلك الطائفة من المواضع التى يتحقق فيها أسلوب المقابلة ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة ـ بقوله يصور ماينتابه من مشاعر الشوق الجارف ، والحنين الفائض إزاء والدته ، مُجسدا طبيعة الحياة ، وصورتها فى ناظريه بعد ذهاب أمه عنه :

عام مضى والقبر مستأمن ∴ والبيت فى وحشته الثاويه

كل القناديل التى أُسرجت ∴ من بعد أمى أصبحت ذاويه[١٤٦]

والمقابلة تكمن ـ كما نرى ـ بين قول الشاعر : والقبر مستأمن .. وقوله : والبيت فى وحشته الثاويه .. حيث يقابل بين حالين جد مختلفين .. حال القبر الذى استأنس بحلول جثمان أم الشاعر فيه ، وحال البيت الذى كانت تثوى فيه ، والذى استوحش واستقفر بارتحالها عنه ، وإن كنت أرى أن فى تعبير الشاعر بكلمة : "

(١٤٥) ديوان : هي أمى ــ صـ ٤٧ .
(١٤٦) المصدر السابق ــ صـ ٢٥ .

مستأنس " أبلـغ ، وأقرب للصواب ، ،وآكد فـى الدلالـة علـى المضمون هنـا ، وأكثر ملاءمة للكلمة المقابلة لها فى المعنى : " وحشته " .

ثم هاهى ذى كل قناديل النور التى أُوقدت وأُسرجت فى حياة أمه ينطفئ . بذهابها . نورها ، وتخبو جذوتها ، ويذوى سراجها !! .

المبحث الخامس : الصورة الفنية – خلال تجارب الشاعر فى المرأة

الصورة الفنية هي أحد أعمدة النص الأدبي الرئيسة ، وهي ركن من أركانه الأساسية ، وبها يتميز عما سواه من أجناس الكلام الأخرى .. فهي روح الشاعر، وتوءمه ، ونبض شريانه ، ولولاها ما سُمي الشعر شعراً ، ولفقد أهم خصائصه ، وأبرز مقوماته .. فالشعر خاصة لا يناسبه إلا التصوير البياني ، أي التعبير عن طريق الصورة (١٤٧) .

والصورة الفنية هي : " ذلك التركيب القائم على الإصابة فى التنسيق الفنى الحي لوسائل التعبير التى ينتقيها وجود الشاعر ، أعنى: خواطره ومشاعره وعواطفه المطلقة من عالم المحسنات ؛ ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى فى إطار قوي تام محس مؤثر على نخو يوقظ الخواطر والمشاعر فى الآخرين (١٤٨) .

وإذا كانت التجربة أصل الإبداع الشعري فإن الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة هى الصورة ، فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيرة ذات أجزاء هي بدورها صورة جزئية (١٤٩)

وهى أي الصورة :"ذالك الشكل الفني الذى تتخده الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فى سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب تجربته"(١٥٠).

والصورة أيضا :"هي الوسيلة الفنية التى يستطيع الشاعر – من خلالها – التأثير على قرائه أو سامعيه – من خلال عاطفتة الجياشة ،وخياله الخصب ، وأسلوبة العذب ،وتصويرة الجميل"(١٥١).

وعماد الصورة ، وركنها الأساس الخيال .. حيث لا يخفى ماله من أثر محوري ، ودور جوهري – فى بنائها وتشكيلها .

---

(١٤٧) الأدب وفنونه د/ محمد مندور صـ ٣٨ ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة
(١٤٨) الصورة الأدبية–تأريخ ونقد– د/على على صبيح صـ١٤٩–ط دار إحياء الكتب العربية د.ت .
(١٤٩) النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمى هلال صـ ٤١٧ – ط دار نهضة مصر .
(١٥٠) الأتجاة الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر د/عبد الحميد عبد القادر القط _ص٣٩١ ط دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨١ م.
(١٥١) الأسلوب– أحمد الشايب –ص٢٣٤ – ط المكتبة الفاروقية – الاسكندرية .

ولنفسح المجال للأستاذ سيد قطب ليحدثنا عن القيمة الفنية للخيال: "التصوير" ، حيث يقول : " وهو – أي التصوير – يعبر بالصورة الحسية المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، ثم يرتقى بالصورة فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة ، أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فإذا المشاهد والقصص والمناظر فيها حركة، وحياة[١٥٢].

وكثيراً ما يتكئ الأديب على الصور ، ويعتمد على الأخيلة التى تبرزما يعتمل فى نفسه من مشاعر وأحاسيس ، وما يستقر فى أعماقه من عواطف وانفعالات ، حيث يعبر من خلالها تعبيراً حياً مؤثراً ، مجسداً بذلك مشاعره ، ومصوراً انفعالاته .. فالصورة فى معناها الجزئي والكلي هي الوسيلة الفنية لنقل التجربة الشعورية ، أو هي : " علاقة صريحة ، أو ضمنية بين تعبيرين ، أو أكثر تقام بحيث تُضفى على أحد التعابير ، أو على مجموعة من التعبيرات لوناً من العاطفة يكشف معناه التخيلي ، وليس معناه الحرفي دائماً ، ويتم توجيهه ، ويعاد خلقه إلى حدٍ ما، من خلال ارتباطه أو تطابقه مع التعبير أو التعبيرات الأخرى[١٥٣].

والصورة الفنية تشمل كل : " ما يستعين به الشاعر وينجح – من خلاله– فى توصيل تجربته إلى المتلقى ؛ لأن مهمة الصورة هي تجسيد ما هو معنوي ، وتقديمه فى صورة مُحسَّة ، سواء أكان ذلك عن طريق التشبيه والاستعارة والكناية [١٥٤].

ويطيب لنا أن نحيا – خلال السطور المقبلة – بإذن الله سبحانه ، وبتوفيقه – مع الصورة الفنية التى ألفها خيال الشاعر – خلال تجاربه فى المرأة – حيث نلتقى فى ذلك الصدد بلونين من الصور .. أحدهما : جزئي يقوم على التشبيه ، والاستعارة والكناية ... حيث تصور كل واحدة منها مشهداً صغيراً ، وتجسد صورة محددة .. والآخر كلي تتآزر فيه تلك الصور الجزئية ، وتتآخى وتتضام وتمتزج فيما بينها ، بجانب – عناصر اللون والصوت والحركة بالإضافة إلى المفردات الدالة ، والكلمات المعبرة ، والعبارات المُشعة التى يستعين بها المبدع فى إبراز مشاعره ،

---

(١٥٢) التصوير الفني فى القرآن الكريم – سيد قطب – صـ ٣٤ .
(١٥٣) الصورة والبناء الشعري د/محمد حسن عبدالله – صـ ٣٧ – ط ١٩٨١م .
(١٥٤) عمل الناقد : د/عبد اللاه محمود حسن – صـ ٨٨ – الطبعة الأولى ١٩٨٨ .

وتجسيد انفعالاته ، بحيث تكوّن تلك الأشياء مجتمعة – فى النهاية – لوحة فنية كاملة ، وتُشكل صورة فنية كلية .

أولاً: الصور الجزئية .

أ–التصوير فى إطار التشبيهات :

الناظر فى تجارب الشاعر فى المرأة يجده قد استعان فى بعضها بالتشبيه، مفيداً منه فى إبراز معانيه ومضامينه ، وتجسيد انفعالاته وأحاسيسه .

ومن التجارب التى كان للتشبيه فيها أثر فاعل ، ودور بارز – خلال شعر العشماوي فى المرأة – ما جاء فى تلك التجربة التى يؤكد فيها عظم فضل ونفع أمه بالنسبة له – وذلك من خلال تجسيد حالته ، وتصوير واقعه بعد فراقها .. حيث يستعين بالتشبيه فى إبراز أحاسيسه ، وتجسيد انفعالاته – إزاء ذلك الموقف الذى يقفه هنا .. حيث يقول:

صرت كالطفل حين فارقت أمي ∴ تائهاً مثل ريشة في الفضاء
كلما هبت الرياح رمتها ∴ في مهاوى توجس وانطواء
يستثير السراب فيه حنيناً ∴ جارفاً نحو قطرة من ماء
ويُريه الغبار ليلاً بهيما ∴ في نهار معفر الأجواء
تركتني كواقف فوق تل ∴ جفنه يشتكي من الأقذاء [١٥٥]

وهكذا نرى الشاعر – عبر تجربته المثيرة الصادقة هذه – يُكثفُ من استعمال التشبيه .. متخذاً منه أداة أساسية فى تجسيد انفعالاته ، وتصوير أحاسيسه إزاء ذلك الموقف الذى يقفه هنا .. حيث يتخذه وسيلة فى التقريب بين المعانى على نحو يوقظ فى المتلقين خواطرهم ، ويُحرك مشاعرهم ، ويثير انتباههم .. جامعاً فى تلك الصور التشبيهية بين الإفادة والحسن .

حيث نرى شاعرنا – عبر تجربته هذه – يصور نفسه فى فراقه لأمه بالطفل حين يفارق أمه .. حيث يغدو حائراً قلقاً ، ويبات خائفاً وجلاً ، فاقداً للدفء والحنان ، والأنس والأمان ، تتنازعه أحداث الزمان ، وتتجاذبه عاديات الليالى والأيام، فيغدو من ثم كريشة فى الفضاء، لا وزن لها ، ولا يقر لها قرار ، ولا تبقى

(١٥٥) ديوان :هي أمي – صـ ١٦ ، ١٧ .

على حال ، كلما هبت الريح هوت بها مُلقية إياها حيث الوحشة والضياع، والهلاك والفناء .. فياله من تصوير بياني رائق بليغ يصور من خلاله الشاعر شدة حاجته لأمه ، وعدم تصور حياته بدونها مثلما الطفل بالنسبة لأمه .. كما نلتقى عبر تلك التجربة ذاتها – بصوره تشبيهية أخرى تتضام مع الصورة المذكورة قبل قليل ، وتؤكد معها نفس المضمون الذى هو لُب التجربة ، وأساسها هنا – حيث تصور نفسه فى فقده لأمه ، وتوقه الشديد ، وشوقه الجارف ، ولهفته العارمة لأن ينعم فى ظلها ثانية – بالذى يسلك البيداء ، ويجوب الصحراء ، مقاسياً وهج الشمس الحمراء فى وقت الظهيرة ، وملاقيا لفح الحرور فى ذلك الهجير ، متلهفاً إلى قطرة ماء تُخَيّل إليه ، وتتراءى من بعيد .. وإذا به يسير مسرعاً نحو هذا السراب والخيال ، يدفعه فى ذلك حنين جارف نحو الري ، ولكن ومن أسف !! حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .. فيخيب من ثم أمله ، ويضيع رجاؤه، وهكذا أمه لن تعود إليه ثانية مهما رجي ، وطمع فى ذلك .

كما يصور شاعرنا نفسه – خلال تلك التجربة أيضاً – فى ظل ما يسيطر عليه من مشاعر القلق ، والحيرة والتيه والاضطراب ، والوحشة والاغتراب ، والقسوة والحرمان ، والتخبط والضياع بعد أن فارقته أمه الحبيبة – يصور نفسه وقد تخيلت حلول الليل قبل الأوان بعدما تلبدت سماء النهار بالغمام والهموم والأحزان ، وتعفرت أجواء الكون بالغبار والأقذاء .. فاستحال النهار فى ناظري الشاعر ليلاً بهيماً شديد الظلام .. وهذه أيضاً صورة قاتمة غائمة يخيم عليها الحزن والوجوم ، وتسودها الكآبة والغموم تجسيداً لتلك المشاعر القاتمة ، والأحاسيس الغائمة التى تسيطر على نفس الشاعر الحزينة الملتاعة التى فجعت فى فقد حبيب غال عزيز .. ويلحظ أن المشبه به فى الصورتين كان أمراً حسياً مشاهداً حيث شبه به الشاعر أمراً معنوياً ، منتقلاً بذلك من الخفاء إلى العيان ، وهذا اللون من ألوان التشبيه هو : "من أكمل أنواع التشبيه ، وأجدرها بتحقيق الوظيفة الأساسية للتشبيه ، وهى التصوير فإنه يخرج المعانى المعقولة ، والأفكار الخفية إلى صور مرئية خليقة بالإقناع والتأثير ؛ لأن المشبه معقول وفى المعقولات خفاء ، والمشبه به محسوس ، وفى المحسوسات ظهور ، وإنما صار هذا النوع مستحسناً عند النقاد والبلاغيين

؛ لأنه ينسجم مع الفطرة الإنسانية السوية التى تنشد البيان والخروج من سجن الخفاء إلى العيان ، والوضوح [١٥٦] .

هذا وتفيض تلك التجربة القوية المؤثرة بالألفاظ الموحية ،والتراكيب الدالة التى أسهمت مع تلك الصور التشبيهية فى تجسيد أحاسيس الشاعر ، وإبراز انفعالاته ، من مثل : تائهاً ، ريشة فى الفضاء – هبت الرياح – رمتها – مهاوى ، توجس ، انطواء – موغراً – الظهيرة الحمراء – السراب – حنيناً جارفاً – نهار معفر الأجواء ... بجانب ما تتضمنه تلك اللوحة الفنية الرائقة من عناصر اللون والحركة والصوت .. وما بين تلك الصور الجزئية الواردة فيها من تلاحم وامتزاج ، مما يجعلها صورة كلية شائقة ... لا ضير فى أن تأتي الدراسة عليها ثانية ، حيث معالجة الصورة الكلية فى تجارب الشاعر فى المرأة –بإذن الله تعالى– وبتوفيقه ؛ لتفصيل القول فى تلك الجوانب .

ومن المواضع الجيدة التى تحقق فيها التشبيه – خلال تجارب الشاعر فى المرأة أيضاً ما جاء فى قوله – وهو بمعرض بكاء أمه ، ورثائها – يهيب بقلبه أن يصبر إزاء ذلك المصاب الجلل ، والرزء الفادح الذى نفذ إلى أعماقه .. فأحدث فى قلبه جرحاً غائراً ... مستخلصاً من ذلك الموقف الباكى المؤثر الحكمة والتأمل ، والقول الصائب السديد فى شأن الحياة والأحياء ، مصبراً بذلك نفسه ، ومعزياً إياها فيما حل بها ونزل ، حيث يقول :

يا قلب ، صبرك فالحياة كدفتر ∴ عمر الخلائق فيه نص مختصر

ما هذه الدنيا سوى أرجوحة ∴ لا تستقر ولا يقر بها البشر [١٥٧]

وهو يشبه الحياة الدنيا هنا بصورتين تحملانه على أن يرضى ويصبر ، ولا يجزع ، ولا يهلع إزاء ما حل به ونزل ، الأولى : تشبيهه إياها أي الدنيا بالدفتر الذى يحوى بين دفتيه عمر الخلائق فهو – أي ذلك الدفتر – محدود مهما كثرت أوراقه .. بل إن تلك الأعمار لا تشغل صفحاته جميعاً .. وإنما هي تشكل بعضاً منها ...

---

(١٥٦) أساليب البيان ، والصورة القرآنية – دراسة تحليلية لعلم البيان – د/محمد إبراهيم شادى – صـ ٨٦ – ط دار والى الإسلامية – المنصورة – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م .

(١٥٧) ديوان : هي أمى – صـ ٣٣ .

..... فالحيـــــاة كـــــدفتر ∴ عمـــر الخلائـــق فيـــه نـــص مختصـــر

والثانية تشبيهه إياها بالأرجوحة التى لا تبقى الناس على حالٍ ، فتعلو بهم وتهبط ، فهي دائمة التقلب بهم ، لا أمان لهم فيها ، ولا استقرار لهم عليها .

وإذا كان هذا هو حال الدنيا مع الخلائق ، وذلك هو ديدنها مع البشر فلتصبر يا قلب ، ولترضي يا نفس إزاء ما حل بكما من مصائب ، فلستُ أول من فُجع بفقد حبيب ، ولا آخر من فُجع .

ونلتقى – خلال تجارب الشاعر فى المرأة – بتلك الصورة التشبيهية الرائقة التى يجسد – من خلالها – وكما هو متحقق فى تجربته السابقة ، وفى الكثير الغالب من ابداعاته فى أمه – عظم فضلها ونفعها ، وبالغ أثرها ، ومحورية دورها فى بناء كيانه ، وتشكيل وجدانه .. حيث يقف من والدته هنا موقف الباكى الذى أفقده فراقها الأمن والأمان ، فراح يعانى الحيرة ، ويقاسى الضياع ، متجشماً من بعدها طرقاً وعرة مقفرة ، وسبلاً ملتوية مجدبة تُفرش بالآلام ، والأوهام .. وهو يسير فيها متخبطاً دونما هاد يهديه الطريق ، ولا علامات بها يهتدي .. ها هو ذا شاعرنا يناجى روح أمه الغالية .. مصوراً طبيعة حياته بعد رحيلها .. حيث يقول :

أمـــاه صـــيرنى فراقـــك حـــائراً ∴ فـــى بيـــد آلام تســـل ســـرابها

مازلـــت أشـــعر بالضـــياع كســـائر ∴ فـــى مهمـــه تســـفى الريـــاح ترابهـــا[١٥٨]

ويفيض هذان البيتان – كما نرى – بالألفاظ الدالة والمفردات المعبرة ، والعبارات الموحية التى تؤكد عِظم مصاب الشاعر فى أمه ، وشدة إحساسه بفقدها وبالغ حزنه ، وعمق ألمه إزاء فراقها ، من مثل كلمات : صيرنى فراقك حائراً – فى بيد آلام – تسل سرابها – أشعر بالضياع – مهمه – تسفى الرياح ترابها.. حيث توقفنا تلك المفردات والتراكيب على طبيعة حياة الشاعر بعد فراق والدته .. فهو يبدو مقيماً فى خضم متلاطم من الحيرة والضياع ، تسيطر عليه الآلام ، وتستبد به الأحزان ، وتتناوشه المخاوف والأوهام ، ولم لا ، وهو يسير وسط طرق ملتوية ، وشعاب مقفرة فرشها الآلام ، وترابها الأحزان :

أمّـــاه صـــيرنى فراقـــك حـــائراً ∴ فـــــــى بيـــــــد آلام .. !!

(١٥٨)ديوان : هي أمى – صـ ٣٧ .

وما أبلغ هذا التعبير ، وأدله على المضمون هنا ، حيث يجسد حال وواقع الشاعر إزاء فراق والدته أيما تجسيد ، ويلحظ أن الشاعر حين ناجى روح أمه هنا استعمل من بين أدوات النداء أداة تدل على القُرب ، وهي الهمزة ؛ منبئاً فى ذلك عن شدة قرب أمه من قلبه ، وأنها بالرغم – من ذهابها – إلا أن روحها لم تزل تتربع فى أعماقه ، وتستقر فى حناياه .. حيث يرى أثرها فى كل شيء إيجابي له فى هذه الحياة.

كما يُلحظ تعبير الشاعر هنا بالفعل المضارع المسبوق بالفعل الناسخ "ما زلت" حيث قوله : مازلت أشعر بالضياع .. وما يدلان عليه من تجدد واستمرار إحساس الشاعر بالحيرة والضياع بعد ذهاب أمه ؛ لما لها من أثر كبير، ودور محوري فى حياته.

وبجانب تلك المفردات الموحية ، والتراكيب الدالة التى تجسد حال وطبيعة حياة الشاعر بعد فقد أمه ، تأتى تلك الصورة التشبيهية الرائقة التى تشبه – فى صياغتها – إلى حد كبير الصورة التشبيهية المذكورة فى الأنموذج السابق .. فإذا كان الشاعر قد صور نفسه هناك – فى حيرتها وضياعها ، وتيهها واضطرابها بمن يسلك البيد ، ويرتاد الفيافى .. مقاسياً حر الشمس فى وقت الظهيرة ، وفى ذلك الهجير .. فإنه يصورها هُنا فى شعورها بالحيرة والضياع والتخبط أيضا بمن يسير فى طريق غير مُعبَّدة معفرة الأجواء ، مغبَّرة الجنبات : كسائر فى مهمة تسفى الرياح ترابها ولا يخفى ما تجسده تلك الصورة الحسية الرائقة ، وتؤكده من عظم فضل أم الشاعر عليه ، ومن ثم عظم وفداحة مصابه فى فقدها .

وأختتم تلك المواضع التى تحقق فيها التشبيه خلال تجارب الشاعر فى المرأة بقوله – وهو بمعرض بكاء أمه ، يشبهها بالشمس فى علو شأنها، ورفعة قدرها، وعظم نفعها ، مؤكداً من خلال ذلك التشبيه البليغ تجدد نفع أمه ، واستمرار عطائها بالرغم من غيابها :

إنهـا الشـمسُ لم يـزل فـى ضـلوعى ∴ نورهـا سـاطعاً بـرغم الغيـاب [١٥٩]

وما أجمل وأبلغ أن يشبه الشاعر أمه هنا بالشمس!! فهي – أي الشمس – جمّة الفوائد ، متعددة المنافع يتجدد نفعها ، ولا ينقطع عطاؤها .. وكذلك أم الشاعر

(١٥٩) ديوان : هي أمى – صـ ٤٩ .

بالنسبة له حيث تبقى آثارها ، وتظل توجيهاتها تنطق بعلو قدرها ، وعظم فضلها ونفعها .

ويُلحظ أن الشاعر قد أتى بالتشبيه هنا محذوف الأداة ؛ قاصداً بذلك أن يسوي بين المشبه والمشبه به هُنا تسوية تامة ، مفسحاً بذلك المجال للمتلقين أن يتخيلوا الصفات المشتركة بين الطرفين هنا :(أمه ، والشمس) ، وأن يذهبوا فى ذلك كل مذهب .

ب- التصوير فى إطار الاستعارات :

وللاستعارة وجود وتحقق – هي الأخرى – خلال تجارب الشاعر فى المرأة .. والناظر فى تلك المواضع التى استعان فيها الشاعر بالاستعارة ، ووظفها فى إبراز معانيه ، وتجسيد أحاسيسه ، وتصوير مشاعره ، يلحظ أنها فى – أكثرها – من المكنية – تلك التى تقوم على التشخيص والتجسيد – من خلال بث الحياة والحركة فى الجمادات ، وخلع صفات العقلاء عليها ، وإثبات سمات البشر لها ، من مثل : الضحك والبكاء ، والبشر ، والتجهم .. والتجاوب والانفعال .. وغير ذلك مما يتصف به البشر ، ويتسم به العقلاء .. وهذا كله هو سبيل الاستعارة المكنية ، وطريقها الذى تنتهجه .. وهو ما يُعرف بالمشاركة الوجدانية ...على نحو ما يبدو متحققاً – خلال تجارب الشاعر التالية.

فها هو ذا شاعرنا يسند – عبر تجربته الإنسانية المؤثرة هذه لليل ، ويخلع عليه سمات الأحياء .. حيث يصفه بالطول والامتداد ، ويجعل من وجهه المُظلم شخصاً متجهماً يخيفه ويرعبه ويُطبق عليه بظلماته الممتدة ، وأحزانه الثقيلة ..، ويقيم له وسط تلك الظلمات سجناً يعانى قيده ، ويقاسى أغلاله ، ويزيد من وحشته ، ويمد فى شقائه .. كل تلك الصفات خلعها الشاعر على الليل ، وأثبتها له –على سبيل التخيل – الذى هو طريق الاستعارة المكنية ، وسبيلها الذى تنتهجه .. حيث استعان بذلك فى تجسيد حاله ، وتصوير واقعه ، وما يلفه ويشمله من مشاعر الحيرة والحسرة ، والضيق والقلق ، والحزن والألم بعد أن ذاق مرارة فراق أمه الحبيبة ، وتجرع كأس وفاتها .

وشاعرنا – وهو المؤمن الموقن بربه يتبدى له وسط تلك الظلمات المطبقة التى كادت تؤدى به –أمل ، يتبدى له فى اثناء ذلك بريق أمل ، وبصيص نور .. تبددت منهما تلك الظلمات ، وانجلت بهما تلك الغياهب ، وانقشع البلاء ،

فراح القلب المتعب المحزون المثقل بالهموم يشعر بالراحة والإيناس بعد أن نزلت عليه السكينة ، وشملته الطمأنينة .. حيث يقول :

سافر الليل بى بطيئاً ثقيلاً ∴ باهت البدر خافت الجوزاء
يتمطى بصلبه ويرينى ∴ كيف تبدو حقيقة الثقلاء؟
وجه ظلمائه تجهم حتى ∴ خاف قلبي تجهم الظلماء
سافر الليل بى فلما طوانى ∴ فى ظلام الدُّجى وأشجى مسائى
وبنى لى من الغياهب سجناً ∴ زاد من وحشتى وطول شقائى
حينما أسرف الظلام تجلَّى ∴ من يقينى بالله أسمى ضياء
شمعة بددت ظلام الدياجى ∴ وبإشراقها دفعت بلائى
يا جبال الأسى تطامنت لما ∴ صار قلبي فى القمة الشماء[١٦٠]

وتبدو الاستعارة المكنية متحققة أيضاً – خلال تلك التجربة – فى إسناد صفة الإسراف للظلام للدلالة على كونه مطبقاً ، وممتداً على نفس الشاعر ، وأنه قد بلغ الذروة فى إطباقه وامتداده .. حيث يقول : أسرف الظلام ، وكأنه عاصٍ أسرف فى الذنوب .. أو عاقل أسرف وتجاوز الحد المعتاد فى فعله.

وما أبلغ هذا التعبير الوارد فى البيت الأخير – خلال تلك التجربة "جبال الأسى" .. حيث جعل من الأسى الذى يستبد به ، ويتملكه إزاء فقد أمه – فى ضخامته ، وتمكنه من نفسه جبالاً – تلك الجبال قد استقرت وتطامنت لما رأت قلب الشاعر يحوز قمتها ، ويتبوأ ذروتها !! يقصد حينما تجلَّد بالصبر ، ولاذ واطمأن بالرضا .. وهكذا تقوم التجربة هنا على التخيل –الذى بث الشاعر– من خلاله فى الليل صفات الأحياء ، وأثبت له سمات العقلاء ، مجسداً من خلال تلك الاستعارات الرائقة ما يستبد به ، ويتملكه من مشاعر القلق والحيرة والضياع والحسرة ، والقسوة والوحشة .. متخذاً من الليل أساساً فى ذلك التصوير الاستعاري .. ومعلوم أن الليل هو جلاّب الأحزان .. والهموم .. حيث يخلو المرء فيه بنفسه فتجول بخاطره الذكريات ، والأحداث .

(١٦٠) ديوان : هي أمى – صـ ١٩ ، ٢٠ .

ها هو ذا شاعرنا – وعبر تجربة أخرى من تجاربه فى المرأة – يخلع على "باحته" مسقط رأسه ، ومعهد طفولته ، ومسرح شبابه – تلك التى يصفها بباحة الحب ؛ لما لها فى قلبه من حُب وإعزاز وتقدير ، ها هو ذا يخلع على ذلك الربع العزيز الغالى على نفسه بعض سمات العقلاء ، ويثبت له طرفاً من صفات الأحياء على سبيل التخيل الذى هو طريق الاستعارة المكنية ، وسبيلها فى التصوير ، حيث يجعلها تُريح فؤاده .. كما تجعلها تتعبه .. عاقداً من خلال ذلك الوصفين المتناقضين مقابلة بين حالين مراً به ، وواقعين تعاقبا عليه فى تلك الباحة .. حاله وواقعه فى أثناء حياة أمه فيها ، وحاله وواقعه بعد رحيلها عنها .. حيث يقول :

باحة الحُب كم أرحتِ فؤادى ∴ فلماذا جنحت للإتعاب؟!

كنت لى مسرحاً لأنسى وصفوى ∴ كيف أصبحت مسرحاً لاغترابي؟![١٦١]

فقد أسند الشاعر – كما نرى – لذلك الرَّبع الذى نشأ فيه ، ودرج فى ظل أم رءوم – صفات الراحة ، والإتعاب ، والأنس ، والصفو والاغتراب ... مسائلاً إياه ، ومتعجباً بين يديه كيف تبدّل الحال فيه ؟ ولماذا تغير المقام به ؟! وكأنه عاقل تماماً يعى ما يوجه إليه من قول ، وذلك على سبيل التخيل ، وعن طريق الاستعارة المكنية .. تثير خيال المتلقين ، وتوقظ مشاعرهم .

وفى تجربة أخرى –بين تجارب الشاعر فى المرأة– نراه يُمعن فى تجسيد ما يسيطر عليه، ويلفُّه من مشاعر الحسرة والضياع، والوحشة والخواء، والحيرة والاضطراب والألم والأنين ، والعذاب ، والحنين إزاء فقد أمِّه – نراه يُمعن فى تجسيد تلك المشاعر –من خلال تعبيراته الدالة ، وتراكيبه البليغة التى تفيض بها تلك الأبيات ، .. وأيضا – من خلال توظيفه للتشبيه– الذى يصور نفسه – من خلاله – فى إحساسه بالضياع – بمن يسير فى طريق مجهولة المعالم ، غير مُعبَّدة السُّبل ، يخيم على فضائها غبار ، ويعلو أفقها تراب ... وتدفع وتلقى به الريح العاصفة .. ، وكذلك من خلال تلك الاستعارات المكنية المتتابعة التى خلع – من خلالها الشاعر – على الجمادات من حوله صفات العقلاء ، وأثبت لها سمات الأحياء ، حيث جعلها تشاركه أحزانه ، وتقاسمه همومه بعد أن أثبت لها صفات البكاء والأنين ، وبعد أن جعل لفح الأنين يصيبها ويحرقها بناره اللاذعة .. وذلك

(١٦١) ديوان : هي أمى – صـ ٤٧ .

على سبيل التخيل الذى هو طريق الاستعارة المكنية ؛ إمعاناً بذلك فى تجسيد حالته البائسة ، وواقعه الحزين – إزاء فراق والدته الحبيبة ، حيث يقول مناجياً روح والدته :

أمـــاه صـــيرنى فراقـــك حـــــائراً ∴ فـــى بيـــد آلام تســـل ســـرابها
مـــا زلـــت أشـــعر بالضـــياع كســـائر ∴ فـــى مهمـــه تســـفى الريـــاح ترابهـــا
أواه مـــن هـــذا الفـــراغ وجدتـــه ∴ فـــى نفســـى الحـــرى يزيـــد عـــذابها!
جـــداران مكتـــبتي وكـــل رفوفهـــا ∴ تبكـــى وتشـــعل بـــالأنين كتـــابها
وجميـــع أوراقـــى وكـــل دفاتـــرى ∴ وقصـــائدى لفـــح الأنـــين أصـــابها!![١٦٢]

فهل عهدنا جدران مكتبة ، ورفوفها تبكى ، وتحث وتحمل الكتب على البكاء؟! .. وهل عهدنا الأوراق ، والدفاتر ، والقصائد قد أصابها لفح الأنين ؟! .. إنه التخيل الرائع الذى يبث الشاعر من خلاله فى الجمادات الحياة ، ويمنحها صفات العقلاء ، مما يؤكد المعنى ، ويزيده جلاء ووضوحاً هنا ، وهذا هو طبيعة الاستعارة المكنية .. وتلك هي وظيفتها ، حيث تثير خيال المتلقين ، وتوقظ فى أعماقهم نوازع التخيل والتفكير .

وأختتم تلك الطائفة من الأنماذج التى تحقق فيها ذلك اللون من الاستعارة – خلال تجارب الشاعر فى المرأة – بقوله يخلع على غير العقلاء صفات العقلاء ، ويُثبت للجمادات سمات الأحياء ، حيث يؤكد خلال التجربة هنا تبدل حال المجتمع المسلم المعاصر ، وتنكب جل أبنائه طريق الهداية والرشاد .. فسادت فيه – من ثم – الرذائل ، وراجت ..فى الوقت الذى تخلفت فيه الفضائل ، وكسدت :

فـــى عصـــرنا لـــــو تعلمـــين مفـــاوز ∴ هـــــرم الزمـــان لهـــا وفيـــه فجـــاج
ســـوق الفضـــيلة والكســـاد تحالفـــا ∴ فيهـــــا وســـــوق رذيلـــــة ورواج[١٦٣]

فلنا أن نتأمل إسناد الشاعر صفة الهرم للزمان ، وجعله من الزمان عاقلاً تشيب ناصيته ، وتشتعل رأسه مما يرى من أهوال ونوازل ، والزمان قد هرم

(١٦٢)ديوان : هي أمى – صـ ٣٧ .
(١٦٣) ديوان إلى حواء – صـ ١٥٨ .

هنا مما رآه من تبدّل حال المسلمين ، وتنكب أكثرهم للطريق المستقيم ، وتدنى أخلاقيات نسائهم – فى أكثرهن .. ولنا أن نتأمل أيضاً كيف عقد الشاعر – خلال بيتيه هذين – لكل من الفضيلة والرذيلة سوقاً مقامة .. جاعلاً من هذين السوقين المتباينين سوق الفضيلة ، وسوق الرذيلة عاقلين ، تحالف أحدهما مع الكساد ، بينما تحالف الآخر مع الرواج ، مؤكداً من خلال تلك الصورة الاستعارية الطريفة مضمونه ، ومبرزاً فكرته هنا.

ج- التصوير فى إطار الكنايات :

والكناية – هي الأخرى كان لها وجود وتحقق فى تجارب الشاعر فى المرأة ، وإن كانت نادرة التحقق ، بحيث يمكن إحصاء المواضع التى تحققت فيها الكناية ، فهي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة .. واستعمل الشاعر من ألوانها ما كان كناية عن موصوف ، وما كان كناية عن صفة .. على نحو ما ستقف عليه ، وتوضحه السطور المقبلة – بإذن الله سبحانه – خلال تجارب الشاعر فى المرأة .

فها هو ذا شاعرنا يُكنى عن زوجه بذكر ما يميزها ، ويدل عليها .. حيث يقول من وحي تجربة الغربة .. وقد استبد به الحنين ، وألح عليه الشوق نحو زوجه البعيدة عن ناظريه ، الماثلة فى كيانه :

ألا يا بعيداً ويسكن قلبي ∴ ومن أجله لوعتى والفتون

ومن أجله غرّدت ذكرياتى ∴ ومن أجله هدَّ قلبي الأنين[١٦٤]

فهو يكنى بكلمة :"بعيد" هنا عن رفيقة دربه ، وشريكة عمره – زوجه – تلك التى وإن حالت الغربة بينه وبينها ، وحرمه البعاد من رؤيتها ، إلا أنها تسكن قلبه ، وتستقر فى أعماقه ، ومن أجل حبها وذكرها تستبد به لوعة الغربة والفراق ، ويهد قلبه أنين البين والبعاد .

ومن أمثلة ذلك اللون من الكناية – خلال تجارب الشاعر– فى المرأة أيضاً قوله يكنى عن المحبوبة التى يبغيها . ويكلف بها :

يا وردة ما استطعت ألمسها ∴ أخشى بأن يفسدها اللمس !![١٦٥]

---

(١٦٤)المصدر السابق – صـ ١٢٤ .
(١٦٥)ديوان : إلى حواء – صـ ٨٥ .

فهو يكنى عن محبوبته بالوردة التى تسلم من أذى وعبث العابثين .. كاشفاً –من خلال ذلك التصوير البياني الرائق عن طبيعة نظرته للحب ، وكيفية علاقته بالمحبوبة .. فحبه نقي طاهر عفيف ، ومحبوبته حصان زران تظل مصونة سالمة من عبث العابثين ، وإفساد المفسدين .. وفى قول الشاعر : أخشى بأن يفسدها اللمس يؤكد طبيعة نظرته إلى الحب ، وفلسفته فى الهوى ، وأنها تقوم على الطهر والعفاف ، والسمو والرقي .

وها هو ذا شاعرنا يؤكد نظرته الراقية السامية إلى الحب – تلك التى تقوم على العفاف والطهر ، وتحلق فى سماء السمو والرقي ، حيث يشير إلى أنه يسمو بحبه ، ويرقى به ، محلقاً نحو الفضاء ، حيث : " البدر" – الذى كنى به عن محبوبته هنا ، مؤكداً ما يتسم به حبه من التصون والاباء .. بعيداً فى ذلك عن النزق والامتهان .. يقول :

أعشق البدر ولكن شامخاً ∴ لا صريعاً للهوى والنزق [١٦٦]

وقد كنى الشاعر – كما نرى – بالبدر عن محبوبته .. مؤمئاً – من خلال تلك التكنية – إلى طبيعة ذلك المحبوب .. فهو جميل تام الوسامة مثل القمر – حين يكون بدراً ، وبعيد عن عبث العابثين ، سالم من أذى المعتدين .

وأختتم تلك المواضع النادرة التى تحققت فيها الكناية – خلال تجارب الشاعر فى المرأة – بقوله .. يُكنى عن صفتين متقابلتين لا يخرج الحب والهوى عنهما .. حيث لا يعدو أن يكون حباً طاهراً نقياً عفيفاً ، فيه النفع والفائدة ، أو أن يكون حباً حسياً مفحشاً مبتذلاً فيه الضرر والهلاك :

نهران للأشواق ، هذا بالرضا ∴ عذب وهذا بالهموم أجاج [١٦٧]

فقد كنى الشاعر – كما نرى –: "بالنهر العذب" عن الحب الطاهر النقي العفيف .. وكنى فى المقابل :"بالنهر الأجاج" عن الحب الحسي الذى فيه تهتك وسقوط ، وابتذال ومروق ، وقد وفق الشاعر فى تلك التكنية ، وأحسن وأجاد .. حيث شخص الحب الطاهر العفيف ، وصوره فى صورة حسية محببة للنفس ، مستطابه لها ، فيها النفع والفائدة : "النهر العذب" : "الماء الصافى الزلال" – الذى

(١٦٦)المصدر السابق – صـ ١٠٢ .
(١٦٧)السابق ذاته – صـ ١٥٨ .

هو أكسير الحياة ، ومنبع الخصب ، ومصدر النماء ، وسر البقاء .. فى حين أنه – أي الشاعر – شخص اللون المقابل للحب العفيف – ذلك الذى يقوم على التهتك و الفحش والمجون .. وصوره فى صورة حسية منفرة مستقبحة مستهجنة للنفس فيها الضرر ، وفيها الهلاك : وهذا بالهموم أجاج فطعمه ملح غير مستساغ ، لا تقوم الحياة به ، ولا تستقيم .

وإن كنت أرى أن الشاعر لم يكن موفقاً حين عبَّر فى هذا الشأن بكلمة : " نهران " ، حيث تبدو قلقة غير دالة ولا مُشعَّة هنا ، وكان أولى للشاعر وأفضل أن يُعبر بدلاً منها بكلمة : " بحران" مثلاً ، إذ إن البحر إمَّا عذب فرات ، وإما ملح أجاج .. كما يبدو فى قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي البَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. ﴾ [١٦٨] بخلاف التعبير بكلمة :"نهران " حيث تنسحب على المكان الذى يجرى بالماء العذب الفرات فقط ، لا الذى يجرى بالملح الأجاج .

ثانياً : الصورة الكلية - خلال تجارب الشاعر فى المرأة :

آن لليراع الآن أن يتحدث عن اللون الثانى من ألوان التصوير الذى ألفه خيال شاعرنا – خلال تجاربه فى المرأة – وهو الصورة الكلية – تلك التى تتألف من عدّة صور جزئية متآخية تكون فى النهاية لوحة فنية كاملة تتمثل فى المشهد الذى يعزم الشاعر على تصويره وتجسيده ، ويقصد إلى تجسيمه وتشخيصه ..: " فهي تعتمد على جزئيات مؤتلفة لو نظرت إلى كل منها مفردة لم تجد لها دلالة نفسية متكاملة الجوانب"[١٦٩] .

وليست الصورة المفردة وحدها هي القادرة على تشكيل الصورة الكلية ، بل تتآزر معها الكلمات الدالة على اللون والصوت والحركة ، وكذلك الكلمات ذات الدلالة الموحية ، كل هذه العناصر مجتمعة هي القادرة على رسم اللوحة الفنية المتكاملة من جميع جوانبها [١٧٠] .

---

(١٦٨) من الآية رقم ١٢ من سورة فاطر .

(١٦٩) الشعر العربي المعاصر روائعه ومدخل لقراءته: د/الطاهر أحمد مكى صـ ٨٢ – ط دار المعارف – القاهرة ١٩٨٦م .

(١٧٠) رسائل القاضى الفاضل – دراسة تحليلية : د/ محمد عبد الرحمن عطاالله – تقديم د/ محمد زغلول سلام – صـ ٢٢٨ – الناشر دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ٢٠٠٠م .

وهذا اللون من التصوير الفنى –أعنى الصورة الكلية – قليل الورود ، ونادر التحقق فى تجارب الشاعر فى المرأة .

ومن هذا القليل النادر قوله يجسد مفهوم الأمومة ، ويكشف عن كنهه وحقيقته ، منطلقاً فى حديثه هنا من منطلق أمه الرءوم – تلك التى يراها مثلاً أعلى فى الأمومة .. حيث تتبوأ أسمى معانيها ، وتحتل أعلى مراتبها ، ومن ثم تغدو أنموذجاً يُقتدى به ويُحتذى :

ماذا أقول عن الأمومة ، إنها ∴ شلال حب من مشاعرك انحدر؟!

شجر وأزهار يحدثنا الشذا ∴ عنها حديث العطر فى الكون انتشر

إن قلت إن الفجر يشرب نوره ∴ من نبعها الصافى فقولى معتبر[١٧١]

ويُلحظ أن الشاعر قد استهل لوحته الفنية الرائقة هذه بذلك التساؤل الذى أثار به الأذهان ، ولفت الأنظار ، واسترعى الانتباه : ماذا أقول عن الأمومة؟! .. وكأنى به وقد وقف هنا عاجزاً عن أن يعبر بكلمات تفى بقدر الأمومة متمثلة فى أمه ، وبدا مقصراً فى تصوير وتجسيد مدى فضلها وقدرها وعلو شأنها ، أو أنه لم يستطع تصيد الأفكار والرؤى ، ولا التقاط المعانى والصور التى تجسد معنى الأمومة ، وتؤكد فضل وقدر أمه .. حيث تتزاحم على وجدانه المضامين والرؤى ، وتتصارع على لبه المعانى والصور من كثرتها ، وعدم تناهيها .. ومن ثم رأيناه يلتقط من بين تلك المعانى والصور هذه الصورة الفنية الدالة البليغة المعبرة التى يجسد – من خلالها – مفهوم الأمومة بعامة ، وأنها أي الأمومة شلال حب منهمر متدفق بالعطاء ، متجدد به ، يتدفق ويتجدد من من ذلك النبع الحانى ، والسيل الفائض ، حيث مشاعر أمه الرءوم الحنون .. وتلك صورة تشبيهية رائقة أكد بها الشاعر ما تفيض به أمه من مشاعر الحُب والحنان ، والعطاء والإيثار ، والعطف والرأمان .. فهي نهر من الحب والحنان فائض يتدفق عطاؤه ، وينهمر ماؤه ، وتتفجر عيونه ، وإذا بالأمهات يتسابقن نحوه لينهلن من معينه الثرِّ الهتان ، فما أبلغ هذا التعبير التصويري : شلال حُبٍ .. فى الدلالة هنا على تدفق مشاعر الحب والحنو ، وانهمارها وتجددها وغزارتها فى أعماق أمِّه وحناياها إزاء بنيها ..

(١٧١) ديوان : هي أمى صـ ٣٢ .

حيث تشبه فى ذلك الشلال الذى يندفع خلاله الماء "الحب " ويتحرك فى تدفق وغزارة ، وتتابع وانهمار ، فى غير ما توقف ولا انقطاع .

وتقوم تلك اللوحة الكلية البديعة هنا – كما نرى – على الصور الجزئية التى تضامت وتآزرت فى إبراز وإتمام المضمون :" المشهد الكلي " الذى يعمد الشاعر إلى رسمه وتجسيده هنا ، من مثل: هذه الصورة التشبيهية الرائقة البليغة التى صور خلالها الشاعر ، وجسد الأمومة – فى عمومها بأنها : شلال حب منهمر متدفق انحدر من مشاعر أمه الرءوم المعطاء ؛ تعبيراً فى ذلك ، وتأكيداً لما يكنه الشاعر من مشاعر الحب والتقدير البالغين لشخص أمه ، والوفاء والاعزاز النادرين لروحها ، بعد أن غدت النبع الصافي ، والمنهل الثرّ الذى تنهل منه الأمهات ، مستمدة الحب والعطاء، والتضحية والفداء ، والبذل والإيثار ..

كما تقوم اللوحة الكلية على تلك الصور الاستعارية المكنية التى تقوم على التشخيص والتجسيم .. حيث يخلع الشاعر – خلالها – على غير العقلاء سمات العقلاء .. ويثبت لغير الأحياء صفات الأحياء –وذلك على سبيل التخيل .. فالشذا يتكلم– مثلما يتكلم العقلاء .. والفجر يشرب مثل الأحياء .. وقد تضافر مع تلك الصور الجزئية فى بناء وتشكيل تلك اللوحة البديعة كل من اللون والصوت والحركة .. حيث غدت تلك العناصر تُلقى – بظلالها – على الصورة هنا ..يتمثل كل من الصوت والحركة فى تعبير الشاعر بكلمتي : شلال .. انحدر ..حيث تدلان على الصوت والحركة معاً ، إذ لا يخفى ما للماء – حين يكون شلالاً ينحدر من أعلى – من صوت :"جلبه وحركة " ملحوظتين ، ويتمثل عنصر الحركة أيضاً فى تعبير الشاعر بكلمة : "انتشر" الواردة فى البيت الأخير .. أما عنصر اللون فيتمثل فى كلمات : شجر ، أزهار ، الفجر – نوره الصافى ، بجانب ما تضمنته تلك اللوحة البديعة من كلمات دالة ، وعبارات رائقة من شأنها أن تجسد المشهد الكلي الذى يزمع الشاعر ، ويعزم على تجسيده هنا .

هذا إلى جانب عنصر التشخيص المسيطر على فضاء تلك التجربة .. حيث بدت ظواهر الطبيعة ومجاليها هنا .. وكأنها شخوص عقلاء بعد أن خلع الشاعر عليها سمات البشر ، ونسب إليها صفاتهم : " بحيث تضحى الطبيعة شخوصاً عاقلة تتفاعل وتتجاوب وتستشعر وجود الإنسان ، وتسمع نبض عواطفه

، ويخلع عليها الشاعر من ذاته ، فتمتزج الذات بالموضوع ؛ لتتحد فى رحاب الفن(١٧٢) .

.. وهكذا تتضافر تلك العناصر والمظاهر – مجتمعة – فى بناء وتشكيل تلك اللوحة البديعة – مما يكسبها هنا مزيداً من الجمال والطرافة ، والحيوية والإثارة .. والفجر – الذى هو نبع الحياة ، ومصدر النور ، يشرب نوره – الذى يطل به على الكائنات فيهديها الحركة والحياة بعد السكون والممات .. يشرب ذلك النور من نبع الأمومة الصافى الذى يفعم بالحياة ، ويفيض بالأمل .. يقصد : أن الفجر – بما فيه من حياة وأمل وحركة وعطاء إنما يستمد ذلك من نبع الأمومة الفياض – وهو – أي الشاعر – لا يجد فى ذلك التعبير مبالغة ولا ادعاء ، وإنما يجد فيه كبد الحقيقة ، وعين الصواب . . كل ذلك من منطلق حب الشاعر الشديد لأمه ، وتقديره البالغ لشخصها ، واعترافه بفضلها :

إن قلت إن الفجر يشرب نوره ∴ من نبعها الصافى فقولى معتبر

ومما يدخل ضمن اللوحات الكلية البديعة – خلال تجارب الشاعر فى المرأة أيضاً ما جاء فى تجربته الإنسانية الرقيقة المؤثرة تلك التى يجسد خلالها – طبيعة حياته ، ووقع معيشته بعد فراق والدته ، وفقده بذلك مصدر سعادته ، ومنبع هناءته ، ومنطلقه نحو كل تقدم ونجاح .. ها هو ذا شاعرنا يجتهد – قدره – مجسداً بكل ما أوتي من حُسن بيان ، وبديع تصوير ، وبلاغة تعبير فى بناء وتشكيل تلك اللوحة الكلية المؤثرة .. حيث يصور – خلالها ما ينتابه من مشاعر الحزن والحسرة ، والتيه والضياع ، والألم والخواء إزاء فراق والدته الحبيبة .. حيث يقول :

أماه صيرنى فراقك حائراً ∴ فى بيد آلام تسل سرابها

ما زلت أشعر بالضياع كسائر ∴ فى مهمه تسفى الرياح ترابها

أواه من هذا الفراغ وجدته ∴ فى نفسى الحرى يزيد عذابها

جداران مكتبتى وكل رفوفها ∴ تبكى ، وتُشعل بالأنين كتابها

---

(١٧٢) الصورة الفنية فى شعر شوقى الغنائي – مقال د/عبد الفتاح عثمان – مجلة فصول – مجلد ٣ – عدد ١ اكتوبر – نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٢م .

وجميـــع أوراقـــى وكـــل دفـــاترى ∴ وقصـــائدى لفـــح الأنـــين أصـــابها

وحديقـــة البيـــت الصـــغيرة خلتهـــا ∴ قـــد أذبلـــت مـــن حزنهـــا أعشـــابها

أمـــاه يـــا أمـــاه حبـــك فـــى دمـــى ∴ عطـــر ، وغاليـــة حملـــت جرابهـــا

فـــى البيـــت – يـــا أمـــاه – منـــك حقيقـــة ∴ كـــبرى عشـــقت ذهابهـــا وإيابهـــا

أبصـــرت غرفتـــك الحبيبـــة أوغلـــت ∴ فـــى الصـــمت بعـــدك أغلقـــت أبوابهـــا

لـــو أنهـــا تفضـــى بمـــا فـــى صـــدرها ∴ نطقـــت وأنطـــق قـــولها دولابهـــا [١٧٣]

وقد تضافر – فى إتمام اللوحة الكلية الباكية الرقيقة المؤثرة هذه ، وتآزر فى تكوينها – كما نرى – ما تضمنته أولاً من ألفاظ دالة ، وعبارات بليغة، وتراكيب موحية – من شأنها أن تجسد ما بصدده الشاعر من معانٍ آسية ، ومضامين حزينة ، ومشاعر باكية تفيض بالألم والأنين من مثل كلمات وعبارات : حائراً، بيد آلام ، سراب ، الضياع ، مهمه ، أواه من هذا الفراغ .. نفسى الحرى، يزيد عذابها – تبكى وتشعل بالأنين ،، لفح الأنين ، أذبلت حزنها – أوغلت فى الصمت – أغلقت أبوابها .. وغير ذلك من المفردات والتراكيب التى تجسد هذا الجو الشجي الحزين ، وتشى به .

وينضم إلى هذه الألفاظ والتراكيب الدالة ما اشتملت عليه تلك التجربة من صور جزئية تجسد جميعها ما يلف الشاعر ، ويسيطر عليه من مشاعر الحزن والحسرة والتيه والضياع والتخبط والاضطراب .. كتلك التى صور فيها نفسه بعد فراق والدته – فى شعوره بالتخبط والحيرة – بمن يسير فى طريق مخيفة موحشة مجهولة المعالم ، معدومة العلامات ، يزيد من وحشتها تلبد سمائها بغيوم من أثر ما يبعثه فى الأفق من غبار دفعت وألقت بها الريح العاصف : ما زلت أشعر بالضياع كسائر .. فى مهمه تسفى الرياح ترابها .. ولا يخفى تعبير الشاعر بالمضارع المسبوق بالفعل الناسخ : "مازلتُ " وما يدل عليه من تجدد واستمرار شعوره بالضياع ، وتمكُّن ذلك الشعور من نفسه ، وسيطرته على وجدانه ، وامتلاكه لكيانه .

---

(١٧٣) ديوان : هي أمى – صـ ٣٧ .

وما أبلغ الشاعر فى تصوير نفسه بعد فراق والدته – بالحائر الذى تاه فى بيد ، ليست كأي البيد .. وإنما هي بيد من آلام وأحزان .. يهم سرابها أن يفتك ، ويودي بالشاعر ..

أمـــاه صـــيرنى فراقـــك حـــائراً ∴ فـــى بيـــد آلام تســـل ســـرابها

وفى إيثار الشاعر للتعبير بكلمة :" أماه " بدلاً من: "أمى" مثلا ما يناسب مقام البكاء والحنين ، والشجى والأنين الذي يقفه الشاعر هنا ، حيث يتيح له المداالمتحقق فى تلك الكلمة مساحة كافية فى التنفيس عن آهاته الممتدة ، والتخفيف عن أحزانه البالغة إزاء فراق والدته الحبيبة .

وتلك الصور الاستعارية المكنية التى تفيض بها تلك اللوحة الكلية المؤثرة .. حيث خلع الشاعر خلالها – على سبيل التخيل ، وعن طريق الاستعارة المكنية – على الجمادات هنا صفات الأحياء – فضلاً عن أن يكونوا عقلاء ، ساكباً ومسقطا عليها ما ينتابه من مشاعر وأحاسيس باكية حزينة – عبر تجربته هنا ، جاعلاً منها عاقلاً يشاركه آلامه ، ويقاسمه أحزانه ، ويشاطره همومه .. مؤكداً – من خلال ذلك – كيف أن فقد أمه كان أمراً جللاً ، وشيئاً ذا بال عظيم ، وخطر كبير ، وأثر بالغ فى كل ما حولها ، وما يحيط بها من أحياء ومظاهر وجمادات .. فها هو ذا يشير إلى وقع نبأ وفاة أمه على جنبات البيت – الذى كانت تثوى فيه .. حيث يقول فى كلمات دالة ، وعبارات رائقة :

جـــداران مكتبتـــى وكـــل رفـــوفها ∴ تبكـــى ، وتُشـــعل بـــالأنين كتابهـــا

وجميـــع أوراقـــى وكـــل دفاتـــرى ∴ وقصـــائدى لفـــح الأنـــين أصـــابها

وحديقـــة البيـــت الصـــغيرة خلتهـــا ∴ قـــد أذبلـــت مـــن حزنهـــا أعشـــابها

فهل عهد القارئ الكريم جدران مكتبة ورفوفها تبكى ، حاثة ما تحويه من كتب على البكاء والأنين على فراق حبيب ؟! وهل عهد القارئ الكريم أيضاً الأوراق والدفاتر والقصائد قد لذعها لفح الألم ، وأحرقتها نار الأنين.

وحديقة البيت – هي الأخرى قد حزنت وتألمت بفراق والدة الشاعر ، وقد وهنت – من ثم – أغصانها ، وذوت وذبلت عيدانها .. وهل عهدنا حديقة تحزن على حبيب ، وتبكى على عزيز ؟! .. إنه التخيل الذى يبث الحياة فى الجماد ، ويبعث

فيه الحركة ، وإذ به كائن عاقل تماماً – له ما للأحياء بل والعقلاء من صفات ، حيث يسمع ويُصغى ، ويتجاوب ، ويلبى ويستشعر وجود الإنسان ، وينصت إلى نبض عواطفه ، ويخلع الشاعر عليها من صميم ذاته ، وذوب إحساسه ووجدانه .

ورأينا شاعرنا وقد أكد – خلال لوحته الكلية الرقيقة المؤثرة تلك – كيف أن فقد أمه قد أفقده صوابه ، وأطار منه لبه .. فهي فى قلبه ووجدانه أينما يولى ويذهب .. وحبها يسرى فى دمه لا ينفك أبداً عن تذكرها .. فهي – كما ذكر – حقيقة كبرى، أحب كل شئ فيها .. ولهذا فليس بمستغرب أن يحزن عليها كل ما حولها .. فهاهى ذى غرفتها قد أطالت الصمت والوجوم ؛ حزناً ودهشة وذهولاً مما فجعت به فى فقد حبيبتها .. ولو أن تلك الغرفة تستطيع أن تنطق فتفضى بما فى صدرها من حب شديد لها لجهرت بذلك ، ولحثت دولابها على ذلك هو الآخر .

ويؤكد شاعرنا فى مختتم لوحته تلك كيف أن حب أمه ، وتذكرها قد ملك عليه أقطار نفسه .. حيثما يحل ويرتحل .. يرى وجهها الآمل الذى يعلوه البشر والتفاؤل ، ويبصر يدها الباذلة تجود بالعطاء والسخاء .. فقد خلّفت أثراً ملموساً ، وحفرت لها ذكراً باقياً بين الأحياء والجمادات على السواء .

وهكذا تبدو براعة الشاعر – خلال لوحتيه الكليتين هاتين فى استنطاق مظاهر الطبيعة ، وتشخيص مجاليها ، وإضفاء روح الحركة والحياة ، وخلع صفات العقلاء عليها من الحزن والبكاء والذبول والوجوم ، والتجاوب والانفعال .. وغير ذلك من الصفات الإنسانية – مما يُضفى على صوره هنا صفات الجدة والطرافة ، والإثارة والبراعة .

وما من شك فى أن التشخيص والتجسيد يعدان من أهم عطاء الصورة الفنية ؛ ولأهمية هذه الظاهرة الفنية وخطرها فى العمل الأدبي لم يغفل ناقد – فى قامة الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله– عنها ، ولم يفته أن يشيد بالقيمة الفنية التى يمنحها التشخيص والتجسيد للصورة ، والأثر الذى يضفيه عليها .. حيث

يقول –وهو بصدد حديثه عن الاستعارة : " إنك لترى الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مُبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية .. إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التى هي من خبايا العقول ، كأنها جُسِّمت حتى رأتها العيون " (١٧٤).

المبحث السادس :عاطفة الشاعر خلال تجاربه فى المرأة :

العاطفة مقوم أساس ، ومكون مهم من مقومات ومكونات التجربة الشعرية .. حيث لا يخلو أي عمل أدبي قط من تجسيد المشاعر والانفعالات ، وتصوير الأجواء والحالات .. وهي إن اتسمت بالقوة والتدفق ، والثبات والعمق مؤشر قوي لنجاح التجربة ، وعمقها ، ونفاذها ، وتأثيرها .. وهي _ أي العاطفة – الدافع والمحرك الذى يدفع المُبدع ، ويحركه نحو الإبداع والتعبير عما تكنه مشاعره ، وتخفيه أعماقه ، وتسره حناياه .. فهي : " الحالة التى تتشبع فيها نفس الأديب بموضوع ،

(١٧٤) أسرار البلاغة: ١٣٧/١ – الإمام عبد القاهر الجرجانى – تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى – ط مكتبة القاهرة – د . ت .

أو فكرةٍ ، أو مشاهدةٍ ما يؤثر فيه تأثيراً قوياً يدفعه إلى التعبير عن مشاعره ، والإعراب عما يجول بخاطره .. " [١٧٥] .

ويتسع مفهوم العاطفة ، ويرحب مجالها ، وتتعدد ميادينها ، حيث تشمل :" كل ما يعترى الإنسان من ألوان الانفعال : كالحب ، والكره ، والفرح ، والحزن ، والألم ، والشكوى ..ومن هنا يتسع مجال العاطفة ، ويتناول الشعر أساليب الحياة التى تجول فيها هذه العواطف ، ويتأثر بها الشاعر[١٧٦] .

فالعاطفة : "هي تلك القوة النفسية التى تثيرها مؤثرات وميول خارجية ، فتظهر فى صورة انفعالات شتى ، كالحب ، والبغض ، والسرور ، والحزن ، والرجاء ، والوفاء ، .. وهي من دواعى الشعر التى تهيجه ، وينابيعه التى ينبجس منها ، فمن كان ذا فطرة شاعرة ، وموهبة أدبية استحثته إلى قول الشعر وداوعيه، وأمدته فيها عواطفه ، وهو فى ظل هذه العاطفة أصدق شعوراً ، وأجمل تعبيراً ، وأغزر معينا.[١٧٧]

وهذه الألوان من الانفعالات تخص المُبدع وحده دون سواه من المتلقين .. وإنما هي قاسم مشترك بين المُبدع والمُتلقى .. بل إن المُتلقى هو المرآة التى تنعكس العاطفة المصاحبة للعمل الفني على صفحاتها ؛ لذا كان الشعر الصادق هو الذى يولد فى القارئ استجابة لا تقل فى الحرارة والنبل والصفاء عن تجربة الشاعر نفسه [١٧٨] .

ولعله – ومن خلال ما سبق عرضه من أنماذج للشاعر – خلال تجاربه فى المرأة – قد تبين لنا ما تتسم به عاطفة الشاعر من سمات القوة والصدق ، والثبات والتدفق ، والعُمق ، والسمو والشرف ، والرقي ، والحرارة ، والنبل .. مما يولد فى نفس المُتلقى استجابة ، ويُحدث فى داخله تأثيراً لا يقل فى الحرارة والنبل والنفاذ والعُمق عن الشاعر صاحب التجربة ذاتها .. لا سيما فى تجاربه الكثيرة التى أبدعها فى أمه – تلك التى فجرت بداخله ينابيع الشاعرية .. حيث جعلت منه –

---

(١٧٥) فى ميزان النقد الأدبي – د/ طه مصطفى أبو كريشه – صـ ٤٤ – ط المليجي ١٩٧٦م

(١٧٦) فى النقد الأدبي الحديث : د/ محمد إسماعيل شاهين – صـ ٤٣ – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦م .

(١٧٧) فى النقد الأدبي عند العرب إلى نهاية القرن السادس الهجري : د/محمد طاهر درويش – صـ ٢١٩ ط دار المعارف سنة ١٩٧٩م .

(١٧٨) التجربة الشعرية بين النظرية والتطبيق النصي – د/ناجى فؤاد بدوى – صـ ٢٨ – ط دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع – الزقازيق – الطبعة الأولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

كما ذكر – مُبدعاً يشدو بالشعر ، ويترنم بألحانه .. ويشعر بكل عين باكية ، وينفعل بكل قلب خافق ، ويتجاوب مع كل نفس شاكية .. ها هو ذا يوجه بالحديث إلى أمه فيقول :

فجرتِ فى قلبي ينا ∴ بيع الحنان الصافيه
وجعلتِ منى قصة ∴ تروى وأنت الراويه
وصنعتِ من طفل يتيـ ∴ مٍ روح حُب عاليه
وسلكتِ بى درب الهدى ∴ والرجل منى حافيه
فصحوتُ فى كنف الصلا ∴ ح وقد نسجت لباسيه
أصبحت أشعر بالحنا ∴ ن بكل عين باكيه
ولكل قلب خافقٍ ∴ ولكل نفسٍ شاكيه
للطير تصدح فى الريا ∴ ض وللنجوم العاليه[١٧٩]

ويقول :

ماذا يقول عن الأمومة شاعر ∴ لولا الأمومة ما ترنم واشتهر[١٨٠]

.. وعلى الإجمال فقد كانت عاطفة الشاعر – خلال تجاربه فى المرأة جميعاً – من النوع السامى الشريف الذى يرسى القيم والمثل ، ويؤكد الشمائل الطيبة ، والطباع القويمة ، والأخلاق الفاضلة التى تؤكد فى الإنسان إنسانيته ، فتسمو – من ثم – بمشاعره ، وتُحلق بها نحو عوالم من السمو والطهر والرقي والنبل ، بما تغرسه فى المُتلقين من مشاعر إيجابية ، وأحاسيس سوية تفيدهم ، وتقوى صلتهم بالحياة، وتبعث فيهم شعوراً يقظاً، وإحساساً متوثباً بأداء الواجب..

أما فيما يخص تجارب الشاعر فى أمه فأقول من النادر جداً أن يُرى شاعراً مثل شاعرنا هذا فى حُبه الشديد لأمه ، وتقديره البالغ لشخصها ، ووفائه النادر لروحها وذكراها .. فكثيره جداً هي تجاربه التى تغنى فيها بحب أمه ، وأشاد بقدرها، ونوه بعظمتها ، وبكى على فراقها ، واستعظم المصيبة فى موتها، وبين أثر

(١٧٩) ديوان إلى حواء – صـ ٢٧ ، ٢٨ .
(١٨٠) المصدر السابق – صـ ٣٢ .

فقدها على حياته ، عاقداً فى أثناء ذلك مقارنة بن طبيعة حياته قبل وبعد فراقها .. حيث يتأكد لمن يُطالع تلك التجارب أنه يندر أن يوجد شاعر مثل شاعرنا فى علاقته بأمه فهو متيم مأخوذ مشمول بحبها وَلِهُ مشدوه ، منبهر بشخصها ، يصوغ حروفه ، ويُبدع قصائده ، ويستقى مشاعره ، وينهل أحاسيسه من معين حُبها الثر الهتان ، ونبع حنانها المتدفق الفياض .. تبدو تلك المعانى التى تفيض بمشاعر الحب والتقدير ، والوفاء والعرفان والإعزاز والإخلاص الكائنة فى أعماق الشاعر، المُستقرة فى حناياه إزاء أمه الحبيبة – صاحبة الأفضال العظيمة ، والأيادى السابغة عليه، والتى بنى بها ذاته ، وصنع كيانه – وأسس بنيانه – على نحو ما ورد فى قوله :

أمـــي الحبيـــبة كـــل قـــافية ∴ فـــى مـــدحها الإحســـاس ينشـــرها
هـــى مـــن تصـــوغ حـــروف قـــافيتى ∴ وبقلبـــها الحـــانى تنضـــدها
هـــى مَـــن تُعيـــد إلـــيَّ ذاكرتـــى ∴ وبحبـــها الصـــافى يجـــددها
فـــى راحتيـــها النبـــع أنهلنـــى ∴ كـــأس الحنـــان وطـــاب رافـــدها[١٨١]

وقوله يُحدِّث بأفضال أمه ، ويعترف بأدايها عليه :

أنـــا – يـــا أمـــاه – نبـــت ∴ ظـــل يُســـقى بالحنـــان
أنـــا معنـــى مـــن معانيـــ ∴ ك ومـــا أرقـــى المعـــانى !!
أنـــا ســـطر فـــى ســـجل الـــ ∴ مجـــد قـــد صُـــغتِ كيـــانى
كيـــف لا يذكـــر قلـــب ∴ منـــك عطفـــاً وحنانـــاً ؟!
كيـــف لا يذكـــر إخـــلا ∴ صـــاً وصـــدقاً واتزانـــا ؟!
أنـــا ألمـــح فـــى الخطـــو ∴ إذا ســـرت جنانـــاً
أنـــت – يـــا أمـــاه – أنشـــو ∴ دة عطـــف ووفـــاء
أنـــت عنـــوان عظـــيم ∴ فـــى ســـجل العظمـــاء

(١٨١) ديوان : هي أمى – صـ ٤٣ .

أنـــــت مهـــــدت طريقـــــى ∴ أنـــــت أكملـــــت بنـــــائى
أنـــــت يـــــا أمـــــاه نبـــــرا ∴ س جـــــلا بـــــالنور دربـــــي
أنـــــت عطـــــف بـــــدد الآ ∴ لام عـــــن صـــــفحة قلـــــبي
فلـــــك التقـــــدير يـــــا أمـــــى ∴ وإخلاصـــــــــى وحبـــــى[١٨٢]

وحُقّ للشاعر ذلك الحب الشديد لأمه ، والتقدير البالغ لشخصها .. حيث يرد هنا بعض الفضل لذويه .. ولا يجد الإنسان أولى من أمه فى البر والإحسان والوفاء والإخلاص ، لا سيما إذا كانت مثل أم شاعرنا تلك التى بذلت روحها ، وباعت نفسها ، وضحت بشبابها الغض ، وأنفقت عمرها لبنيها بعد غياب عائلهم .. ضاربه بذلك الأنموذج الأمثل ، والقدوة الصالحة فى الإخلاص الشديد .. والوفاء النادر لزوجها من بعده .. على نحو ما جاء فى قول ابنها الشاعر :

أبـــى !.. وقـــد صـــرت بعيـــد المـــــدى ∴ وهـــــل يـــــرد المـــــرء مـــــن قـــــبره؟!
ليتـــك تصـــحو – يـــا أبـــي – ســـاعة ∴ لكـــــى تـــــرى الإخـــــلاص فـــــى قـــــدره
لكـــى تـــرى مرتـــع أحـــلامنـــــا ∴ نســـــتروح الأمـــــال مـــــن زهـــــره
لكـــى تـــرى أمـــى علـــى عهـــــدها ∴ ترضـــــعنا الإيمـــــان مـــــن نهـــــره
أبـــى ! ولـــو شـــاهدتنا نقتـــفـــى ∴ مـــن حبهـــا الســـامى ســـنا فجـــره
أمـــى ..وضـــحت بالشـــباب الـــذى ∴ ســـرنا إلى الأمجـــاد فـــى نـــوره
كـــم ذاك صـــعب –بـــاأبي–أن يـــرى ∴ ســـاعٍ ويعطـــى النـــاس مـــن عمـــره
أمـــى ..وكـــم أحسســـت فـــى ظلـــها ∴ أنـــى فتـــى يعجـــز عـــن شـــكره
إن رســـم الشـــعر رؤى خاطـــــرى ∴ فنـــبض الشـــاعر فـــى شـــعره [١٨٣]

ولا يرتاب مُرتاب فى صدق وقوة وحرارة وتدفق وسمو عاطفة الشاعر – خلال تجاربه السابقة .. حيث يبدو – لمتلقى هذه التجارب من أول نظرة، ودون

---

(١٨٢) ديوان : إلى حواء – صـ ١٢٢ ، ١٢٣ .
(١٨٣) المصدر السابق – صـ ٥٥ ، ٥٦ .

أدنى عناء – صدورها من نفسٍ منفعلة صادقة الشعور ، وانبعاثها من ذاتٍ مفعمة عالجت تجربة شعورية حقيقية عانت أحداثها ، وعاشت مشاهدها، وتأثرت بمواقفها، فراحت – من ثم – تلهج بما لهجت به من مشاعر الحب والتقدير ، والوفاء والعرفان ، والإكبار والإعزاز التى هى من وحي تجارب حقيقية تأثر بها الشاعر ، وتشربت بها نفسه ، فدفعته من ثم لأن يعبر عنها بكلمات دالة مشعة، وعبارات بليغة موحية تفيض بها تلك التجارب المذكورة ، والتى يجسد بها الشاعر ، ويؤكد –من خلالها– ما يسيطر عليه من مشاعر الحب والتقدير والإكبار والتبجيل ، والإخلاص والوفاء إزاء والدته الحبيبة ، من مثل تلك التراكيب : أمى الحبيبة ، قلبها الحانى ، حبها الصافى ، فى راحتيها النبع .. كأس الحنان ، طاب رافدها .. أنشودة عطف ووفاء ، أنت عطف ، أنت عنوان عظيم ، أنت يا أماه نبراس ..

ولا يخفى تكرار الشاعر –خلال التجربة الثانية – لضميري المخاطب الذى عنى بها أمه هنا.. والمتكلم الذى عُنى به نفسه ، وإلحاحه فى ذلك التكرار، وإكثاره منه على نحو ما جاء فى قوله : يُحدّث بفضل أمه عليه :

أنت يا أماه ∴ أنشودة عطف ، ووفاء
أنت عنوان عظيم ∴ فى سجل العظماء
أنت مهدت طريقى ∴ أنت أكملت بنائى
أنت يا أماه نبرا ∴ س جلا بالنور دربي
أنت عطف بدد الآ ∴ لام عن صفحة قلبي
أنا يا أماه نبت ∴ ظلّ يُسقى بالحنان
أنا سطر فى سجل الـ ∴ مجد قد صغت كيانى[١٨٤]

حيث يؤكد ذلك التكرار سواء لضمير المخاطب ، أو لضمير المتكلم عظم فضل أم الشاعر عليه ، ويبرز علو قدرها ، ورفعة شأنها ، وتعدد مجالى العظمة فى شخصها .. فتبدو من ثم وكما أخبر الشاعر عنواناً عظيماً يُكتب بمداد من ذهب ، ويُخط بأحرف من نور فى سجل العظماء .

(١٨٤) ديوان : إلى حواء – صـ ١٢٢ ، ١٢٣ .

وما أبلغ تصوير الشاعر نفسه فى هذا المقام بالنبات الضعيف الذى يحتاج إلى سقي ورعاية وتعهد صاحبه ؛ كى يضمن له البقاء والنماء .. وهو أي شاعرنا استمد ذلك الري والشبع من حنان أمه ، ورعايتها ، وتعهدها .. ولم لا ؛ وقد فرشت له طريق الحياة بالورود والآمال ، وصنعت كيانه ، وأسست بنيانه ، وبددت آلامه ، وضحّت من أجله وإخوته بشبابها ؛ مما يجعله يعجز عن شكرها ، ويبدو مهما أبدع من أشعار فى حبها مقصراً ..

أمى وكم أحسست فى ظلها ∴ أنى فتى يعجز عن شكره

إن رسم الشعر رؤى خاطري ∴ فنبض الشاعر فى شعره (١٨٥)

فالمشاعر المسيطرة على الشاعر هنا هي مشاعر الحب والإعزاز ، والتقدير والإكبار ، والوفاء والإخلاص إزاء والدته صانعة الرجال ، وواهبة الخير ، وباذلة الفضل ، حيث تهب وتجود وتسخو وتبذل فى غير ملل ولا كلل ، ولا انتظار لجزاء أو ثواب أو مكافأة ، ومن ثم لا يخفى ما تقوم عليه تلك التجارب التى بدا شاعرنا فى كل بيت منها فى صورة المحب الوفى الصادق فى الحب والوفاء إزاءها .. ولا يخفى ما تقوم عليه تلك التجارب هنا ومثيلاتها – مما يسير فى نفس مضمونها من معانٍ إنسانية نبيلة ، وما تتضمنه من غايات تهذيبية ، وفضائل أخلاقية ، وقيم تربوية بعثتها ودفعت بها تلك العاطفة الفِطرية النبيلة – عاطفة الحب والتقدير والوفاء والعرفان إزاء الأم .. وكأنه – أي الشاعر – يدعو من خلال تجاربه تلك إلى البر بالأم ، والإحسان إليها .. ولا شك فى أن هذا مما يجعل تجاربه تلك من ذلك النوع المثالي السامي النبيل من الأدب : " فالأدب المثالي هو ما يتصل بأنبل العواطف الحيوية كالاخلاص والتحابّ والعدالة العامة ، والوحدة الإنسانية .. وهو ما يتناول الحق والفضائل والأعمال المجيدة من كل ما يُقوِّى صلتنا بالحياة ، وهو أيضاً الذى يبعث فينا حماسة النهوض بالواجبات الفردية والاجتماعية (١٨٦).

(١٨٥) ديوان : إلى حواء – صـ ٥٦ .
(١٨٦) أصول النقد الأدبى : أحمد الشايب – صـ ٢٠٤ ، ٢٠٥ – ط مكتبة النهضة المصرية .

ومثل تلك التجارب التى تتسم فيها عاطفة الشاعر بالصدق والقوة والعمق والتدفق والسمو والشرف ذائعة – خلال شعر العشماوي فى المرأة ، لاسيما فى تجاربه الكثيرة ، وإبداعاته الغزيرة فى أمه الحبيبة .

ويبدو صدق وقوة وحيشان وحرارة وتدفق عاطفة الشاعر إزاء أمه بعد فقدها يبدو ذلك جليا فى تجربته التى تحمل عنوان: " قراءة فى كتاب الحنين"، حيث يعبر فيها عن مشاعر الحنين الجارف ، والشوق العارم ، والتلهف الشديد ، والحسرة البالغة ، والحزن العميق الكائنة المترسبة فى أعماقه إزاء والدته الراحلة ، مستعظماً المصيبة فى فقدها ، معزياً نفسه ، ومسريا عنها ، ومحتسباً موتها الذى هو النهاية الحتمية لكل حي .. حيث يقول :

أصبحت دارنا كتاب حنين ∴ آهٍ مما حوت سطور الكتاب!!

أين أمى يا قريتى لا أراها ∴ حين آتى تخصنى بالخطاب؟!

أين أمى يا بؤسه من سؤالٍ ∴ أتحاشى ما بعده من جواب ؟

ودعتنا أمى ، فلله حزن ∴ جارف فى الفؤاد لولا احتسابى!!

إنها سنة الحياة وإلا ∴ لم أدعها وحيدة فى التراب !

إنها الشمس لم يزل فى ضلوعى ∴ نورها ساطعاً برغم الغياب![١٨٧]

وتسيطر على الشاعر – خلال تجربته القوية المثيرة تلك – كما نرى – مشاعر الحب والحنين ، واللهفة والأنين ، والشوق الدفين إزاء والدته الراحلة .. وتتملكه أيضاً –خلال ذلك الموقف الباكى الحزين مشاعر الحيرة والحسرة ، والقلق والضياع ، والحُزن والاضطراب .. حيث بدا غير مُصدق بنبأ رحيلها ، وظهر فى صورة الحائر القلق التائه الوجِل المضطرب إزاء فراق والدته مصدر حياته وانطلاقه ، ومن ثم رأيناه يتساءل فى تعجب وذهول ، ودهشة واستغراب عن أمه : أين ذهبت .. ملحاً فى ذلك التساؤل ، حيث يتوجه به مرة إلى قريته – مسقط رأسه ، ومسرح طفولته ، ومراتع لهوه ، وملاعب صباه : أين أمى يا قريتى ؟ ، ومرة يتعجب من بؤس ذلك التساؤل ، وقسوته ، وخوفه من وقع الإجابة المفجعة الصادمة عليه : أين أمى يا بؤسه من سؤال .. أتحاشى ما بعده من جواب ؟! مؤكداً بذلك ما يتملكه

(١٨٧) ديوان : هي أمى – صـ ٢٣ ، ٢٤ .

من مشاعر الحيرة والقلق والحسرة والضياع .. والتفجع والتوجع باديان فى هذه التجربة الباكية المؤثرة .. حيث كاد شاعرنا يبدو –خلالها – فى صورة الهلع الجزع إزاء فقد والدته ، ولذا فهو يستعظم المصيبة فى موتها :

ودعتنـــــا أمـــــى فللـــــه حـــــزن ∴ جـــارف فـــى الفـــؤاد لـــولا احتســـابى !!

فهذا البيت يفيض – كما نرى – بمشاعر التفجع والتوجع ، ويكاد يبدو فيه شاعرنا فى صورة الهلع الجزع إزاء فقد أمه لولا قوة إيمانه التى تدفعه إلى أن يحتسب فقدها عند ربه سبحانه .

ولأن عقيدته صحيحة ، وإيمانه قوي ، فسرعان ما يلوذ بالصبر ، ويتسلح بالرضا ، موطناً نفسه عليهما ، ومباعداً بينها وبين الهلع والجزع .. إنها سنة الحياة ، وإلا لم أدعها وحيدة فى التراب ! فهي عظيمة الفوائد ، جمة المنافع ، حبيبة أثيرة إلى قلب الشاعر ونفسه، كما الشمس سيظل نورها وعطاؤها متجدداً، وسيبقى نفعها مصاحباً إياه ما دام حياً .. حيث تمتزج هنا مشاعر الحب والتقدير والوفاء والعرفان الكائنة فى أعماق الشاعر إزاء والدته بمشاعر الحسرة واللهفة والحنين .. ولا ريب فى أن شعور العشماوي الصادق بفقد أمه ، وإحساسه الحقيقي برحيلها ، وتألمه العميق بذهابها هو ما دفعه إلى أن يعبر بتلك العبارات الدالة ، والتراكيب الموحية التى تفيض بها التجربة هنا .. تلك التى يستهلها بذلك الاستهلال الدال المعبر عن موقف الحنين والوداع .. حيث يصف الدار التى جمعته بأمه الحبيبة بكونها غدت طللاً داراساً ، وأثراً ذاهباً ، ويباباً مقفراً بعد أن كانت مكاناً عامراً ، وعيناً آهلة ، ومرتعاً مخصباً : أصبحت دارنا كتاب حنين .. ولذا فهو يتأوه ، ويندب حظه فى ذهاب هذا العهد الهانئ السعيد ، وتولى تلك الليالي الدافئة الخوالى فى ظل أمه الحنون ، ووالدته الرءوم : آه مما حوت سطور الكتاب !! .. ولا يخفى ذلك الأسلوب التصويري الرائق الذى شخص فيه الشاعر الدار قبل وبعد رحيل أمه فى صورة كتاب يحوي بين دفتيه سطوراً باكية ، وصفحات مشجية تبعث على الحزن والحنين ، وتثير مشاعر اللهفة والحنين.

وها هو ذا شاعرنا – وعبر إحدى تجاربة القوية المثيرة فى أمه يقف موقف المحب الوفي الذى يذرف دموعه ، ويسكب عبراته باكيا أقسى ما يكون البكاء ، متفجعاً ، ومبدياً شدة حزنه ، وبالغ ألمه إزاء فقد والدته – تلك التى فقد بفقدها عمره .. وذهبت بذهابها حياته الهانئة الوادعة .. فهي أي أمه :" كنز

الدعاء ، وهي نبع الحنان ، ومصدر العطف .. وهي البرد والسلام فى قيظ الصعاب و الأحزان ، ونار الهموم ، والآلام .. وهي الدفء والحنان فى زمهرير الحياة ، وصقيع الأيام .. وأي بذل وعطاء وتضحية وفداء يبدو متوارياً ، ويظهر مستحيياً أمام بذلها وعطائها ، وتضحيتها وفدائها .. ومن ثم فقد حُقَّ له أن يبكيها أشد البكاء ، وأن يتحسر على فقدها بالغ التحسر .. فلا وجه إذن لمن يلومونه على شدة حزنه ، وبالغ ألمه ، فما يرونه عليه مما يُبديه من بالغ الحزن ، وشدة الحسرة والبكاء إنما هو أقل القليل مما يخفيه فى أعماقه ، ولم لا ؟ وهو قد صار بفقدها كالطفل الذى فقد أمه فغدا من بعدها حائراً تائهاً ضائعاً مفتقداً للأمان ..حيث تتوزعه الرياح وتهوى به فى مهاوى الخوف والهلاك .. وهو قد كان فى حياة والدته رجلاً شامخاً ، يستمد قوته وشموخه وثباته من وجود أمه .. فغدا من بعدها خائر القوى ، واهي العزم ، ضعيف الإرادة .. فقد ذهبت عنه بذهابها عزيمة الأقوياء .. حيث يقول :

لا تقولوا : بكيت أقسى بكاء ∴ فبكاء المحب رمز الوفاء

كيف لا يذرف الدموع محب ∴ ذاق مر الفراق بعد اللقاء ؟!

هي أمى فى فقدها فقد عمر ∴ وحياة من الرضا والصفاء

هي كنز الدعاء يا لهف نفسى ∴ وأساها لفقد كنز الدعاء! !

هي نبع الحنان والعطف من لى ∴ بعد أمى برشفة وارتواء؟!

هي برد الحنان فى قيظ حزنى ∴ وهي دفء الحنان وقت الشتاء

كم سخاء فى الناس يصغر لَّما ∴ ترسم الأم لوحة للسخاء

لا تلوموا توجعى وأنينى ∴ فلقد أشعل اللهيب عنائى

لا تلوموا بكاء عينى فهذا ∴ عُشر مالا ترونه من بكائى

صرت كالطفل حين فارقت أمى ∴ تائها مثل ريشة فى الفضاء

كلما هبت الرياح رمتها ∴ فى مهاوى توجس وانطواء

رجـــل شامـــخ العـــــزيمة لكـــن ∴ أيـــن منـــى عزيمـــة الأقويـــاء؟![١٨٨]

وتبدو مشاعر الحب الصادق ، والإخلاص الشديد ، والوفاء النادر الكائن فى أعماق الشاعر إزاء أمه – فى أغلى وأسمى صورها – خلال تجربته تلك .. حيث يبدو ذلك جلياً فى كل بيت من أبياتها تقريباً .. بعد أن دفعه صدق وقوة وتدفق وعمق عاطفته هنا إلى أن يعبر بالتعابير المشعة ، والتراكيب الموحية ، والصور الفنية الرائقة التى تُظهره فى صورة المحب الوفي المخلص شديد الحب والإخلاص والوفاء .. الذى خبر التجربة هنا وذاقها ، وأحس بها بنفسه ، وعانى مشاهدها بذاته :

لا تقولـــوا : بكيـــت أقســـى بكـــاء ∴ فبكـــاء المحـــب رمـــز الوفـــاء

كيـــف لا يـــذرف الـــدموع محـــب ∴ ذاق مـــر الفـــراق بعـــد اللقـــاء ؟!

وما أجمل تعبير الشاعر ، وأبلغه فى الدلالة على شدة عظم نفع أمه إياه ، وبالغ أهميتها فى حياته .. حيت يقول :

هـــي أمـــى فـــى فقـــدها فقـــد عمـــر ∴ وحيـــاة مـــن الرضـــا والصـــفاء

فماذا بعد أن يجعل من فقد أمه فقد حياته ، وتولى معيشته الهانئة الوادعة وإدبارها عنه بذهاب أمه .. إنه الحب الشديد لها .. والتعلق الكبير بها، والوفاء النادر لشخصها .

وتبدو – فى تلك التجربة – مشاعر الحب والتقدير والإكبار والتبجيل الكائنة فى أعماق الشاعر إزاء والدته – من خلال تعداده لمجالى عظمتها ، ومظاهر نفعها – تلك التى تستحيل على الإحصاء ؛ مما يستوجب البكاء الشديد، والحزن العميق ، والتحسر المرير إزاء فقدها :

هـــي أمـــى فـــى فقـــدها فقـــد عمـــر ∴ وحيـــاة مـــن الرضـــا والصـــفاء

هي كنز الدّعاء .. هي نبع الحنان والعطف ، هي برد الحنان ، هي دفء الحنان .. حيث تكشف تلك الضمائر المتكررة عن ذات الشاعر المنبهرة بوالدته ، المأسورة بفضلها ، المشمولة بعطفها ، المغمورة بعطائها ، التى ترى كل شئ إيجابي فى هذه الحياة فى شخصها .

---

(١٨٨) ديوان : هي أمى – صـ ١٦ ، ١٧ .

وما أبلغ تلك الصورة التشبيهية الرائقة – تلك التى شبه فيها الشاعر نفسه فى فقده لأمه بالطفل الذى يُعانى من بعدها الوحشة والضياع .. مؤكداً بذلك شدة حاجته إليها ، وتأكد ضياعه ، وهلاكه من بعدها .. حيث يغدو مثل ريشة تتوزعها الرياح ، وتهوي بها حيث الهلاك والضياع .

ويختتم شاعرنا تجربته القوية المثيرة تلك بذلك التساؤل الدال على الأسف والحسرة والضياع والحيرة إزاء ما حل به بفقد أمه .. فقد فقد بفقدها عزيمة الرجال الأقوياء ، مؤكداً من خلال ذلك التساؤل عظم نفع أمه ، وبالغ إحساسه ، وفداحة مصابه ، وكبر خسارته إزاء فقدها : أين منى عزيمة الأقوياء ؟! .

.. وهكذا تتجلى – فى تلك التجربة – والتى قبلها مشاعر الحب والوفاء والإعزاز والإخلاص والتقدير والعرفان الكائن فى أعماق الشاعر إزاء والدته .. هكذا تتجلى تلك المشاعر – وقد صدرت من نفس منفعلة صادقة الشعور ، بالغة الإحساس بالفقد والحرمان .. حيث نبعت من وحي تجارب حقيقية عاناها الشاعر بنفسه ، وخاض غمارها بذاته ، فجاء من ثم تعبيره عنها تعبيراً صادقاً نابعاً من القلب ، ومستمداً من الوجدان ، لا زيف فيه ولا افتعال .. وقد دفعه صدق وقوة عاطفته أن ينتقي لتجربته هذه عبارات موحية، وأساليب معبرة، من شأنها أن تهز وجدان المتلقى، وتستولى على مجامع قلوبهم بعد أن هزت وجدان صاحبها ، وحركت مشاعره نحوها : "فمن المشكوك فيه أن يستطيع الأديب عرض العواطف القوية ، أو بعثها فى نفوس قرّائه دون أن يحسها فى نفسه قوية ثم يتنفس عنها بهذا الأدب القوي التأثير ، والشاعر لا يُبكيك إلا إذا استنفذ ماء شئونه ، ولا يشجيك إلا إذا استطار الهوى بلبه ، والعامل الفذ للظفر بالسلطان العاطفي على القراء هو انبعاث الشعر والنثر عن نفسٍ منفعلة صادقة الشعور "[١٨٩] .

وها هو ذا شاعرنا يبوح بمشاعره الشخصية ، ويفيض بأحاسيسه الذاتية التى تقوم على الحب والوفاء والتقدير والعرفان إزاء رفيقة دربه ، وشريكة عمره ، وقسيمة آلامه ، وآماله :"زوجه " فى تجربتين شعوريتين .. الأولى من وحي الغربة والبعاد .. وفيها يصور ما ينتابه ويؤرقه من مشاعر الحب المتقد ، والشوق العارم ، والحنين الجارف إزاء زوجه البعيدة .. حيث يبدو فى صورة المُحب المتهالك ، والوجد المتفانى فى الشوق والصبابة إلى لقائها .. فهي تسكن قلبه ، وتستقر فى

(١٨٩) أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب – صـ ١٨١.

حناياه ، وطيفها يصاحبه مهما بعد واغترب .. وقد تأكد حبه إياها ، وشوقه للقائها بعد أن ارتحل عنها بعيداً فانتابته الصبابة ، وأخذ الشوق منه مأخذه.. وقد كان يظن أن يتحمل بعاده عنها .. ولكن قد قصر عزمه، وطال ليله ، واشتدت لوعته .. ولم يعد يطيق بعدها فراح يرسل إليها عاطر التحيات ، ويُهدى حار الأشواق صباح مساء .. حيث يعلق فؤاده بذكرها ، ولا تغيب قط عن مخيلته .. يقول من قصيدته : " لحن وجرح " :

حـــنين بقلـــبي وشـــوق دفيـــــن ∴ وقـــد يقتـــل الـــراحلين الحـــنين
ألا يـــا بعيـــداً ويســـكن قلبـــي ∴ ومـــن أجلـــه لـــوعتى والفتـــون
ومـــن أجلـــه غـــردت ذكريـــاتى ∴ ومـــن أجلـــه هـــدّ قلـــبي الأنـــين
رحلـــت وبـــى لهفـــة للتـــلاقى ∴ يقصـــر عـــن وصـــفها مـــا أقـــول
رحلـــت وفـــى شـــفتى حـــديث ∴ جـــريح وفـــى عـــزم قلبـــى ذبـــول
رحلـــت ومـــا كنـــت أعلـــم أنـــى ∴ سيقصـــر عزمـــى ، وليلـــي يطـــول
ســـلام علـــى مـــن إلـــيهم أتـــوق ∴ ومـــن لســـت للبعـــد عـــنهم أطيـــق
ومـــن أســـهر الليـــل شـــوقاً إلـــيهم ∴ فيســـخر مـــن مقلـــتي الشـــروق
وآخـــر ذكـــراي حيـــن أنـــام ∴ وأول ذكـــراي حـــين أفيـــق[١٩٠]

وتذيع تلك التجربة بالمفردات الدالة ، والعبارات المشعة ، والتراكيب الموحية التى دفعت وأوحت بها عاطفة الشاعر القوية الصادقة المفعمة المشبوبة المتقدة بالشوق والحنين إزاء رفيقة دربه هنا من مثل : حنين بقلبي .. شوق دفين ، يسكن قلبي ، لوعتى – الفتون – هد قلبي الأنين – أتوق – أسهر الليل – شوقاً .. بجانب تعبيره بتلك التراكيب الدالة على ما ينتابه ويهزه من مشاعر الحب والحنين ، واللهفة والشوق الدفين إزاء حبيبه البعيد من مثل : "وقد يقتل الراحلين الحنين "!! ، سلام على من لست للبعد عنهم أطيق .. ومن أجله غردت ذكرياتى .. ومن أجله هد قلبي الحنين !! ، ومن أسهر الليل شوقاً إليهم .. وأول ذكراي حين أنام .. وآخر ذكراي حين أفيق .. وغير ذلك من المفردات والتراكيب التى يجتهد

(١٩٠) ديوان : إلى حواء – صـ ١٢٤، ١٢٥ .

الشاعر من خلالها فى تجسيد حاله ، وتصوير واقعه – وهو يعالج تجربة الغربة عن المحبوب ، ويُقاسي ويلاتها .. فقد استطاع من خلالها أن يبرز ما تفيض به نفسه من مشاعر الحب الشديد ، والوجد المتقد ، والشوق المستعر إزاء محبوبه البعيد .. حيث تبدو عاطفة الشاعر هنا حارة قوية ، وتتراءى مشبوبة مستعرة صدرت من محبٍ عاشق ، ووجد متهالك فى الصبابة والشوق واللهفة والحنين .. استبد به العشق ، وأضناه الهوى ، وتيمه الحب والشوق إزاء محبوبته التى كم عذّبه طول بعادها فجافاه المضجع ، وخاصمه النوم ، ولازمه السهاد ، ومع ذلك لم تغب قط عن مخيلته ، ولم تبتعد لحظة عن ذاكرته .. ، فهي كونه بكل ما فيه من سحر وجمال .

والثانية يبوح إزاءها بمشاعر الحب والتقدير ، والوفاء والعرفان ، والإعزاز والتبجيل .. فقد قطعت الزمان معه بأطيب ما تكون العشرة ، وأحسن ما تكون الرفقة .. مؤكداً أنه يستمد شدوه وتغريده من وحيها ، ومهيباً بها أن تظل تفرش عش حياتهما بالوفاء والحنان ، وترفرف على بيتهما بألوية الحب والوئام .. حتى تهوِّن عليه متاعب الحياة ، وتذلل صعابها الجسام ، مشيداً فى أثناء ذلك بحلاوة عشرتها ، وحُسن تبعُّلها .. حيث يقول :

من معانيك أستقى ألحانى ∴ فاهتفى يا مذيبة الأحزان
أفرشى هذه الطريق وفاءاً ∴ فطريقى مفروشة بالحنان
ظللى عُشنا الجديد بروح الـ ∴ حب حتى نعيش فى اطمئنان
رحلة العمر- يا رفيقة عُمرى ∴ زادها الحب والرضا والتفانى
أنت عزف الرضا على وتر القلـ ∴ ب ولحن الوفاء فى وجدانى
أنت معنى من الطهارة يسمو ∴ بفؤادى عن مغريات الزمان
وعلى متن حبنا قد رحلنا ∴ ومضينا إلى أجل مكان [١٩١]

ويبدو بوح الشاعر الذى أفضى به بين يدي زوجته بتلك المشاعر الحميمة الدافئة –من خلال تلك التعابير المُوحية الرقيقة من مثل : من معانيك

(١٩١)ديوان : إلى حواء – صـ ٢٢ ، ٢٣ .

أستقى ألحانى – ظللى عششنا الجديد بروح الحب .. أنت عزف الرضا على وتر القلب . ولحن الوفاء فى وجدانى .. أنت معنى من الطهارة يسمو بفؤادى ، فزوجته – هي مصدر فرحه وسروره ، وقناعته ورضاه ، ومبعث سعادته وهناءته .. وهي السبيل إلى طُهره وعفته .. وهي عونه على الوصول إلى بر النجاة فى وعثاء الحياة .. ولا ينتاب المتلقى لتلك التجربة أدنى شك فيما تتسم به عاطفة الشاعر – خلالها– من سمات القوة والصدق والتدفق والحرارة والسمو ؛ مما يجعل تلك التجربة تدخل ضمن الأدب الإنساني النبيل الذى ينشد المُثل العليا ، والقيم السامية من الأخلاق والفضائل الإنسانية ، والواجبات الاجتماعية حيث تستمد سموها ومثاليتها من كونها تقوم على ردّ الفضل لذويه ، وإكبار المعروف لصانعيه .

وللشاعر تجارب رقيقة أبدعها فى المرأة :" المحبوبة " تتسم فيها عاطفته بسمات الصدق والقوة والحرارة والجيشان والتدفق والسمو والرقي .. حيث يتأكد لمن يطالع تجارب الشاعر فى المرأة " المحبوبة " كيف أنه قد هام بها روحاً ، وشوقاً ، وعذاباً ، ووجداً ، لا كياناً وجسداً .. فهو يأتزر خلال تجاربه فى المرأة المحبوبة بالعفاف ، ويتزين بالنقاء ، مُحلقاً فى سماء الروحية ، وفضاء الفضيلة ؛ وهذا يرجع فى المقام الأول لأمه ؛ حيث كان لها أكبر الفضل ، وأعظم الأثر فى نظرته للمرأة " المحبوبة" تلك النظرة السامية الراقية التى تقوم على تصوير مشاعر الحب والشوق والألم والحرمان ، واستطابة تلك المشاعر التى تبدو – فى ظاهرها – قاسية شديدة الوقع على المحبين .

ومن بين تلك التجارب الرائقة فى ذلك الجانب الإنساني الرقيق نلتقى بتلك التجربة التى يبرز فيها الشاعر ما يكنه فؤاده من مشاعر الحب واللهفة والحنين إزاء المحبوبة ، وما تقاسيه نفسه من لوعة الشوق ، وحرقة الهوى ، وعذاب البعاد ، طامحاً لوصالها ، وراجياً التنعم بلقائها الذى يُقسم على طهره وبراءته ، مصوراً ما دار بينه وبين نفسه من صراع محتدم حول خوفه عليها من خوض غمار الحُب والهوى والحيرة فى متاهاته ، ومقاساة آلامه وعذاباته ، فتبحيبه نفسه فتزيل ما به من خوف وقلق ،مؤكدة ما سيصل إليه صاحبها – بقلبه المفعم بالإيمان ونفسه المستعصمة بربها – من مرفأ آمن ، وبر سالم ينجو به من ظلمات البحار ، وتلاطم الأمواج .. حيث يقول :

بمـــا فـــى فـــؤادى يبـــوح الفـــم ∴ ويجهـــل غـــيري الـــذى أعلـــم

حنـــيني إليـــك عظيـــم ومـــا ∴ أعانيـــه مـــن لوعتـــى أعظـــم
تعـــالي إلى فبـــى لهفـــة ∴ إليـــك علـــى صدقـــها أقســـم
بـــراءة صوتـــك إشـــراقة ∴ تـــوارى بهـــا ليلـــى المظلـــم
أقـــول لنفســـى التـــى أصـــبحت ∴ بســـاعة رؤيـــتكم تحلـــم
أراك دخلـــت إلى عالـــم ∴ بعيـــد المـــدى أفقـــه معـــتم
أخـــاف عليـــك متاهـــاته ∴ وقلبـــاً يجـــور ولا يـــرحم
فقالـــت: ألســـت تـــرى أفقـــها ∴ وفيـــه الـــرؤى أقبلـــت تبســـم؟!
أتخشـــى علـــي متاهاتـــها ∴ وقلبـــى بإيمانـــه مفعـــم
ســـأدخل عالمـــها مركبـــي ∴ وفـــائى وبـــالله أستعصـــم
يمـــوت الخـــؤون علـــى حقـــده ∴ ويرقـــى بعفتـــه المســـلم[١٩٢]

..وهكذا تبدو أحاسيس الشاعر إزاء محبوبته البعيدة عنه هنا راقية ، ومشاعره سامية .. حيث تقوم على الطهر والسمو ، والعفاف والرقي .. فهو أي الشاعر – ممن يهيم بمحبوبته روحاً وشوقاً ، وعذاباً ووجداً لا كياناً وجسداً .. حيث يبدو واحداً من الغزليين اللذين ذابوا وجداً ، وتفانوا شوقاً إزاء محبوباتهم .. فالحب عنده إحساس نقي ، وشعور روحي .. ومن ثم فلا نرى هنا أصداءً للأدران الجسدية ، ولا أثراً للحسية المفرطة التى تخدش الأذواق السليمة ، وتتصادم مع الفطر القويمة .

وبجانب ما تتسم به عاطفة الشاعر هنا من سمات الطُهر والسمو والرقي ، فهي تتسم أيضاً بالصدق والقوة ، وآية ذلك ما تفيض به تلك التجربة من مفردات موحية ، وتراكيب معبرة ، دفعت بها عاطفة الشاعر الصادقة القوية من مثل :

حنينـــي إليـــك عظيـــم ∴ ومـــا أعانيـــه مـــن لـــوعتى أعظـــم
تعـــالي إلـــى فبـــى لهفـــة ∴ إليـــك ، علـــى صدقـــها أقســـم

.. هذا بجانب تلك التراكيب التى تدل على سمو عاطفة الشاعر ، ورُقيها هنا ، من مثل قوله يُقسم على براءة ، وطهر ذلك اللقاء الذى تهفو ، وتتوق إليه

(١٩٢) ديوان : إلى حواء – صـ ٣٦ ، ٣٧ .

نفسه .. فبى لهفة إليك على صدقها أقسم .. ومن مثل : براءة صوتك .. قلبي بإيمانه مفعم .. مركبي وفائى – وبالله أستعصم .. وكلمات البيت الأخير كلها – تلك التى تحمل معنى الحكمة البليغ ، حيث يقول :

يمـــوت الخـــؤون علـــى حقـــده ∴ ويرقـــــى بعفتـــــه المســـــلم

ثم ها نحن أولاء نلتقى بذلك الاستهلال الدال البليغ الذى استهل به الشاعر تجربته الغزلية الرقيقة تلك : بما فى فؤادي يبوح الفم ... حيث تؤكد تلك الكلمات شدة حب الشاعر ، واتقاد وجده ، وشوقه لمحبوبته ، وتلهفه لوصالها .. وأن قلبه لم يعد يُطيق تحمل إخفاء تلك المشاعر .. فخرجت من ثم منه إلى حيث البوح بها بلسانه .

وفى تحربة أخرى رقيقة شديدة الرقة – خلال تجارب الشاعر فى المرأة " المحبوبة " يبدو شاعرنا فى صورة المُحب المتهالك فى الحب ، والعاشق المتفانى فى الصبابة الذى استسلم لمحبوبه ، ملقياً بقياده بين يديه ، مسترحماً إياه ، ومستعطفاً أن يرق لحاله ، ويرحم ضعفه ، ويخفف عنه ما يلاقيه من حرقة الهوى ، ولوعة الحب ، ونار الشوق ، مهيباً بالمحبوبة أن لا تعجب من إبداء مشاعره المفعمة المشبوبة تلك إزاءها ؛ فهي التى قد أوقدت فى قلبه نار الحب ، وأشعلت فيه أوار الصبابة ، مشيراً إلى أنه يبغى بذلك الخير واليسر ، مبدياً خوفه من أن تريد هي به الشرَّ والعسر .. يقول :

هـــو الحـــب–لـــو تـــدرين يـــذكي مشـــاعرى ∴ ويرســـم فـــى عينيـــك لى صـــورة أخـــرى

مـــددت إلى كفيـــك كفـــى فارحمـــى ∴ وإنـــى لأخشـــى أن تعيـــديهما صـــفرا

ولـــو أننـــى أســـطيع يـــا ســـر لـــوعتى ∴ وضـــعتك فـــى عـــين وســـلمتك الأخـــرى

أمـــيرة قلـــبي، لا تلـــومى مشـــاعري ∴ فقـــد عجـــزت والله أن تجـــد الصَّـــبرا

ولا تتركـــيني فـــى ظـــلام مخـــاوفى ∴ أجـــر رداء الـــوهم فـــى دربهـــا جـــرا

ولا تعجبـــى مـــن لهفتـــى وتحرقـــى ∴ فأنـــت التـــى أشـــعلت فـــى قلـــبي الجمـــرا

مخـــاوف قلـــب يعلـــم لله ســـرّه ∴ نشـــرت بـــه مـــن حيـــث لم تشـــعرى ذعـــرا

لصـــوتك ســـر حـــاول القلـــب كشـــفه ∴ وهـــل يســـتطيع القلـــب أن يكشـــف السِّـــرا؟!

أردت وفـــاءً حـــين أبـــديت لوعتـــى ∴ ويســـراً وأخشـــى أن تريـــدى بـــي العســـرا[١٩٣]

فلنا أن ننظر كيف صوّر الشاعر – خلال تجربته الرقيقة المثيرة تلك – مشاعره المفعمة بالحُب ، المتقدة بناره ، المتأججة بوقوده ، المشبوبة بأواره ، معبراً عنها فى كلمات تنساب رقة ، وتقطر عذوبة ، وتنضح حلاوة .. فأي كلمات أرق وأعذب وأدل على صدق واتقاد حُب الشاعر ، وشدة تفانيه وإخلاصه فى ذلك الحُب .. من تلك التى فاضت بها تجربة الشاعر هنا من مثل : هوَ الحب يذكى مشاعرى .. فارحمى .. وإننى لأخشى ، يا سر لوعتى .. أميرة قلبي .. لا تلومى مشاعرى .. فقد عجزت واللهُ أن تجد الصبرا ، لهفتى ، وتحرُّقى .. أشعلت فى قلبي الجمرا .. ابديت لوعتى .. وما أبلغ وأرق وأدل فى التعبير عن شدة حُب الشاعر لمحبوبه : " سر لوعته " .. قوله :

ولـــو أننـــى أســـطيع يـــا ســـر لـــوعتى ∴ وضـــعتك فـــى عـــين وســـلمتك الأخـــرى

حيث يدل ذلك المضمون على إيثار الشاعر لمحبوبته ، وتفضيلها على نفسه .. وحرصه على حفظها ، وصونها ، وسلامتها من كل أذى .

وبالرغم من ظهور الشاعر – خلال تلك التجربة– فى صورة المُحب المتهالك، والوجد المتفانى الذى ذاب فى المحبوب حبا ووجداً ، وتفانى فيه صبابة وشوقاً .. إلا أنه لم يجنح فى إبداء وتصوير مشاعره تلك إلى الحسية المفرطة التى تنشد فى المرأة جسدها لا روحها .. حيث جمعت صياغته بين الرقة والرقي ، والسحر والسمو ، مؤكداً عاطفة الحب والمَيل للأنثى – تلك العاطفة الإنسانية الخالدة التى فطر وجُبل عليها كل مخلوق : "فهو لا ينشد فى تجارب الغزل فى المرأة مثلما ينشده الكثير الغالب من الشعراء ، مما أفاضوا فى وصفه وذكره ، ولكنه يرجوها لترقأ دموعه إذا طغا سيل الحوادث ، ولتكون أغانيه وأمانيه وأشعاره ، وأحلامه ونوره [١٩٤].

وتبدو عاطفة الحب والحنو والنصح والإشفاق الكائنة فى أعماق الشاعر – خلال تجاربه فى المرأة – فى ذلك الحوار الحانى الذى عقده شاعرنا مع واحدة من النساء المسلمات اللائى خُدِعن ببريق المدنية الزائف ، ووقعن فى شباكة القانص ،

---

(١٩٣) ديوان : إلى حواء – صـ ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ .
(١٩٤) حسن كامل الصيرفي وتيارات التجديد فى شعره : د/ محمد سعد فشوان – صـ ١٤٢ .

فرحن يعتقدن أنها فى التبذل والتبرج فى الثياب ، والتحرر والتحلل من قيود الأخلاق ، والتفنن فى إبداء ألوان الزينة ، وبهرج الحياة .. وفى هذا الحوار يبدو شاعرنا فى صورة المحب الناصح المشفق إزاء تلك المرأة المسلمة المخدوعة فيما تتنكبه من طريق معوجة ، وما تتخبط فيه من سبيل مظلم ، وموجها ومرشداً إياها إلى الطريق القويم ، والصراط المستقيم ، منطلقاً فى ذلك من حبه الشديد لدينه ، وغيرته الكبيرة على حرمته ، وذوده عن عرينه ، ومنافحته عن حياضه ، حيث يقول :

فســـألتها ، والنفـــس حائـــرة ∴ والنـــار فـــى قلـــبي لهـــا وقـــد :
مـــن أيـــن هـــذا الزي؟! مـــا عرفـــت ∴ أرض الحجـــاز ولا رأت نجـــد!!
هـــذا التبـــذل ، يـــا محدثتـــى ∴ ســـهم مـــن الإلحـــاد مرتـــد
فتنمـــرت ثـــم انثنـــت صلـــفاً ∴ ولســـانها لســـبابها عبـــد
قالـــت: أنـــا بالنفـــس واثقـــة ∴ حريتـــى دون الهـــوى ســـد
فأجبتهـــا والحـــزن يعصـــف بـــي ∴ أخشـــى بـــأن يتنـــاثر العقـــد
ضـــدان يـــا أختـــاه مـــا اجتمـــعا ∴ ديـــن الهـــدى والفســـق والصـــد
والله مـــا أزرى بأمتنـــا ∴ إلا ازدواج مالـــه حـــد [١٩٥]

ولعله من نافلة القول ، وفضل البيان أن أشير هنا إلى صدق وقوة وحرارة وسمو عاطفة الشاعر – خلال تجربته هذه – فحب الدين والغيرة على حماه ، والحرص على ما فيه الخير والرشاد لأتباعه من المسلمين هو حاديها ، والدافع إليها .. يبدو هذا جليا في حرص الشاعر علي إبداء الموقف الصحيح ، و الوصف الحقيقي إزاء ما تبدو عليه تلك المرأة المسلمة المخدوعة ببريق التمدين الزئف ، والتحضر المزعوم ، ونفسه كلها حيرة من حالها ، وقلبه متقد ومثقل بنار الحزن والحسرة إزاءها :

فأجبتهـــا والحـــزن يعصـــف بـــى ∴ أخشـــى بـــأن يتنـــاثر العقـــد

(١٩٥) ديوان : إلى حواء – صـ ٧٢ ، ٧٣ .

هـــذا التبـــذل يـــــا محدثتـــــى ∴ ســـــهم فـــى الإلحـــــــاد مرتـــد

ثم هو يصبر على أذاها فى ردّها عليه بسفه وجهالة ، وانصرافها عن نصحه فى صلف وخيلاء وجهل .. وإصرارها على موقفها ، واعتقادها الجازم بصحة ما هي عليه ، واعتدادها بذاتها.

ها هو ذا يصبر على ذلك متحلياً بالحلم والروية والأناه والتؤدة ، يدفعه فى ذلك حبه لدينه ، وحرصه وإشفاقه إزاء بنى دينه .. حيث يُجيبها والحزن يعتصره ، والخوف على الدين يقلقه ، ويقض مضجعه إزاء ما يراها عليه ، ويشاهد، مبينا لها ولكل امرأة مسلمة مخدوعة مثلها القول الفصل فى ذلك الشأن، وأنه لا يجتمع فى امرأة واحدة هذا الازدواج ، وأنه – أي الازدواج – هو السبيل إلى تأخر أمة الإسلام ، والطريق إلى تخلفها عن ركب السيادة والريادة ..

ضـــدان يـــا أختـــاه مـــا اجتمعـــا ∴ ديـــن الهـــدى والفســـق والصـــد

والله مـــــا أزرى بـــــأمتنـــــا ∴ إلا ازدواج مالـــــــــــه حـــــدّ

ولا يخفى هذا القسم الذى يبرز به الشاعر شدة حبه لدينه ، وحرصه على الخير والرشاد لأمته .. وهذا كله يؤكد ما تتحلى به عاطفة الشاعر هنا من سمات القوة والصدق والشرف والسمو ، يحركه فيها انفعال حاد ، وإحساس قوي، وشعور صادق يستمد قوته ، وصدقه من حبه للدين الحنيف ، وغيرته الكبيرة على حرمته .

..وهكذا تتحقق فى تجارب الشاعر – خلال شعره فى المرأة – صفات القوة والصدق والتدفق والسمو .. ؛ وهذا لأن الحب كان ينبوعها جميعاً ، والإحساس والصدق كان الدافع إليها ، والسمو والشرف كان المقصد منها ، وغايتها .. فلا تقوُّل ولا ادعاء ، ولا زيف ولا افتعال .. وهكذا نجد أن الإيمان قد هذب عواطف الشاعر ، وارتقى بها إلى مراتب عُليا من الطهر والسمو ، والعفاف والرقي .. فجاء

تعبيره فيضاً من الإبداع ، ترتاح له الأنفس ، وتنشرح له الصدور ، فيصلح الفاسد ، ويُقوم المعوج[١٩٦].

(١٩٦) التيار الإسلامي فى شعر عبد الرحمن صالح العشماوى – سهيلة زين العابدين حمـــاد – صـــ ١٠٩ .

المبحث السابع : موسيقى الشاعر - خلال تجاربه فى المرأة

تُعّدّ الموسيقى عنصراً أساساً من عناصر النص الشعري ، وأداة بارزة بين الأدوات التى يستخدمها الشاعر فى بناء قصيدته .. وهي ليست حلية أو زينة تضاف إلى ذلك البناء ، " وإنما هي وسيلة من أقوى وسائل الإيحاء ، وأقدرها على التعبير عن كل ما هو عميق ، وخفي فى النفس مما لا يستطيع الكلام أن يعبر عنه ، ولهذا فهي من أقوى وسائل الإيحاء سلطاناً على النفس ، وأعمقها تأثيراً فيها .. " (١٩٧) .

"وبناء على هذا كان النغم جزءاً لا يتجزأ من التجربة، ينمو بنموها، ويتطور مع بقية عناصرها ، ولا يمكن فصله عن الألفاظ .. إذ هو تعبير عن حركة الانفعالات فى نفس الشاعر ، ويكون مع الألفاظ الشكل الذى يتبلور فيه التجربة، فهو جزء متمم لمعنى القصيدة، وبإهماله نهمل جزءاً مهماً من المعنى"(١٩٨).

فالعلاقة بين الموسيقى والشعر علاقة عضوية ، فالشعر فى صياغته الفنية يتكون من عدة تفعيلات تمثل وحدات موسيقية تكسب القصيدة نغماً آسراً .. ومن دواعى إقبال النفس على النص الشعري نشيطة فرحة هانئة تحلّيه بالموسيقى ، حيث تيسر فى حفظه ، وتضمن له البقاء ، وحين تفقد القصيدة سحر هذا النغم ينقطع ذلك الخيط الفني الرقيق الذى يشد المتلقى إلى سماع الشعر ، فالشعر نغم وإنشاد (١٩٩).

ويمكن معالجة النغم والإيقاع والموسيقى عند الشاعر – خلال تجاربه فى المرأة – من خلال ثلاث نقاط رئيسة :

<u>الأولى</u> : ما تقوم عليه تلك التجارب من موسيقى خارجية ، تتمثل فى الأوزان الشعرية "البحور العروضية" التى صب الشاعر فيها تجاربه فى قوالبها ، والقوافى التى تبنى عليها تلك التجارب ، وتنسب إليها قصائد ذلك اللون من الشعر .

---

(١٩٧) عن بناء القصيدة العربية الحديثة –د/ على عشرى زايد – صـ ٧٣.

(١٩٨) عضوية الموسيقى فى النص الشعري:د/عبد الفتاح صالح نافع– صـ٣٩– ط مكتبة المنار–الأردن–١٩٨٥ م .

(١٩٩) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور: د/ صابر عبد الدايم – صـ ١٦ .

الثانية : ما يتوفر فى تجارب الشاعر فى المرأة من موسيقى داخلية تنبع من إيحاء ودقة الكلمات ، وحسن اختيارها ، وتناسق مخارجها .. ومظاهر تلك الموسيقى ، ومكوناتها – خلال شعر العشماوي فى المرأة .

الثالثة : ما يتحقق فى تلك التجارب من مظاهر التجديد والتنويع فى إيقاع ، وموسيقى الشاعر .

ويطيب لى قبل معالجة تلك النقاط – خلال تجارب الشاعر فى المرأة أن أشير إلى ما يتسم به بناؤه الموسيقى فى الكثير الهائل من تجاربه فى المرأة من المحافظة والتقليد ، والسير فى فلك المبدعين القدامى .. حيث دفعه حبه الشديد للتراث العربي .. ومن ثم الشعر العمودي إلى أن يحافظ على قيمه الثابتة ، وتقاليده المورثة .. تنطق بذلك ، وتدل عليه ، ومن تجارب الشاعر فى المرأة – تلك التى صب جلّها فى إطار القوالب الفنية المورثة ، حيث رأيناه وقد التزم فى الكثير الهائل من شعره فى المرأة بالشكل التقليدي الموروث للقصيدة العربية المتمثل فى الوزن والقافية المُوحَدَين .. باستثناء قصائد نادرة جداً نزع فيها الشاعر إلى التجديد والتنويع فى بنائه الموسيقي .. لا ترقى تلك المواضع إلى قاعدة يمكن الحكم على بنائه الموسيقى من خلالها .. فهو لم يُسرف ولم يغال فى تجديده ، ولم يكثر منه ، وإنما جدد برفق وأناة بما يتفق والأصول الفنية ، والثوابت المقررة للقصيدة العربية ، وظل محافظاً على الشعر العمودي بتقاليده وقيمه وثوابته المقررة فى الأعم الأغلب ، والكثير الهائل من تجاربه فى المرأة .

وإليك أيها القارئ الكريم تفصيل القول فى تلك الجزئيات التى تتكون منها جميعاً موسيقى الشاعر – خلال تجاربه فى المرأة – :

أولاً: ما تقوم عليه تجارب الشاعر فى المرأة من موسيقى خارجية تتمثل فى الأوزان الشعرية : "البحور العروضية " ، والقوافى التى تبنى عليها تلك التجارب. التى صب الشاعر تجاربه فى قوالبها ..

أقول شدا شاعرنا وغرد وترنم – خلال تجاربه فى المرأة بتسعة بحور صب قوالبه فى أوزانها ، وأودع أبنيته فى تفعيلاتها ، وهي تأتى بنسبٍ متفاوتة حسبما استعمال الشاعر لتفعيلاتها .. يأتى بحر الكامل فى صدر تلك البحور .. حيث جاءت على تفعيلاته – خلال شعر العشماوي فى المرأة خمس عشرة قصيدة تقريباً ، ويأتى من بعده بحر السريع الذى جاءت على وزنه ثمان قصائد .. ثم تأتى

بعد ذلك بحور الخفيف والرمل والمتقارب بدرجات واحدة ، حيث استعمل الشاعر تفعيلات كل بحر منها –خلال شعره فى المرأة سبع مرات .

ثم يأتى بحر البسيط فنجد الشاعر قد ترنم بألحانه ، وشدا بأنغامه فى ست قصائد ، ثم يأتى بحر الطويل – ذلك الذى صبّ الشاعر فى قالبه الموسيقي ثلاث قصائد تقريباً ، فالمتدارك فى قصيدتين ، الأولى : من شعر التفعيلة ، والثانية من الشعر العمودي .. فالوافر حيث أودع الشاعر فى قالبه الموسيقي خلال شعره فى المرأة قصيدة واحدة تقريباً .

ولعله قد ظهر لنا من خلال ذلك الحصر كيف أن شاعرنا قد شدا وترنم – خلال شعره فى المرأة ببحور مألوفة ، وأنغام شائعة الاستعمال .. حيث تحظى باعتناء الشعراء ، وتلقى منهم قبولاً واستحساناً ، ويجدون معها توافقاً وانسجاما ، وذلك عبر عصور الأدب العربي العامرة الممتدة .. ولعل فى إكثار الشاعر من النظم على موسيقى بحر الكامل ما يوافق الشائع عنه بين نقاد العصر الحديث بأنه أكثر بحور الشعر استعمالاً وورودا فى شعر المُحدثين .. يقول د/إبراهيم أنيس : " وهكذا نرى أن البحر الكامل فى عصرنا الحديث قد أصبح معبود الشعراء ، وهو أيضاً : البحر الذى يستمتع به جمهور السامعين من محبي الشعر ، فيطرقه الآن كل الناظمين ، الشعراء منهم والمتشاعرون ، فإذا وصف القدماء الرجز بأنه مطية الشعراء يمكننا الآن – ونحن مطمئنون – أن نصف الكامل بأنه مطية شعرائنا المحدثين [٢٠٠].

فهو – أي بحر الكامل : كثير الاستعمال لدى الشعراء المحدثين ؛ وهذا يرجع إلى أنه يصلح لكل غرض من الأغراض ، ولذلك كثر فى شعر القدامى والمحدثين ، ويجود فى الخبر أكثر منه فى الإنشاء ، وهو فى الشدة أقرب منه إلى الرقة[٢٠١] .

ولعل إيثار الشاعر لموسيقى ذلك البحر ، وإكثاره من الشدو بإيقاعها ، والتغريد على أوتارها ؛ لعل ذلك راجع إلى صلاحية البحر الكامل – بما يتوافر فيه

---

(٢٠٠) موسيقى الشعر – د/ إبراهيم أنيس – صـ ٢٠٨ – بتصرف – الطبعة الخامسة – ١٩٨١ م .

(٢٠١) فن التقطيع الشعري والقافية د/صفاء خلوصي – صـ ٥٩ – مطابع دار الكتب – بيروت – الطبعة الرابعة – ١٩٧٤م .

من حركات كثيرة ربما لا تجتمع فى بحر غيره .. حيث تجتمع فيه ثلاثون حركة[٢٠٢]؛ للتنفيس عن آهات الشاعر ، والتخفيف عن أحزانه .. فقد وجد فيه الشاعر ذلك المتنفس لما يعتمل بداخله من مشاعر أليمة وأحاسيس حزينة ممتدة عميقة، يستطيع بحر الكامل – بتفعيلاته وحركاته الكثيرة أن يستوعبها ، فيتسع برحابته لها، ولا يضيق بها .. يبدو ذلك بجلاء فى تلك العناوين التى تحملها قصائد الشاعر التى شدا بها ، وترنم – خلالها على أنغام ذلك البحر :" أواه من هذا الفراغ – من يكفكف دمعى؟ – كأس الأسى – "ينابيع الحنان" – "يا أم وجدانى" – "أختى" – " ياليلتى " ، "قطعة من ذاتى" .. حيث نجدها جميعاً تفيض بمشاعر الحب والحنين ، والألم والأنين ،والشوق الدفين .. وكل تلك المشاعر تناسبها موسيقى الكامل .

يقول الشاعر من قصيدته " أواه من هذا الفراغ "!! :

من ذا سأسمعه القصائد بعدها ∴ ومن الذى سينيلنى إعجابها ؟!

من ذا أبشر حين أفرح كى أرى ∴ فى وجهها فرحاً يطير صوابها؟!

من لى بهاتفها الحبيب يجيبنى ∴ "أهلاً حبيبي" يا فديت جوابها؟!

أماه صيرنى فراقك حائراً ∴ فى بيد آلامٍ تسل سرابها

ما زلت أشعر بالضياع كسائرٍ ∴ فى مهمه تسفى الرياح ترابها

أواه من هذا الفراغ وجدته ∴ فى نفسى الحرى يزيد عذابها ![٢٠٣]

وتفيض تلك الأبيات – كما نرى – بمشاعر الحب الفائض ، والحزن البالغ ، والأسى العميق ، والحنين الجارف ، واللهفة الشديدة الكائنة فى أعماق الشاعر، والمستقرة فى حناياه إزاء والدته الحبيبة الغالية الراحلة عن حياته . . تلك التى فجر رحيلها فى أعماقه – كل تلك المشاعر الفياضة ، والأحاسيس المفعمة بالحب والحنين، والألم والشوق الدفين، وغير ذلك من المشاعر الفياضة، والأحاسيس الممتدة التى تناسبها موسيقى بحر الكامل وتستوعبها : " على أننا نستطيع ونحن مطمئنون أن نقرر أن الشاعر فى حالة اليأس والجزع يتخير عادة

---

(٢٠٢) ينظر : موسيقى الشعر بين الثبات والتطور د/صابر عبد الدايم – صـ ٨٧ .
(٢٠٣) ديوان : هي أمى – صـ ٣٦ ، ٣٧ .

وزناً طويلاً كثير المقاطع ، يصب فيه من أشجانه وأحزانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه"[٢٠٤].. بجانب ما يتوافر فى تلك الأبيات من حروف المدّ والتنوين ، حيث يتآزران مع موسيقى بحر الكامل بأنغامه الطويلة وتفعيلاته الكثيرة – فى التنفيس عن آهات الشاعر العميقة ، والتخفيف عن أحزانه البالغة وآلامه الممتدة – خلال التجربة هنا.

ويأتى بعد الكامل بحر السريع .. فنجد الشاعر قد أكثر من النظم على موسيقاه ، ولعله من المستغرب أن يكثر الشاعر من النظم على تفعيلات بحر السريع –.. حيث يخالف بذلك ما عُرِف وذاع عن هذا البحر من ندرة النظم على تفعيلاته ، يقول عنه الباحثون فى موسيقى الشعر العربي :" إن موسيقاه فيها اضطراب ، ولا تستريح إليه الآذان إلا بعد مران طويل .. ؛ وذلك لقلة ما نُظم منه ، والشعراء القدامى لم يُكثروا من النظم فى الإطار الموسيقى لهذا البحر"[٢٠٥] .

ولعل فى إكثار الشاعر من النظم على تفعيلات ذلك البحر يُعدُّ مؤشراً إلى تمكن الشاعر من إيقاعه ، وموسيقاه .

ويأتى بحر البسيط فى المرتبة التالية بين البحور التى نظم الشاعر على تفعيلاتها – خلال شعره فى المرأة .. حيث صبَّ – فى قالبه الموسيقي تسع قصائد يغلب عليها صفة الوجدانية ، حيث تعالج – فى أكثرها – تجارب أبدعها الشاعر فى المرأة المحبوبة – بجانب بعض قصائد أبدعها فى فى أمه .. وشاعرنا فى إكثاره من النظم على تفعيلات ذلك البحر كان مشابهاً لنظرائه من الشعراء العرب فى القديم والحديث .. حيث يحظى ذلك البحر بإيثار الشعراء لموسيقاه .. كما يعد إكثاره من النظم على تفعيلات ذلك البحر دليلاً على كمال موهبته ، وتمكنه من فنه ، وتحكمه فى موسيقاه ؛ لأن هذا البحر يُعد بحر الجزالة والفخامة ، فيغلب على المنظوم منه الرصانة والمتانة ، وشدة الأسر ، وروعة السرد ، وصلابة الحوك ؛ ولذلك يحتاج إلى ثقافة لغوية ضخمة ، وثروة من الأخيلة والمعانى واسعة لا تتفق

---

(٢٠٤) موسيقى الشعر : د/إبراهيم أنيس – صـ ١٧٥ – مكتبة الأنجلو – الطبعة الثالثة – ١٩٦٥م .

(٢٠٥) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور: د/صابر عبد الدايم صـ ١٣١، وينظر : موسيقى الشعر – د/إبراهيم أنيس – صـ ١٨٩ – ٢٠٩ .

لكل شاعر ، فالنظم منه مذلة للشاعر الضحل القليل الحظ من الأساليب العربية [٢٠٦].

حيث يُقبل الشعراء عليه ، لما ينفرد به من الأوتار النغمية ، والإيقاع الذى يعطى النفس حالة من حالات السمو والصفاء [٢٠٧]. ثم هو بحر يتفق مع الشجن والتذكر والحنين" [٢٠٨].

ولعلنا نلتقى بتلك المضامين ، والأجواء النفسية أعنى الشجن و التذكر والحنين – خلال أغلب قصائد الشاعر فى المرأة التى صبها فى قالب ذلك البحر .. من مثل قوله من قصيدته : " وفاء " يُحدث بأفضال أمه عليه ، متذكراً إياها فى إكبار وإعزاز ، وعرفان ووفاء ، مازجاً بين التذكر والحنين ، والشجن والأنين إزاء تلك المواقف العظيمة التى وقفتها أمه مع بنيها بعد رحيل والدهم .. ها هو ذا شاعرنا يتذكر تضحية والدته بشبابها الغض فى سبيل تربيته ، ومعاناتها فى تعويضه عن عطف أبيه الذى فارقه صغيراً :

أبـــى!.. وقـــد صـــرت بعيـــد المـــدى ∴ وهـــل يـــرد المـــرء مـــن قبـــره؟
ليتـــك تصـــحو – يـــا أبـــي–ســـاعة ∴ لكـــى تـــرى الإخـــلاص فـــى قـــدره
لكـــى تـــرى مرتـــــع أحلامـــنا ∴ نســـتروح الأمـــال مـــن زهـــــره
لكـــى تـــرى أمـــــى علـــى عهـــدها ∴ ترضـــعنا الإيمـــان مـــن نهـــره[٢٠٩]

ومما يتحقق فيه مضامين الشجن والتذكر والحنين – تلك التى تناسبها موسيقى البسيط الطويلة – مما يعطى للشاعر مساحة كافية للتنفيس عن آهاته الممتدة ، والتخفيف من أحزانه العميقة – مما يتحقق فيه ذلك من بين القصائد التى صبها الشاعر فى قالب بحر البسيط – خلال شعره فى المرأة أيضاً– قوله من قصيدته : " هي أمى " يُمعن فى تصوير حاله ، وتجسد واقعه بعد فراق والدته .. حيث تلفه مشاعر الحزن والشجن ، والألم والأسى إزاء أمه الراحلة ، متذكراً ما كان لها من أثر فاعل ، ودور مؤثر ، وفضل كبير فى حياته :

---

(٢٠٦) الشعراء وإنشاد الشعر: د/ على الجندى ص ١٠٢ – ط دار المعارف مصر ١٩٩٩ م.
(٢٠٧) دراسات فى النص الشعري – د/عبده بدوي – صـ ٧٢ – ط دار الرفاعي – الرياض – الطبعة الثانية – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .
(٢٠٨) دراسات فى النص الشعري – د/عبده بدوى – صـ ٧٦ .
(٢٠٩) ديوان : إلى حواء – صـ ٥٥ .

لا تقولـــواْ بكيـــت أقســـى بكـــاءٍ ∴ فبكـــاء المحـــب رمـــز الوفـــاء

كيـف لا يـذرف الدمـوع محـب ∴ ذاق مـر الفـراق بعـد اللقـاء ؟!

هـي أمـى فـى فقـدها فقـد عمـر ∴ وحيـاة مـن الرضـا والصـفاء

هـي كنـز الـدعاء يـا لهـف نفسـي ∴ وأسـاها لفقـد كنـز الـدعاء ! !

هـي نبـع الحنـان والعطـف مـن لى ∴ بعـد أمـى برشـفة وارتـواء ؟

هـي بـرد الحنـان فـى قـيظ حزنـى ∴ وهـي دفء الحنـان وقـت الشـتاء

كـم سـخاء فـى النـاس يصـغر لمـا ∴ ترسـم ألام لوحـة للسـخاء (٢١٠)

وهكذا تتشح تلك التجربتان – كما نرى – بوشاح الحزن والشجن ، وتقومان على التذكر والحنين .. وتلك مضامين تتفق وطبيعة موسيقى ذلك البحر .. حيث تتسع لتستوعب تلك المشاعر التى ينفس بها الشاعر عن أحزانه ، ويبث – من خلالها– شجونه ، ويسكب بها دموعه .

ومن بين البحور التى استعمل الشاعر موسيقاها ، وصَبَّ بعض تجاربه فى المرأة فى قالبها .. بحر الخفيف .. : "وهو بحر ساطع النغم ، بارز الموسيقى، صالح للحوار والجدل والترديد والسرد ، وهو أخف البحور على الطبع، وأحلاها للسمع (٢١١)**.**

ومن الطبعي أن يكثر الشاعر من النظم على موسيقى ذلك البحر ؛ لما يتسم به إيقاعه من الخفة والرشاقة ، واليسر والسهولة .

ومن بين تجارب الشاعر فى المرأة التى صبها فى قالب ذلك البحر قصيدته الرقيقة التى باح فيها بمشاعره الخاصة ، وأحاسيسه الذاتية نحو رفيقة دربه ، وشريكة عمره ، وقسيمة آلامه وآماله .. حيث يقول :

مـن معانيـك أسـتقى ألحـانـى ∴ فـاهتفى يـا مذيبـة الأحـزان

افرشـى هـذه الطريـق وفـاءاً ∴ فطريقـى مفروشـة بالحنـان

---

(٢١٠) ديوان : هي أمى – صـ ١٦ .

(٢١١) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور: د/صابر عبد الدايم يونس – صـ١١٨ .

ظللـــى عُشـــنا الجـــديد بـــروح الـــ ∴ حـــب حتـــى نعـــيش فـــى اطمئنـــان
رحلـــة العمـــر – يـــا رفيقـــة عمـــرى ∴ زادهـــا الحـــب والرضـــا والتفـــانى
أنـــت عـــزف الرضـــا علـــى وتـــر القلـــ ∴ ب ولحـــن الوفـــاء فـــى وجـــدانى
أنـــت معنـــى مـــن الطهـــارة يســـمو ∴ بفـــؤادى عـــن مغريـــات الزمـــان
وعلـــى مـــتن حُبِّنـــا قـــد رحلـــــنا ∴ ومضـــينا إلى أجـــل مكـــان[٢١٢]

وبحر الرمل الذى هو " بحر الرقة " ومن ثم يجود نظمه فى الأحزان والأفراح و الزهريات [٢١٣].. هذا البحر كان له وجود وتحقق ملحوظ فى بناء الشاعر الموسيقى خلال تجاربه فى المرأة ، لاسيما فى تلك التجارب التى توغل فى الوجدانية ، وتمعن فى الذاتية ، وتتشح بوشاح الحزن والأسى ، من مثل قوله فى إحدى تجاربه الرقيقة فى المرأة المحبوبة .. حيث يبدو – فى صورة المُحبِّ المتهالك فى الشوق والصبابة – الذى أضناه الحب ، واستبد به الشوق ، وبراه الوجد ، واتقدت لديه نار الصبابة إزاء محبوبته – تلك التى ملكت عليه نفسه ، ولا ينفك عن تذكرها ، حيث يراها فى كل وجهة يحل فيها ويرتحل ، إلا أن الأقدار لم تتح لهما اللقاء ، فقد سخرت منهما الأمانى ، وخابت لديهما الآمال !! :

فيـــك للأشـــواق معنـــى المشـــرق ∴ فـــارفقى بالنـــابض المُحـــترق
كلمـــا حاولـــت أن أنســـى الهـــوى ∴ جـــردت ذكـــراك ســـيف الأرق
أينمـــا يممـــت يـــا فـــاتنتـــى ∴ كنـــت فـــى كـــل جهـــاتى أفقـــى
كنـــت – والله– علـــى موعـــدنا ∴ والمُنـــى كـــل المُنـــى أن تثقـــى
غـــير أن المـــوج يـــا فـــاتنتى ∴ مـــدّ للـــزورق كـــفَّ الغـــرق
منهـــل عـــذب ســـعينا نحـــوه ∴ فـــأراد الله ألا نســـتقى
سَـــخِرت مِنـــا المُنـــى– يـــا ويحنـــا ∴ جمعتنـــا فـــى طريـــق ضـــيّق ! ![٢١٤]

(٢١٢) ديوان : إلى حواء صـ ٢٢ ، ٢٣ .
(٢١٣) الشعراء وإنشاد الشعر – د/ على الجندي – صـ ١٠٢.
(٢١٤) ديوان : إلى حواء – صـ ١٠٠، ١٠١ .

فمثل هذه التجربة الرقيقة التى يكسوها الحُزن ، ويكتنفها الألم .. تلائمها موسيقى بحر الرَّمل الرقيقة .

وأيضاً كان لبحر المتقارب وجود وتحقق ملحوظ فى بناء الشاعر الموسيقي – خلال تجاربه فى المرأة – حيث يأتى فى درجة واحدة هو والرمل والخفيف ، وهو : "بحر فيه رقة ، ونغمة مطربة .. على شدة مأنوسة .. " (٢١٥). وهو أيضاً :" بحر يتسم بانسجام موسيقاه ، وحسن وقعها فى الآذان(٢١٦) .

ولعل تلك الأوصاف التى يتصف به ذلك البحر ، حيث الرِّقة ، والنغم العذب ، والإيقاع الآسر ، والموسيقى المنسجمة ؛ مما يدخل على النفس الراحة والطرب هي ما حدت بالشاعر ، ودفعت به إلى أن ينظم على موسيقاه تجارب وجدانية هي غاية فى الرقة تفيض بمشاعر الحُب والحنين والوجد والشوق الدفين إزاء المرأة .. محبوبةً كانت أم زوجة .

ومن ذلك قوله يُصور ما يتسم به من مشاعر الحُب والحنين واللهفة والشوق الدَّفين إزاء محبوبته البعيدة ؛ مؤكداً سمو مقصده فى ذلك الحُب والشوق، منبئاً عن طبيعة تلك المحبوبة ، وأنها من ذوات الصون والعفاف .. حيث يُشرق بطلعتها ليله ، وتنير بضوئها ظلماته..حيث يقول :

بما فى فؤادي يبوح الفم ∴ ويجهل غيرى الذى أعلم
حنيني إليك عظيم وما ∴ أعانيه من لوعتى أعظم
تعالي إلي فبى لهفة ∴ إليك على صدقها أقسم
براءة صوتك إشراقة ∴ تواري بها ليلي المظلم(٢١٧)

وعلى غير عادة الشعراء – فى إكثارهم من النظم على تفعيلات بحر الطويل نرى الشاعر قد قلل من استعمال موسيقى ذلك البحر – خلال تجاربه فى المرأة : "حيث يُلقى (بحر الطويل) بظلّه على ثلث الشعر العربي تقريباً (٢١٨) .

---

(٢١٥) الشعراء وإنشاد الشعر – د/ على الجندى – صـ ١٠٦ .
(٢١٦) يراجع : موسيقى الشعر – د/ إبراهيم أنيس – صـ ١٠٦ – ط الخامسة – ١٩٨١م .
(٢١٧) ديوان : إلى حواء – صـ ٣٦ .
(٢١٨) ينظر : دراسات فى النص الشعري د/ عبدة بدوى – صـ ١١٦ .

ويأتى بعد ذلك بحر المتدارك وهو : " بحر سريع الإيقاع ذو موسيقى واثبة تتناسب مع سرعة الإيقاع فى هذا العصر..، وهي أيضاً انعكاس لشدة الانفعالات ، وتأجج العاطفة وتوقدها[٢١٩].

.. وهذه الأوصاف نجدها متحققة فى القصيدة التى صبها – الشاعر فى قالب ذلك البحر .. حيث تُعالج مضموناً جاداً ، وتجربة مؤثرة تثير فى نفوس المتلقين مشاعر الأسى والشجى إزاء تلك الطفلة الحالمة ، والزهرة الغضَّة التى خرب المستعمر الغاصب بيتها فاستحال بقايا رماد .. وأكوام تراب .. وهنا تسأل تلكم الطفلة – البريئة أباها – فى ذهول ودهشة ، وتعجب واستغراب عما حل ببيتها من خراب ، وما نزل بقريتها من دمار .. يقول الشاعر من قصيدته: " طفلة وأنقاض " فى كلمات رقيقة مؤثرة على لسان طفلة ذلك البيت الذى عبثت به أيدى المستعمر الآثمة فاستحال أطلالاً:

أبتي ..

لم يبق من الدار ∴ إلا غرفتنا وجدار!!
قريتنا –يا أبتى – صارت ∴ كالجمر تلهبه النار!!
أشجار القرية ما عادت ∴ يا أبتى – تلك الأشجار!!
اللعبة- يا أبتى- انكسرت ∴ والبلبل من قفصى طار!!
وحقيبة مدرستى احترقت ∴ واحترقت فيها الأفكار!!
ما هذى الضجة – يا أبتى ∴ أغزا قريتنا الكفار؟ ![٢٢٠]

....

ولا شك فى أن موسيقى ذلك البحر – أعنى المتدارك – الواثبة إنما تعكس خلال – تلك التجربة – شدة انفعال الشاعر ، وتأجج عاطفته ، وتوقدها ، ومن ثم تأثير ذلك فى نفوس المتلقين .. " إذن بحر المتدارك يصلح قالباً شعرياً لشدة الانفعال ، وتأجج المشاعر ، وليس كما قيل عنه : أنه يتميز بخفته ، وسرعة

---

(٢١٩) ينظر : موسيقى الشعر بين الثبات والتطور – د/ صابر عبد الدايم – صـ ١٠١ – بتصرف .

(٢٢٠) ديوان : إلى حواء – صـ ١٣٣ ، ١٣٤ .

تلاحق أنغامه .. وهذه الخفة ، وتلك السرعة تجعلانه لا يصلح إلا للأغراض الخفيفة الظريفة [٢٢١].

ولعل تلك القصيدة التى معنا هنا – بما تحمله من مضمون جاد ، تنفى ما تصفه نازك الملائكة بحر المتدارك هنا ، وتؤكد كون تلك السمات غير مطردة ولا ثابتة ، ولا يخفى مجئ القافية هنا مقيدة .. حيث تناسب ما تقوم عليه التجربة هنا وتجسده من مشاعر منكسرة ، وأحاسيس كئيبة جد حزينة .

ويقع بحر الوافر – فى المرتبة الأخيرة بين بحور الشعر العربي التى صبَّ الشاعر تجاربه فى المرأة فى قوالبها .. وهو : " ألين البحور يشتد إذا شددته ، ويرق إذا رققته ..[٢٢٢] .

فهو بحر فى حالة الشدة : " يصلح لموضوعات الحماسة والفخر والمدح والهجاء وما إليها ، وفى حالة الرقة يصلح لموضوعات الغزل والرثاء والوجدانيات وما إليها .. ؛ لذلك نراه كثير الشيوع فى الشعر العربي – قديمه وحديثه [٢٢٣].

.. وقد جرى الشاعر فى قلة نظمه على موسيقى ذلك البحر على غير عادة الشعراء .. حيث يشيع استعمال بحر الوافر – كما ذكر –فى الشعر العربي قديمه وحديثه ، ويتسع إيقاعه لموضوعات الشعر ، وفنونه المختلفة .

وقد كانت القصيدة التى صبها الشاعر فى قالب الوافر خلال شعره فى المرأة من ذلك اللون الوجداني الرقيق .. فهي تعالج تجربة غزلية رقيقة يُناسبها الجانب الآخر من موسيقى ذلك البحر ، أعنى: جانب الرِّقة المتوفر عليه .. حيث يقول الشاعر من قصيدته : " لوعة " مصوراً ما يقاسيه من لواعج الحب والشوق والحنين إزاءمحبوبته البعيدة تلك التى كم يأمل فى لقائها ، ويطمح فى وصالها ، طارحاً عنه اليأس والأسى ، ومطمئناً نفسه بالأمل والرجاء :

أعـــــانى بالفـــــراق أســـــى ∴ وأذكـــــركم صـــــباح مســـــا

---

(٢٢١) يراجع فى ذلك : قضايا الشعر المعاصر – نازك الملائكة – صـ ١٣٢ ، ١٣٣ – ط دار العلم للملايين – ط الخامسة ١٩٧٨ م ، وينظر : موسيقى الشعر بين الثبات والتطور– د/صابر عبد الدايم يونس – صـ ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢٢٢) الياذه هوميروس – سليمان البستانى – صـ ٩١ – ط دار إحياء التراث العربي .

(٢٢٣) ينظر : المعجم المفصل فى علمي العروض والقافية وفنون الشعر – إعداد د/إميل بديع يعقوب – صـ ١٦٢ بتصرف – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط الأولى – ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

وبـــي مـــن لوعـــة الهجـــرا ∴ ن مـــا هـــد المنـــى وقســـا

ولـــى أمـــل يمطالنـــى ∴ تعلـــم منـــك واقتبســـا

أيمضـــى العمـــر مـــا نطـــق الـــ ∴ رضـــا يومـــاً ولا همســـا؟

ولـــم نفـــرح مـــن اللقـــيا ∴ ســـوى بلعـــل أو بعســـى

نظـــرت بعيـــن محتـــرس ∴ وقـــد يكبـــو مـــن احترســـا

أنيـــأس مـــن ســـعادتنا ∴ ونحـــن نلـــوم مـــن يئســـا ؟!

فكـــم مـــن زورقٍ لعبـــت ∴ بـــه الأمـــواج ثـــم رســـا

إذا مـــا زرتنـــى أمـــلاً ∴ فـــزر ألمـــاً، وزرقبـــسا ![٢٢٤]

ولا يخفى الجناس الرائق بين كلمتي : " أملاً" و "ألماً" ، وما يُحدثه من نغم داخلي عذب ، وإيقاع موسيقي آسرٍ .. بجانب ما بين تلك الكلمتين من تضادٍ من شأنه أن يبرز المعنى ، ويجلِّى المضمون ويؤكده هنا .

ونأتى إلى الحديث عن اللون الثانى من ألوان الموسيقى الخارجيه ـ خلال تجارب الشاعر فى المرأة ـ وهو: ـ " القافية " قرين الوزن ، وصنوه ، وقسيمه ، وشريكه فى إكساب القصيدة النغم والإيقاع .. فالقافية هي مقوم رئيس، ومكون أساس من مقومات ومكونات النص الشعري ، وعنصر أكيد من عناصر بنائه الموسيقي .. حيث تأنس لموسيقاها الآذان ، وتطرب لنغمها الأسماع ، وتستريح لوقعا النفوس .. فهي ـ أي القافية ـ :" تاج الإيقاع الشعري ، وهي لا تقف من هذا الإيقاع موقف الحلية ، بل هي جزء لا ينفصم منه ، إذ تمثل قضاياها جزءا من بنية الوزن الكامل تفسر من خلاله ، وتفسره ، فهما وجهان لعملة واحدة "[٢٢٥] .

وللقافية قيمة موسيقية فى مقطع البيت ، وتكرارها يزيد فى وحدة النغم ، ولدراستها فى دلالتها أهمية عظيمة .. فكلماتها فى الشعر الجيد ذات معان متصلة

---

(٢٢٤) ديوان : إلى حواء – صـ ١٢ ، ١٣ .

(٢٢٥) القافية تاج الإيقاع الشعري: د/ احمد كشـك ـ صـ ٩ – ط المكتبـة الفيصـلية – ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

بموضوع القصيدة ، بحيث لا يشعر المرء أن البيت مجلوب من أجل القافية ، بل تكون هي المجلوبة لأجله "[٢٢٦] .

والناظر فى قوافى الشاعر ـ خلال تجاربه فى المرأة يجده قد عُني بها عناية فائقة ، فجاءت فى الكثير الغالب منها من مكونات النص الرئيسة ، حيث تنضم مع غيرها فى تجسيد حالة الشاعر النفسية والشعورية ، كما جاءت فى الأعم الأغلب موائمة للموقف الذى ترد فيه ، .. فلم تكن قلقة ، ولا مقحمة فى موضعها ، ولا مجتلبة ولا مغتصبة فى موقعها .. حيث كانت جزءاً لا يتجزأ من المعنى الذى ترد فيه .. ومن ثم غدت كالشيء المنتظر ، والأمر المرتقب الذى يشفى غلة المتلقى ، ويروى ظمأه .. يبدو ذلك متحققا فى الكثرة الهائلة من تجارب الشاعر فى المرأة .

وممَّا يتحقق فيه ذلك ـ بجلاء ـ قوله من قصيدته :"أنشودة الفجر" :

فالحب فى رحلتنا مركب ∴ من سطوة الآلام ينجينا

وفى هجير الصيف ظل لنا ∴ من قسوة الصحراء يحمينا

الحب يا روضتنا منزل ∴ من نزوات الريح يؤوينا[٢٢٧]

فقد رشح الشاعر لقافيته ، وأومأ إليها ، وأوحى بها ، ودل عليها هنا ـ كما نرى ـ قبل أن يصل المتلقى إليها فى كل بيت من تلك الأبيات .. فالمركب من شأنه ـ فى ظل الحب ـ أن ينجى من الآلام ، ويقى من المهالك .. مركب من سطوة الآلام ينجينا .. والظل فى رحاب الحب أيضا فى قسوة الصحراء ، وقيظ الصيف ، وهجير البيداء من شأنه أن يحمى المحب ، ويقيه .. والحب هو منزل يحفظ المحب من عواصف الأيام ، ومخاطر الليالى ، حيث إنه الركن الآمن الذى يأوى إليه المحب ، ويحتمى به .

.. وهكذا تبدو القافية فى هذه الأبيات جزءا لا يتجزأ من المضمون ، وبعضاً منه ، لا ينفصم عنه بحال .. حيث يتطلبها المضمون ، ويستدعيها ، ويأخذ بتلاليبها فى انسجام وتناغم وائتلاق .. بحيث لا يشعر المتلقى أن الابيات هنا مجلوبة من أجل القافية ، وإنما القافية هي المجلوبة من أجلها ـ أي الأبيات.

---

(٢٢٦) النقد الأدبى الحديث: د/ محمد غنيمى هلال – صـ ٤٢٢ – ط نهضة مصر ـ ١٩٧٧م .

(٢٢٧) ديوان : إلى حواء ـ صـ ١٧ .

وتبدو القافية المناسبة للمضمون ، المتممة للمعنى التى تأتى كالشئ المنتظر ، والأمر المرتقب الذى يتشوق إليه المعنى ، فتأتى من ثم . وكلها انسجام وائتلاق معه ، فلا يشعر المتلقى إزاءها بأي تنافر ولا نشاز ، ولا قهر ولاإكراه .. تبدو تلك القافية متحققة فى قول الشاعر من قصيدته : " رحلة العمر " .. حيث يفضى بمشاعره الذاتية ، ويبوح بها بين يدي رفيقة عمره ، وشريكة دربه : " زوجه " :

من معانيك أستقى ألحانى ∴ فاهتفى يا مذيبة الأحزان

افرشى هذه الطريق وفاء ∴ فطريقى مفروشة بالحنان

ظللى عشنا الجديد بروح الـ ∴ حب حتى نعيش فى اطمئنان

رحلة العمر يارفيقة عمرى ∴ زادها الحب والرضا والتفانى[٢٢٨]

كما نلتقى بذلك اللون من القافية السمحة المتمكنة غير القلقة فى قول الشاعر يؤكد فضل أمه عليه ، مشيرا إلى أنه يستمد منها الحياة والانطلاق ، والنور والإشراق الذى يبدد الغياهب والظلمات ، كما أنه يستمد من نبعها الصافى إكسير الحياة ، ومصدر البقاء :

رب ليل ضمنى قد ∴ أثقل الوجد خطاه

كنت فيه الفجر يمحو ∴ ظلمة الليل سناه

أي نبع أنت عذب ∴ ترتوى منه الحياه[٢٢٩]

فالقافية فى هذين الموضعين سمحة طيعة ممايستدعيها المعنى ، ويتطلبها المضمون .. بعد أن أحلها الشاعر مكانها المناسب ، وأنزلها منزلها اللائق .. فأتت كالموعود المنتظر ، والمأمول المرتقب .. ومن ثم فلا قلق ولا غصب ، ولا قسر ولا إكراه .. وإنما هي منسجمة مع المضمون ، متصلة بسياق الأبيات ، لا يمكن الاستغناء عنها ، والا الاستعاضة بها .

---

(٢٢٨) ديوان : إلى حواء ــ صـ ٢٢ .
(٢٢٩) المصدر السابق ــ صـ ٢١ .

ولنا أن نقف على هذا من خلال التعايش مع التجربة الثانية .. حيث نرى الشاعر يأتى بالقافية مقيدة ؛ كى تناسب مايشتمله من تقيد وصراع ، ومايلفه من حزن وانكسار وقد رأى فى أمه طوق النجاة ، وسبيل الفكاك ، والطريق نحو الانطلاق .. فليل المحب الوجد عادة ما يكون وئيد الخطى ،ثقيل السير : أثقل الوجد خطاه !! ، وما أجمل أن يجعل الشاعر من أمه الفجر ذلك النور الذى يبدد ظلمة الليل .. والنبع الذى فيه إكسير الحياة .. وهنا تطالعنا القوافى الطيعة المتمكنة التى يتطلبها المعنى ، ويستدعيها المضمون من مثل : سناه ، الحياه ، حيث يغدو النغم بناء على هذا جزءا لا يتجزأ من التجربة ، ينمو بنموها ، ويتطور مع بقية عناصرها ، ولا يمكن فصله عن الألفاظ إذ هو تعبير عن حركة الانفعالات فى نفس الشاعر ، ويكون مع الألفاظ ، والشكل الذى تتبلور فيه التجربة فهو جزء متمم لمعنى القصيدة ، وبإهمالها نهمل جزءاً هاما من المعنى "(٢٣٠)

والناظر فى تجارب الشاعر فى المرأة يجده قد تمسك فى الجل الأعظم ، والكثير الهائل من قصائده فيها بالشكل العمودي ذى الشطرين المتساويين . باستثناء قصائد قليلة جدا خرج فيها على ذلك الشكل التقليدي . الموروث للقصيدة العربية .. حيث نوع . من خلالها . فى قوافيه ، وعدد ، وجدد .

والمستقصى لتجارب الشاعر فى المرأة يجده قد استخدم فى قوافيه من بين حروف الهجاء ستة عشر حرفا تأتى مرتبة على النحو التالى :

أولا : جاء كل من الراء والنون فى المرتبة الأولى ، حيث جعل الشاعر كل واحد منهما رويا للقافية فى ثمانى قصائد تقريباً .

ثانيا : جاء حرف الباء فى المرتبة الثانية ، حيث جعله الشاعر رويا للقافية فى خمس قصائد تقريباً .

ثالثا : جاءت حروف الهمزة ، والحاء ، والدال ، والقاف ، واللام ، والميم ، والياء فى المرتبة الثالثة .. حيث جعل الشاعر كل حرف منها رويا للقافية فى ثلاث قصائد .

رابعا : جاءت حروف التاء والسين والفاء والهاء فى المرتبة الرابعة .. حيث جعل الشاعر كل حرف منها رويا للقافية فى قصيدتين .

---

(٢٣٠) عضوية الموسيقى فى النص الشعري : د/ عبد الفتاح صالح نافع ــ صـ ٣٩ ط مكتبة المنار ــ الأردن ط الأولى ــ ١٩٨٥ م .

خامسا : جاء فى النهاية حرفا الخاء والعين .. حيث جعل الشاعر كل واحد منهما رويا للقافية فى قصيدة واحدة تقريباً .

وبهذا تكون الحروف التى استعملها الشاعر رويا لقوافيه من اللون الشائع المألوف فى الاستعمال العربي ، والحروف التى أهملها باستثناء : حرف " الخاء " من اللون النادر القليل الاستعمال فى الشعر العربي .. على نحو ما يبدو فى تقسيم د/ ابراهيم أنيس للحروف العربية فى اتخاذها رويا للقوافى من حيث الكثرة والذيوع ، والتوسط والندرة والإهمال(٢٣١) .. ولعل اهمال الشاعر لتلك الحروف وعدم استعمالها للقافية فى شعره . هو وغيره من شعراء العربية .. ؛ لعل ذلك راجع الى كون تلك الحروف : " كريهة بشعة ، تصدم الآذان ، وتغشى النفس، وتخدش الحاسة الفنية(٢٣٢) .

ويطيب لى أن أورد هنا بعض الأنماذج التى تبدو فيها القافية الرائية ملائمة للجو النفسي والشعوري الذى يسيطر على الشاعر خلال شعره فى المرأة .. حيث نلتقى فى هذا الصدد بتلك الأبيات التى يجسد الشاعر من خلالها ماينتابه من مشاعر الحزن والجوى ، وما يتملك قلبه من أحاسيس الألم والأسى إزاء فقد أمه الحبيبة . تلك التى يتفجع على ذهابها ، ويستعظم المصيبة فى فقدها ، ويصبر نفسه ، ويعزيها فى مصابها الجلل ، ورزئها الفادح ، وخسارتها الكبيرة ، حاثا إياها على الصبر والرضا، وأن تحتسب فقد والدته عند الله سبحانه وتعالى ، فتستسلم لقضائه وقدره جل وعز .. حيث يقول :

أواه ـ ياأماه ـ من لفح الأسى ∴ لما تمكن من فؤادى واستعر

لولا التعلق بالإله لنالنى ∴ مانال قلب " متمم " لما انفطر

---

(٢٣١) ينظر: موسيقى الشعر – د/ ابراهيم أنيس ــ صـ ٢٤٨ – الطبعة الخامسة – ١٩٨١ م ... حيث قسمها فى مجيئها روياً – حسب إيقاعها الموسيقى ، وخصائصها الصوتية إلى أربعة أقسام : أ- حروف تجئ روياً بكثرة ، وإن اختلفت نسبة شيوعها فى أشعار الشعراء وتلك هي : (الراء – اللام – الميم – النون – الياء – الذال) ب- حروف متوسطة الشيوع ، وتلك هي : (التاء – السين – القاف – الكاف – الهمزة – العين – الحاء – الفاء – الباء – الجيم) ج- حروف قليلة الشيوع وهي : (الضاد – الطاء – الهاء) د- حروف نادرة فى مجيئها روياً ، وهي : (الذال – الثاء – الغين – الخاء – الشين – الصاد – الزاي – الظاء – الواو).

(٢٣٢) الشعراء وإنشاد الشعر ــ د/ على الجندى ــ صـ ١٢٠ .

وســـدتك الطـــين المبلـــل فـــى الثـــرى ∴ مستسلـــــما لقضـــــاء ربـــــى والقـــــدر

والله لـــــولا ســـــنة الدفـــــــن التـــــى ∴ كتبـــت لكـــان الجفـــن قـــبرك والمقـــر[٢٣٣]

ولا يخفى أن الشاعر يجتهد ـ قدره هنا فى تجسيد ماينتابه ،ويستبد به من مشاعر الحزن والألم ، والأسى والجوى إزاء فقد والدته الحبيبة ، حيث يبدو فى صورة المحب المتهالك فى حب أمه ، المتفانى فيه ، المستعظم المصيبة فى فقدها .. ومن ثم يكاد يظهر فى صورة الهلع والجزع إزاء فقدها لولا قوة إيمانه ، وصحة عقيدته ، ورسوخ يقينه بأن الفناء هو مصير كل حى .. ها هو ذا شاعرنا يجتهد فى تجسيد تلك المشاعر الحزينة من خلال تعابيره الدالة ، وتراكيبه البليغة من مثل : أسلوب الندبة الذى استهل به كلامه هنا : آواه ياأماه .. وما يدل عليه من تملك مشاعر الألم والانين والبكاء والحنين من نفس الشاعر إزاء أمه الراحلة .. بجانب هذا المد المتوفر فى الكلمتين ، وما يعطيه للشاعر من مساحة كافية للتنفيس عن آهاته الممتدة ، وأحزانه العميقة إزاء هذا الموقف المؤثر الذى يقفه هنا .. وأيضا من مثل تلك العبارات : لفح الأسى .. تمكن فؤادى .. واستعر .. بجانب توظيفه للتراث الاسلامي ـ من خلال أحداثه وشخوصه .. حيث قلب متمم بن نويره الذى انفطر كمداً ، وتقطع حزنا على قتل شقيقه .. عاقدا مماثلة بين هذا المشهد ، وبين ما يقفه من مشهد جد مؤثر هنا .

ثم ما أبلغ فى الدلالة على شدة حب الشاعر لأمه ،وبالغ تعلقه بها ، واستعداده لأن يفتديها بروحه ، ويضحى من أجلها بنفسه ، فتبقى دائما ، ولا تغيب قط عن نظره .. ما أبلغ فى الدلالة على تلك المشاعر قوله :

والله لـــــولا ســـــنة الـــــدفن التـــــى ∴ كتبـــت لكـــان الجفـــن قـــبرك والمقـــر

وقد أسهم حرف الراء ـ بما يقوم عليه من صفات وخصائص موسيقية فى إبراز التيار الشعوري ، والنفسي الذى يسيطر على الشاعر هنا ، فالراء صوت مجهور من شأنه أن يبرز حالة الشاعر ، ويجليها ، بجانب ما يحدثه ترداد هذا الحرف من طرف اللسان من الإشارة إلى ما يعانى منه الشاعر من ألم الفقد ، ومرارة الثكلان الذى لا يتحمله ، ولا يقوى عليه .. فهو ـ أي الشاعر ـ ينبئ بهذا الحرف ـ الذى يقوم على التكرار ـ عن نفسيته المعذبة ، ومشاعره الكئيبة ، وترسب

---

(٢٣٣) ديوان : هي أمى صـــ ٣١ .

ذلك الحزن فى أعماقه وتملكه من قلبه ، ومحاولته المتكررة التخفيف من هذا الشعور الحزين الذى ينتابه ، ويسيطر عليه من أثر فقد والدته الحبيبة .

والقوافى النونية كانت أيضا من القوافى التى أكثر الشاعر من استعمالها فى شعره فى المرأة .. ومن بين تلك المواضع التى تحققت فيها تلكم القوافى نلتقى بقوله يجسد ما تفيض به نفسه ، وتمتلأ أعماقه إزاء أمه البعيدة من مشاعر الألم والحزن العميق ، والحب والشوق والحنين من أثر صوت أمه البعيدة – ذلك الذى سمعه عبر الهاتف ، فبعث فى نفسه كامن الأشجان ، وأثار فيها لاعج الأشواق ، وسره من حيث أبكاه .. فقد كان فيه العطف والحنان ، والدفء والإيناس .. ، والشوق والحنين ، وأيضاً الشجى والأنين والحزن الدفين .. إزاء أمه البعيدة فذرفت من ثم منه الدموع ، وانثال عليه البكاء:

بعث الصوت كامن الأشجان ∴ مثلما سرَّنى فقد أبكانى
نقل الهاتف الحديث المُرجى ∴ فسرى الدِّفء والرضا فى كيانى
أي صوت هذا الذى خالط النفـ ∴ س ، وأحيا النشيد فوق لساني ؟
إنّه صوتها نشأت عليه ∴ نغم فيه قصة الإنسان
صوتها لم يزل يعانق قلبي ∴ فيه فيض من عطفها والحنان
موسقته الأشواق حتى تجلَّى ∴ نغماً ساحراً يهز جنانى
صوت أمِّى..مازال يزرع إحسا ∴ سى فينمو الإيمان فى وجدانى
أيها الصوت قد بعثتَ حنينى ∴ ودللتَ الذكرى على عنوانى (٢٣٤)

.. فقد ناسب حرف النون ـ هذا الصوت المجهور الذى يساعد على إبراز الشعور بقوة الاحساس بالألم والحزن (٢٣٥) بما تقوم عليه من التأوه والأنين ناسب هذا الموقف المؤثر الذى يقفه الشاعر هنا .. وقد جاء حرف النون هنا مكسوراً .. وفى الكسرة انكسار .. بجانب حرف الوصل الذى يعقب النون هنا ، وما يعطيه كل ذلك من مساحة كافية للتخفيف من آهات الشاعر الممتدة ، ، وأشواقه الحارة ،

(٢٣٤) ديوان : إلى حواء – ٣٨ ، ٣٩ .
(٢٣٥) ينظر : موسيقى الشعر بين الثبات والتطور – د/صابر عبد الدايم – صـ ٢٢.

وأنفاسه المتلاحقة ، والترويح عن نفسه الحزينة ، والتنفيس عنها .. بجانب إكثار الشاعر من استعمال حروف المد هنا ؛ لتزيد بذلك الإيقاع غنىً وثراء ، وتكسبه بطئاً يتيح للشاعر – من خلاله – أن يبرز ما ينتابه من مشاعر الحب والشوق واللهفة والحنين إزاء أمه البعيده بعد أن سمع صوتها عبر الهاتف .. حيث تُعطى له هي الأخرى – مساحة كافية للتنفيس عن آهاته ، والتخفيف من أحزانه .

كذلك كان للغة الشاعر الموحية ، وكلماته المعبرة ، وتراكيبه الدالة ـ تلك التى تفيض بها التجربة هنا ـ أثر كبير فى تجسيد مشاعره ، وتصوير انفعالاته من مثل : بعث الصوت كامن الاشجان .. فسرى الدفء والرضا فى كيانى .. أي صوت هذا الذى خالط النفس .. وأحيا النشيد فوق لسانى ـ صوتها نغم .. لم يزل يعانق قلبى .. فيه فيض من عطفها والحنان .

ولعل فى افتتان الشاعر بحرف الباء ، وإكثاره من جعله رويا لتجاربه فى المرأة ما يبرره ؛ إذ إن فيما يحمله هذا الحرف من صفات وخصائص موسيقية أبرزها الجهر والقوة : " حيث إنه من الأحرف المجهورة التى يهتز بسببه الوتران الصوتيان فى الحلق عند النطق "[٢٣٦] مما يناسب حال الشاعر النفسية والشعورية – خلال تجاربه تلك التى يغلب عليها الشجى والوجوم، وتفيض بمشاعر الحب والحنين .. من مثل تلك التجربة أبدعها الشاعر فى بكاء والدته ، حيث يقف إزاء ذكراها فى الباحة : " مسقط رأسه ، ومنتدى شبابه ، وملاعب صباه ، وقد أثار شجونه ، وجدد أحزانه ما رآه من تبدل الحال ، وتغير المقام بذلك المكان ، حيث حلت به المآسى ، وخيمت عليه الأحزان .. بعد أن ذهبت عنه أمه الحبيبة ، مشيرا إلى أنه يحاول جهده . إخفاء مشاعره الحزينة تلك ، وعدم المجاهرة أمام الأهل والأصحاب .. حيث يقول :

باحة الحب والصِّبا والشباب ∴ خبرينى ما سر هذا العذاب ؟!
ما لعينيك تذرفان دموعا ∴ كدموعى وتوقظان اكتئابى ؟!
أنا –والله – قد سئمت أنينى ∴ وعلى حسرتى طويت ثيابى
وتظاهرت بالتجلد حتى ∴ خلت أنى سلبت طبع الهضاب

(٢٣٦) ينظر : موسيقى الشعر بين الثبات والتطور – د/صابر عبد الدايم – صـ ٢٩.

وتجملـــت بابتســـامة ثغـــــرى ∴ فـــى لقـــائى بالأهـــل والأصحـــاب

فـــى حنايـــا الفـــؤاد خبـــأت حزنـــى ∴ وحبســـت الـــدموع عـــن أهـــدابى[٢٣٧]

فقد أسهم حرف الباء ـ خلال تلك الأبيات – بما يقوم عليه من صفات وخصائص موسيقية– فى إبراز التيار الشعوري والنفسي الذى يلف الشاعر ، ويسيطر عليه هنا .. حيث تنتابه مشاعر الحزن البالغ ، والألم الدفين ، والشوق الجارف إزاء والدته الذاهبة .. بجانب إتيان الشاعر بقافيته هنا موصولة بالمد فى كثير من أبيات تلك التجربة هنا وماتنبئ عنه ، وتدل عليه من امتداد الألم والأنين، واستطالة الأسى والحنين .. ولا يخفى ما يتوافر فى تلك الأبيات من حروف المد الكثيرة ، وما يحدثه كثرتها من إكساب إيقاع التجربة هنا هدوء وبطئا، والتى عادة ما تمنح الشاعر مساحة كافية للتنفيس عن آهاته ، وزفراته، حيث بدا فى صورة المتحسر الحزين الحائر ، الذى تاخذه الدهشة ، ويستولى عليه الذهول .. يبدو ذلك فى سؤاله ربع الباحة ـ ذلك المكان الذى ضمه وأمه الحبيبة الراحلة :

باحـــة الحـــب والصـــبا والشـــباب ∴ خبرينـــى ماســـر هـــذا العـــذاب؟!

مالعينيـــك تذرفـــان دمـــــوعا ∴ كـــــدموعى وتوقظـــان اكتئـــابى؟!

أنـــا– والله – قـــد ســـئمت أنينـــى ∴ وعلـــى حســـرتى طويـــت ثيـــابى

ثم تتوالى قوافى الشاعر بعد ذلك .. والناظر فى قوافى العشماوي – خلال تجاربه فى المرأة – يجدها تتنوع بين الإطلاق والتقييد تبعا فى هذا وذاك لحالة الشاعر النفسية والشعورية .

وإن كانت قوافيه المطلقة هي الأكثر ذيوعا ، والأذيع استعمالا فى تجاربه فى المرأة .. وهو ـ أي الشاعر ـ يأتى بالقافية مقيدة لتتناسب مع نفسه الحيرى المعذبة ، وقلبه المثقل المعنى ، وذاته المقيدة التى يتنازعها القلق والصراع ، وتتملكها الحيرة والاضطراب فى بعض تجاربه فى المرأة .. يبدو هذا متحققا فى قوله من قصيدته : "يا ام وجدانى " يصور حاله ، وويجسد واقعه بعد فقد والدته :

قـــد كنـــت أســـرع نحـــو منزلنـــا لكـــى ∴ ألقـــاك أشـــبع منـــك سمعـــى والبصـــر

---

(٢٣٧) ديوان : هي أمى ــ صـــ ٤٦ .

واليـــوم أبطـــئ فـــى مســـيرى واهنـــا ∴ وجميـــع مـــا أخفيـــت مـــن حزنـــى ظهـــر
كـــل الضـــمائر فـــى حـــديث مشـــاعرى ∴ ظهـــرت بهـــا الأحـــزان والفـــرح اســـتتر
جمـــدت خُطـــاي فلســـت أنقـــل خطـــوة ∴ إلا كمـــا نقـــل الجريـــح خطـــا الحـــذر
ورفعـــت طـــرفي للســـماء فراعنـــى ∴ منهـــا خفـــوت الـــنجم فيهـــا والقمـــر ! ![٢٣٨]

.. وهكذا يؤثر الشاعر فى استعمال قافيته هنا . حرفا يلائم . فى خصائصه الصوتية والموسيقية حالته الكئيبة ، ويجسد مشاعره الحزينة فى هذه التجربة " : فالراء صوت مجهور من شأنه أن يبرز التيار الشعوري والنفسي المسيطر على الشاعر هنا .. بجانب مايحدثه ترداد هذا الحرف :" حرف الراء " من طرف اللسان من الإشارة إلى ألم فقد والدته الحبيبة ، ومرارة ثكلها .. ثم هو . أي الشاعر . يأتى بالقافية هنا مقيدة ، إمعانا منه فى تجسيد مايتملكه من مشاعر الحيرة والعذاب ، والتقيد والاضطراب .. تلك المشاعر جعلته يبطئ الخطى كما يمشى الجريح الحَذِر ، ويتئد فى السير إلى حيث المنزل الذى كان يضمه وأمه .. بعد أن كان يحث الخطى مهرولا إليه فى لهفة وشوق وقت أن كانت تقيم فيه أمه :

جمـــدت خُطـــاي فلســـت أنقـــل خطـــوة ∴ إلا كمـــا نقـــل الجـــريح خطـــا الحـــذر

ثانياً : ما يتوفر فى تجارب الشاعر فى المرأة من موسيقى داخلية تنبع من إيحاء ودقة الكلمات ، وحسن اختيارها ، وتناسق مخارجها .. ومظاهر تلك الموسيقى ، ومكوناتها – خلال شعر العشماوي فى المرأة .

تعد الموسيقى الداخلية أحد جناحي البناء الموسيقي للقصيدة العربية الذى يطير به مع جناحه الآخر المتمثل فى الموسيقى الخارجية .. حيث يمثل ذانك اللونان معا جسم موسيقى الشعر العربي ، وازدواجية بنائه وتكوينه ..

وهي . أي الموسيقى الداخلية ، تتحقق فى القصيدة من خلال حسن اختيار الشاعر لكلماته ، وتوفيقه فى انتقاء مفرداته . التى من شأنها أن تجسد انفعالاته ، وتصور احساساته .. كما تتحقق فيما بين كلمات القصيدة ومفرداتها وتراكيبها من حسن تقسيم ، وروعة تنغيم . من خلال مايتوفر فيها من مدات وتنوين ، وما يزينه صاحبها ، ويحليه بها من ألوان البديع ، وحلاه من .. جناس وطباق وتصريع

(٢٣٨) ديوان : هي أمى ــ صـــ ٣١ .

وتكرار .. وغير ذلك من المظاهر التى من شأنها أن تكسب الكلام نغما موسيقيا أخاذا ، تستريح لوقعه النفوس ، وتستطيب لإيقاعه الآذان .

والناظر فى تجارب الشاعر فى المرأة يجده عُني فى الكثير الغالب منها بإيقاعه الداخلي .. فجاء حلوا عذبا ، وأتى رائقا آسرا ؛ ويرجع هذا إلى انتقائه من الألفاظ والمفردات ما يكون عادة موائما لحالته ، ومناسبا لشعوره ، واختياره من التراكيب والصور ما ينسجم مع مايعبر عنه من تجارب ، ويشى بما هو بصدده من مضامين ؛ كما يرجع إلى استعمال الشاعر بعضا من المحسنات البديعية من طباق وجناس وتكرار وتصريع .. وإتيانه بها ـ فى أكثر المواضع ـ فى غير ما قصد ولا تصيد ، ولا إقحام ولا تكلف .. حيث تطلبها المعنى ، واقتضاها المضمون .. وقد وقفت الدراسة على الكثير من تلك الأساليب كل فى موضعه منها .. ، ولذا فإننى سأتحدث فى السطور المقبلة عن اللون الأخير من تلك الأساليب وهو التصريع .. ولكن قبل معالجتى لتلك الظاهرة ـ أعنى التصريع ـ السائدة فى قوافى الشاعر ، وإيضاح كونها مكونا أساسا فى بناء الموسيقى الداخلية خلال تجارب الشاعر فى المرأة .. يطيب لى قبل الحديث عن تلك الظاهرة – خلال قصائد العشماوي فى المرأة أن أورد أنموذجا من شعره ـ يبدو فيه ذيوع حروف المد ، وشيوعها .. وما يحدثه ذلك من موسيقى داخلية رائقة من شأنها أن تعبر عن الحالة النفسية والشعورية المصاحبة للشاعر .. بجانب ما يشيع فيها من حروف منونة ، وما يضفيه ذلك التنوين على التجربة هنا من مزيد تنغيم يسهم فى زيادة عنصر الإيقاع ، ويعمل على إثراء النغم فى التجربة .. يتحقق ذلك بجلاء فى قول الشاعر يجسد ما ينتابه من مشاعر الدهشة والحيرة ، والحسرة والإحباط ، والاضطراب والضياع والفراغ – إزاء فقد والدته– تلك التى كانت كل شئ إيجابي بالنسبة له فى هذه الحياة :

من ذا سأسمعه القصائد بعدها ∴ ومن الذى سينيلنى إعجابها؟!

من ذا أبشر حين أفرح،كى أرى ∴ فى وجهها فرحا يطير صوابها؟!

من لى بهاتفها الحبيب يجيبنى ∴ أهلا :" حبيبى " يا فديت جوابها؟!!

أماه صيرنى فراقك حائراً ∴ فى بيد آلام تسل سرابها

مازلت أشعر بالضياع كسائر ∴ فى مهمه تسفى الرياح ترابها

أواه مـــن هـــذا الفـــراغ وجـــــــدته ∴ فـــى نفســـى الحـــرى يزيـــد عـــذابها ! ![٢٣٩]

... وهكذا تفيض هذه الأبيات بالنغم الداخلي الرائق العذب .. حيث تتحقق فيها الموسيقى الداخلية ، سواء فى حسن انتقاء الشاعر لألفاظه وتراكيبه ، ومواءمة هذه الألفاظ والتراكيب للمعانى والمضامين المقصودة ، وانسجامها معها .. وتتحقق الموسيقى الداخلية ـ خلال تلك التجربة أيضا من خلال حروف المد الشائعة والمتحققة فى كل بيت من أبياتها تقريبا .. وأثرها فى تجسيد المشاعر الأليمة التى تسيطر على الشاعر خلال تجربته القوية المؤثرة هنا ، من مثل كلمات : " القصائد ـ سينيلنى ـ إعجابها ـ ذا ـ صوابها ـ هاتفها ـ الحبيب ـ حبيبى ـ يا فديت جوابها !ـ أماه ـ فراقك ـ حائراً ـ آلام ـ سرابها ـ الضياع ـ سائر ـ الرياح ـ ترابها ـ آواه ـ الفراغ ـ تزيد عذابها .. ولا شك فى أن هذه الكثرة الهائلة من أصوات المد المتحققة – خلال تلك الكلمات المذكورة – لاشك فى أنها توافق وتوائم التيار الشعوري والنفسي الذى يسيطر على الشاعر ـ خلال تجربته الشجية تلك .. حيث تتنازعه مشاعر الألم والحزن والتيه واليأس والإحباط والقلق والضياع والوحشة والاضطراب ، فهي ـ بجانب ما تُحدثه من إيقاع داخلى آسر تتيح للشاعر أن ينفس عن آهاته وزفراته ، ويخفف من أحزانه وآلامه .. كما يتحقق ذلك اللون من الإيقاع الداخلي من خلال تلك الكلمات التى تنتهى بالتنوين من مثل : فرحاً ـ أهلاً ـ حائراً ـ آلام ـ كسائر ـ مهمه ـ أواه .. حيث تضفى تلك الكلمات المختومة بالتنوين على التجربة هنا إيقاعا داخليا آسرا ، وتكسبها مزيدا من النغم والإيقاع الذى يأسر النفوس ، ويأخذ بالألباب .. حيث نرى صاحبها يبدو حائرا مضطربا يعانى الوحشة ، ويقاسى الاغتراب ، ويعالج القلق من خلال تساؤلاته التى يلح فى استعمالها :

من ذا سأسمعه القصائد بعدها؟!
ومن ذا سينيلنى إعجابها ؟!
من ذا أبشر حين أفرح ؟
من لى بهاتفها الحبيب يجيبنى

ولا شك فى أن هذا كله أثر من أثار قوة وصدق أحاسيس الشاعر ، وشدة انفعاله بالتجربة هنا .. حيث دفعته عاطفته الصادقة القوية لأن يعبر بتلك الكلمات

---

(٢٣٩) ديوان : هي أمى ــ صـــ ٣٦ ، ٣٧ .

الدالة ، والتراكيب البليغة المعبرة .. حيث تؤكد تلك التساؤلات ما يسيطر علي نفس الشاعر وكيانه من قلق وحيرة ، واضطراب وحسرة ، وضياع وإحباط .. وفى ذات الوقت هي تؤكد عظم فضل أمه عليه ، وبالغ أثرها ، ومحورية دورها فى بناء ذاته وكيانه .

أما عن ظاهرة التصريع فهي كثيرة وذائعة فى تجارب الشاعر فى المرأة .. حيث يبدو حرص الشاعر على تلك الظاهرة الصوتية ، والنغمة الموسيقية الأخاذة فى الكثير الهائل من تجاربه ؛ تزينياً لمطالعة ، وإثراء لتجاربه ، وإضفاء مزيد من الإيقاع والنغم المؤثر فى النفس عليها.. فمما هو معروف أن التصريع: " نوع آخر من أنواع المناسبة بين مقاطع الكلام يجعل له وقعا موسيقيا طيبا فى النفس ، ولذلك ولع به الشعراء ، وأغرموا بتزيين مطالع أشعارهم بهذه النغمة الموسيقية الآخاذة "(٢٤٠) .

وهو ـ أي التصريع : " ليس إلا ضربا من الموازنة ، والتعادل بين العروض والضرب ، يتولد منها جرس موسيقي رخيم ، ولذا كان من أمس الحلى البديعية بالشعر ، وأقربها إليه نسبا ، وأوثقها به صلة "(٢٤١) .

ويراد بالتصريع " أن يستوى آخر جزء من صدر البيت وآخر جزء فى عجزه وزنا ورويا وإعرابا "(٢٤٢) .

ومن بين تلك المواضع التى حرص فيها الشاعر على الالتزام بتلك الظاهرة الموسيقية الآخاذة ذات النغم العذب ، والإيقاع الآسر ، مزينا بها مطالعه ، ومثريا بها إيقاعه .. قوله فى مطلع قصيدته : "قراءة فى كتاب الحنين" ، وقد وقف إزاء ذكرى أمه الحبيبة فى منطقة الباحة ، مسقط رأسه ، ومُنتدى شبابه وصباه :

باحـــة الحـــب والصـــبا والشـــباب ∴ خبرينـــى ماســـر هـــذا العـــذاب ؟!(٢٤٣)

وقوله فى مطلع قصيدته : "عام مضى" :

عـــام مضـــى يـــا أمنـــا الغـــاليه ∴ وأنـــت عـــن منزلـــنا نـــائيه (٢٤٤)

---

(٢٤٠) دراسات لغوية صوتية بلاغية: د/ عبد الجواد محمد طبق ــ صـــ ١٥٣ ــ الطبعـــة الثانيـــة- ١٤١٧هـــ ١٩٩٧ م .

(٢٤١) الشعراء وإنشاد الشعر: أ /على الجندى ــ صـــ ٣٤ .

(٢٤٢) أسس النقد الأدبى عند العرب : د/ أحمد أحمد بدوى – صـــ ٣٧ بتصرف- ط نهضـــة مصـــر للطباعة والنشر ــ الفجالة ــ القاهرة ١٩٧٩م .

(٢٤٣) ديوان : هي أمى ــ صـــ٢١ .

(٢٤٤) المصدر السابق ــ صـــ ٢٥ .

وقوله فى مطلع قصيدته : "يا أم وجدانى" :

أمـــاه جئـــت إلى الريـــاض مـــن الســـفر ∴ لم تســـمعى-أمـــاه-عـــن هـــذا الخـــبر[٢٤٥]

وقوله فى مطلع قصيدته : "أواه من هذا الفراغ" :

ترضـــى النفـــوس وتســـتطيب عـــذابها ∴ لمـــا تـــزف إلى الإلـــه ركابـــها[٢٤٦]

وقولـه فـى مطلـع قصيدته: "رحلـة العمـر": تلـك التـى أبـدعها فـى زوجـه، ورفيقة عمره:

مـــن معانيـــك أســـتقى ألحـــانى ∴ فـــاهتفى يـــا مذيبـــة الأحـــزان[٢٤٧]

وقوله فى مطلع قصيدته التى أبدعها فى المرأة المحبوبة : "إلى حواء":

بمـــا فـــى فـــؤادى يبـــوح الفـــم ∴ ويجهـــل غـــيرى الـــذى أعلـــم[٢٤٨]

وقوله فى مستهل قصيدته :" وفاء " ، وقد أبدعها فى أمه :

تغنـــت الفرحـــة فـــى صـــدره ∴ وانســـكب التغريـــد فـــى شـــعره[٢٤٩]

وقولـه فـى مطلـع قصـيدته :" ليتنـى أدرى " تلـك التـى أبـدعها فـى المـرأة "المحبوبة"

ســـلكت إلى عينيـــك أكثـــر مـــن درب ∴ ولم يـــزل الترحـــال يـــا أملـــى دأبـــى[٢٥٠]

وقولـه فـى مطلـع قصيدته : " سفر إلـى العنـاء " إجدى قصائده فـى المرأة المحبوبة :

مـــن حنينـــى أذوق طعـــم شقـــائى ∴ وبـــلا أدمـــع يكـــون بكـــائى[٢٥١]

وقوله فى مستهل قصيدته :"كأس الأسى"، يستدر عطف محبوبته ، ويسترق قلبها نحوه:

---

(٢٤٥) السابق ذاته ــ صـــ ٣٠ .
(٢٤٦) السابق ذاته – صـــ ٣٤ .
(٢٤٧) ديوان : إلى حواء – صـــ ٢٢ .
(٢٤٨) المصدر السابق – صـــ ٣٦ .
(٢٤٩) ديوان : إلى حواء – صـــ ٥٣ .
(٢٥٠) السابق – صـــ ٤٣ .
(٢٥١) السابق ذاته – صـــ ٧٤ .

ليـــــلى يطـــــول وحســـــرتى تقســـــو ∴ فمتـــــى بربـــــك تشـــــرق الشـــــمس؟![٢٥٢]

..وغير ذلك من المطالع الكثيرة التى حرص الشاعر على تزيينها بتلك الظاهرة الموسيقية الأخاذة : " التصريع " ، مما كان له الأثر الكبير ، والدور البارز فى تشكيل موسيقاه الداخليه ، وإثراء إيقاعه الداخلي ، حيث غدت تلك الظاهرة . أعنى التصريع . أحد المصادر الأكيدة التى أتكأ عليها الشاعر فى تكوين موسيقاه الداخلية – خلال تجاربه فى المرأة .

ثالثاً : ما يتحقق من مظاهر التجديد والتنويع فى إيقاع وموسيقى الشاعر . خلال تجاربه فى المرأة .

وأوكد هنا ماسبق أن ذكرته وأشرت إليه فى بداية هذا المبحث من أن السمة الغالبة على بناء الشاعر الموسيقي . خلال تجاربه فى المرأة . هي سمة المحافظة على شكل القصيدة العربية التقليدى الموروث الملتزم بالوزن والقافية الموحدين .. حيث نراه فى هذا الجانب يسير فى فلك التقليد للقدماء ، والالتزام بنهجهم فى بناء قصائدهم .. وإن كان هذا لا ينفى خروجه عن هذا التقليد ، سواء فى أوزانه أو قوافيه فى بعض قصائده فى المرأة ، إلا ان تلك القصائد كانت من الندرة بمكان ، بحيث لاتؤثر كثيرا على ماتتسم به تجارب الشاعر فى المرأة .

(٢٥٢) السابق ذاته – صـ ٨٤ .

فى جُلها من سمة المحافظة والتقليد والسير فى فلك الثابت والموروث ، ولا ينفى عن صاحبها كونه محبا للتراث العربي ، محافظا على قيمه وثوابته .

فها هو ذا شاعرنا يسير نحو التجديد فى موسيقاه بخطى سريعة ، ويقفز نحوه بخطوات وثابة فيبدع قصيدة قوية مؤثرة يسكب فيها دموعه الحارة .. ، ويذرف عبراته المتدفقة إزاء فراق والدته ، مبديا تفجعه ، واسعظامه المصيبة إزاء فقدها .. ها هو ذا شاعرنا يبث شجونه – تلك سائراً على نظام الشعر الحُر"– ذلك الذى لم يلتزم بالإطار الموسيقي والعروضي لشعر الشطرين، وإنما أصبحت التفعيلة هي النظام الموسيقي له ، ولذلك أؤثر أن نطلق عليه شعر التفعيلة ، أو شعر السطر الواحد ، وحتى لو اتبع الشعر الحر نظام الشطر الواحد فإن الأشطر تكون غير متساوية ، وتسمى السطر الشعري "(٢٥٣) .

حيث نلتقى ـ فى إطار ذلك اللون من الشعر الحر " بقول الشاعر من قصيدته " يادفق القلم الباكى .. يسكب من خلالها دموعه الحارة المفعمة ، ويذرف عبراته الفائضة المتدفقة إزاء أمه الراحلة ، مبديا تفجعه واستعظامه المصيبة فى فقدها.. :

يـــــا دفـــــق القلـــــم البـــــاكى
ســـــطر بمـــــداد دمـــــوعى
حســـــرة قلبـــــى الشـــــاكى
أغـــــرق صـــــفحاتى بـــــدموعك
لا تخـــــــــش جفافـــــــــاً
فـــــدموعى أنهـــــار تجـــــرى
أنهـــــار ســـــاخنة تجـــــرى
أنهـــــار تتـــــدفق مـــــن قلبـــــى
تعـــــــــبر صـــــــــدرى
تكشـــــــــف أمـــــــــرى
.....
رحلـــــت يـــــا قلمـــــي أُمِّـــــى
يرحمهـــــــــا الله تعـــــــــالى !

(٢٥٣) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور: د/ صابر عبد الدايم يونس ــ صـ ٢١١ .

ما عادت تمسح بأنامل كفي أمومتها همِّي
ما عادت تغسل بالنظرات الحانية جراحى
تُذهب غمِّى
ما عادت تمنحنى فرصة تقبيل جبين العطف
صباح مساء
ما عادت تمنحنى فرصة تقبيل يديها
تقبيل الشرفاء[٢٥٤]

فهذه قصيدة تفعيلية حرة بناها الشاعر على نسق تفعيلة بحر المتدارك "فاعلن" بكل صورها المقبولة .. ، وإن كان يؤخذ عليه – خلال تلك الأبيات– تكراره لكلمة القافية فى قوله :

فدموعى أنهار تجرى ، أنهار ساخنة تجرى ..وأيضا تكراره للقافية فى قوله من القصيدة ذاتها :

رحلت ياقلمى أمى
هل تعرف معنى رحلت أمى ؟!
هل تعلم أنى أنزلت حبيبة قلبى فى الحفرة بيدى ؟!
ووضعت وسادة طين لحبيبة قلبى
وقوله : فأنا واريت هنالك تحت الأرض
حبيبة قلبى
وأنا وسدت الطين أنيسة قلبى ..

.. فتكراره للقافية هنا بجانب تكراره للكلمات الواردة فى حشو الأبيات من مثل كلمة : أنهار – تلك التى كررها ثلاث مرات فى ثلاثة أسطر متتالية لاشك فى أنه ينال من تجربة الشاعر هنا ، ويقدح من مقدرته الفنية خلالها .. حيث يدل على ارتجاليتها ، وعدم توافر واكتمال أدواتها ، ويدل أيضا على ضحالة ثقافته ، وقلة محصوله من اللغة ومفرادتها هنا .

.. كما يؤخذ على الشاعر – خلال قصيدته تلك–وقوعه فى شيء غير مقبول عروضيا .. حيث يقول من القصيدة ذاتها :

هل تعلم أنى أنزلت حبيبة قلبى فى الحفرة بيدى ؟!

(٢٥٤) ديوان : هي أمى صـ ١٢ ، ١٤ .

فقد توالت فى هذا السطرالشعري خمسة متحركات (رة بيدى) .. وهو ثقيل فى السمع والنطق والإيقاع .. حيث اعتمد على جعل التفعيلة (فِعِلُ) فقط ، وحول التفعيلة التالية إلى : (فعو) ، وهذا غير مقبول عروضيا ، وهو وارد فى أنماذج الشعر الحُر الرديئة .

ويلحظ أنَّ تفعيلات تلك القصيدة الحرة تطول وتقصر تبعا لحالة الشاعر الوجدانية ، ودفقاته الشعورية والنفسية " .

وبجانب تلك القصائد الكثيرة الهائلة التى التزم فيها الشاعر بالقافية الموحدة من أول بيت إلى أخر بيت فيها . خلال شعره فى المرأة نلتقى بعدد قليل جدا من القصائد المتنوعة القوافى على نحو مايبدو متحققا فى قوله من قصيدته :"لحن وجرح" يصور ماينتابه من مشاعر الحب واللهفة والشوق والحنين إزاء زوجته البعيدة:

حنين بقلبى وشوق دفين ∴ وقد يقتل الراحلين الحنين
ألا يابعيدا ، ويسكن قلبى ∴ ومن أجله لوعتى والفتون
ومن أجله غردت ذكرياتى ∴ ومن أجله هد قلبى الأنين
رحلتُ وبى لهفة للتلاقى ∴ يقصر عن وصفها ما أقول
رحلتُ وفى شفتي حديث ∴ جريح وفى عزم قلبى ذبول
رحلتُ وماكنتُ أعلم أنى ∴ سيقصر عزمى،وليلى يطول
سلام على من إليهم أتوق ∴ ومن لست للبعد عنهم أطيق
ومن أسهر الليل شوقا إليهم ∴ فيسخر من مقلتيَّ الشروق !
وآخر ذكراى حين أنام ∴ وأول ذكراى حين أفيق[٢٥٥]

وهكذا ينوع الشاعر فى قافيته هنا بعد كل ثلاثة أبيات .. حيث ينتقل من قافية النون . كما نرى . إلى قافية اللام ، ثم قافية القاف .

(٢٥٥) ديوان إلى حواء صـ ١٢٤ ، ١٢٥.

وها هو ذا شاعرنا ينتقل من قافية إلى أخرى بعد كل ثلاثة أبيات أيضا ، حيث يقول من قصيدته : " أنت يا أماه " :

رب ليـــــل ضمنـــــى قـــــد ∴ أثقـــــل الوجـــــد خطـــــاه

كنـــت فيـــه الفجـــر يمحـــو ∴ ظلمـــــة الليـــــل ســـــناه

أي نبـــــع أنـــــت عـــــذب ∴ ترتـــــوى منـــــه الحيـــــاه

كلمـــــا اســـــتأسد ليلـــــى ∴ غـــــرد الحـــــب الجميـــــل

وإذا مـــــا طافـــــت الذكـــــرى ∴ هفـــــا القلـــــب العليـــــل

وأنـــــا أســـــأل أيـــــا ∴ مـــــى متـــــى يشـــــفى الغليـــــل؟!

أنـــــا معنـــــى مـــــن معانيـــــ ∴ ك ومـــــــــأرقى المعـــــــــانى!!

أنـــا ســـطر فـــى ســـجل الـــ ∴ مجـــــــد قـــد صُـــغتِ كيانـــى[٢٥٦]

حيث ينتقل الشاعر – عبر قصيدته هذه – من قافية " الهاء " . كما نرى . إلى قافية اللام ، ومنها إلى قافية " النون " بعد كل ثلاثة أبيات .. وكأنى به يجعل من كل مجموعة من الأبيات المتحدة القوافى فى هذه التجربة والتى قبلها مقطوعة تستقل بمعناها ، حيث تمثل كل واحدة منها فكرة تنضم إلى بقية الأبيات التى بعدها إلى أن يكتمل المعنى ، ويستوفى المضمون .

وفى إطار تغيير الشاعر لقوافيه ، وتجديده فى شكلها التقليدي نراه يقسم قصيدته " أختى " " رباعيات ، "ينتقل فى كل رباعية منها من قافيةإلى أخرى .. حيث يقول :

أختـــــى .. وفـــــى أخـــــلاقكن ∴ لكـــــن يـــــاأختى ، كرامـــــه

أختـــــى وللفتيـــــات فـــــى ∴ درب الهـــــدى أغلـــــى ســـــلامه

أختى..وأنـــــت فتـــــاة عصـــــ ∴ ر تســـــتذل بـــــه الشـــــهامه

كـــــونى أجـــــل مـــــن الحيـــــا ∴ ة إذا جـــــرت فيهـــــا الســـــآمه

---

(٢٥٦) ديوان : إلى حواء – صـ ١٢٢ .

أختى..وفـــى أحشـــاء دنـــ ∴ يانـــا وبـــئس بهـــا-مجـــون !!

نعـــم الفتـــاة المســـتقيمة ∴ .. لا تحـــيط بهـــا الظنـــون

تســـمو بصـــدق عفافـــها ∴ ولرمـــز عزتهـــا تصـــون

تلـــك التـــى مهمـــا تغيـــر ∴ .. دهرهـــا لا تســـتكين

أختـــى وكـــم حمقـــاء أغـــ ∴ رتهـــا الملـــذات المهينـــه

فغـــدت ـ وكانـــت حـــرة ∴ لقيـــود لـــذتها رهينـــه

تهفـــو إلى حريـــة ∴ فتصـــير تائهـــة ســـجينه

وتســـوقها أوهـــامها ∴ فهـــي المعذبـــة الحزينـــه

حريـــة الإنســـان ألا ∴ يســـتبد بـــه هـــواه

يرقـــى بصـــدق يقينـــه ∴ وتســـير ثابتـــة خطـــاه

أختـــاه لـــوذى بالـــذى ∴ ماخـــاب يومـــا مـــن دعـــاه

وتمســـكى بهـــداه فالـــ ∴ إشـــراق يـــا أختـــى هـــداه[٢٥٧]

وهكذا ينوع الشاعر فى قوافيه هنا حيث ينتقل ـ خلال تلك القصيدة ـ من قافية الميم إلى الهاء ، مقسما قصيدته تلك رباعيات ، تتحد كل رباعية منها فى القافية ، وأيضا تكاد تستقل كل مقطوعة منها بمضمون ، وتدل على فكرة تامة .. حيث يشرع الشاعر ـ مع بداية كل قافية جديدة فى الحديث عن فكرة جديدة ، ومضمون آخر .

ولا شك فى أن تنويع الشاعر فى قوافيه ، ومجيئه بها هنا متعددة مما يضاعف من النغم ، ويثرى الإيقاع ، ويدعو إلى طرد الملل والرتابة عن النفس ؛ بما يحدثه ذلك التنويع فيها من نشاط وتجديد ، ثم أن فى مجئ الشاعر بقوافيه متنوعة ما يدل على موهبته الكاملة ، ومقدرته الفنية العالية ، وتملكه زمام اللغة، وتمرسه بأساليبها ، حيث لا تخفى تلك لانتقالة بين القوافى ، وما تستلزمه فى كل

---

(٢٥٧) ديوان : إلى حواء ــ صـ ٩١ ،٩٢، ٩٣ .

مرة من معان ، وكلمات جديدة فتنوع القوافى : " مما يزيد فى موسيقى الشعر ، ويكسبه جمالا فوق جمال "[٢٥٨] .

وهو أي الشاعر ـ فى تغييره ، وتنويعه فى قوافيه هنا غير ثائر ، ولا متمرد على القافية الموحدة : " فقد التزمت كل موجات التجديد بسحر إيقاع القافية الأخاذ ، وكثير من ظواهر التجديد كان بدافع الوصول إلى أعلى درجات التأثير الإيقاعي الذى يحدثه تنوع القوافى .. وتوزيعها بصورة تشكيلية تقترب من طريقة المُوسيقيين فى توزيع ألحانهم .. والموشحات ، والمسمطات خير مثل على تحقق هذه الظاهرة [٢٥٩] .

فالشاعر فى نظمه على هذه الأشكال السابقة أعنى : " شعر المقطوعات " كان متأثراً بالمدارس الشعرية الرومانسية ممثلة فى مدارس المهجر والديوان وأبوللو.. فلهذه المدارس تجديد على نظام المقطوعات ، وهو فى هذا جرى على سنن الكثير من الشعراء العصريين .. حيث أكثروا من نظم القصائد المتنوعة القوافى ، فلا يمكننا إذن القول بأن الشاعر كان مجدداً فى أشكال قصائده تلك ، ولا مبتكراً لها :" إذ الواقع ينطق بأن القوافي المنوعة قد عرفها الأندلسيون فى موشحاتهم ، فهي ليست جديدة تماماً كل الجدة على الشعر العربي ، ولكن الجديد هو ذلك الشعر المرسل الذى لا يتقيد بنظام معين فى ترتيب قوافى القصيدة[٢٦٠].

ومن مظاهر التنويع فى الإطار الموسيقي لدى الشاعر – خلال تجاربه فى المرأة – وجود ظاهرة التدوير فى شعره :

ومفهومه: "أن يكون فى البيت كلمة مشتركة بين شطريه"[٢٦١] وهذا التدوير له تأثيره البالغ فى النفس " إذ يدب فى نفس المُتلقِّى نزاع بين رغبتين ، رغبة فى قسمة البيت إلى قسمين تبعاً لما يقتضيه التشطير العروضي ، ورغبة فى وصل جزئيه ، أو وصل الكلمة التى هي مركز التدوير [٢٦٢].

---

(٢٥٨) موسيقى الشعر: د/ ابراهيم انيس صـــ ٣٠٠ .
(٢٥٩) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور: د/ صابر عبد الدايم يونس صـــ ١٥١ – بتصرف .
(٢٦٠) محمود حسن إسماعيل ، بين الأصالة والمعاصرة – د/ صابر عبد الدايم – صـــ ٨٩
(٢٦١) المعجم المفصل فى علم العروض والقافية وفنون الشعر : د/ اميل بديع ، صـــ١٧٣.
(٢٦٢) النقد الأدبي وقضايا الشكل الموسيقي فى الشعر الجديد – صـــ ٦٣ ، ٦٤ – د/على يونس – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٥ م .

وقد تحقق التدوير فى بعض قصائد الشاعر – خلال شعره فى المرأة ، لا سيما فى تلك القصائد التى تُوغل فى الوجدانية ، وتمعن فى الذاتية ، حيث تكون فيها عواطف الشاعر مفعمة ، وأحاسيسه حارة ، ومشاعره متدفقة تدفعه دفعاً إلى أن يجتاز الشطر الأول فى البيت ، ولا يتوقف إلا فى نهاية الشطر الثانى ، حاملاً فى ذلك المتلقين على أن يشاركوه مشاعره القوية ، وأحاسيسه المتدفقة .. ومن ذلك قوله من قصيدته : " ينابيع الحنان " – تلك التى يبدو من عنوانها الدال أن الشاعر بصدد تصوير مشاعر فائضة ، وتجسيد أحاسيس متدفقة من الحُب والود والوفاء والعرفان ، والتقدير والإعزاز إزاء أمه الغالية :

لا تشـــــردى يـــــا قافـــــيه ∴ وترفقـــــــــى بفـــــــــؤاديه

لا تشـــــردى ودعـــــى الخـــــيا ∴ ل ورددى ألحـــــــــــــانيه

لا تشـــــردى علِّـــــى أعبـــــــ ∴ بـــــر عـــــن مشـــــاعر خافيـــــه

وترجلـــــى عـــــن صـــــهوة الـــــ ∴ أحـــــــلام يـــــــا أشـــــواقيه

إنـــــى اســـــتقيت مـــــن الأمـــــو ∴ مـــــة كـــــل ذكـــــرى ســـــاميه

ورشـــــفت مـــــن كـــــأس الوفـــــا ∴ ء فمـــــن تكـــــون الســـــاقيه ؟! (٢٦٣)

فالأحاسيس والمشاعر هنا متدفقة ، يتدفق سيلها على نفس وقلب الشاعر.. ، وهى من غزارتها وتدفقها وتتابعها تدفعه وتأخذ به إلى أن يجتاز الشطر الأول فى البيت ، ولا يتوقف إلا فى نهاية الشطر الثاني – كما نرى – مشركاً معه المتلقين فى تلك المشاعر القوية المتدفقة الكائنة فى أعماقه إزاء والدته الحبيبة.

من المآخذ على موسيقى الشاعر – خلال شعره فى المرأة ـ :

لم تسلم بعض قوافى الشاعر من الوقوع فى بعض العيوب التى تواضع عليها العروضيون فى كتبهم .

ومن هذه العيوب التى وقع فيها الشاعر عيب " الإيطاء " – وهو :" إعادة اللفظة ذاتها بلفظها ومعناها ، وإنما يجوز إعادتها بمعنى مختلف نحو : " إنسان

(٢٦٣) ديوان : إلى حواء – صـ ٢٥ ، ٢٦ .

للرجل ، ولناظر العين ، وأجاز علماء العروض إعادة اللفظة ذاتها بمعناها بعد سبعة أبيات (٢٦٤).

وهو – أي الإيطاء :" إعادة لفظ الروي بعينه فى بيتين فى القصيدة ، نحو فضل وفضل ، وعلم وعلم ، وما أشبه ذلك – وهو عند العرب عيبٌ لا يشكون فيه ، ولا يختلفون ... واستقبحت العرب الإبطاء ؛ لأنه دال على عي الشاعر .. وقلة مادته ، حتى يضطر إلى إعادة القافية بلفظها ومعناها (٢٦٥).

وقد وقع الشاعر فى هذا العيب فى قوله من قصيدته : " ومضة " – إحدى قصائده التى ابدعها فى المرأة المحبوبة :

فجرك الضاحك ، ما أظلمه ∴ عندما تهرع أحلامى إليه !

ومضة ألمحه ، لكنه ∴ كسراب ضل من يسعى إليه(٢٦٦)

فقد أعاد الشاعر لفظ الروي: "إليه" هنا بعينه – كما نرى – وكرره " بلفظه ومعناه " دون سبعة أبيات . وهذا ينال من مقدرة الشاعر الفنية ، حيث يدل على قلة محصوله اللغوي هنا ، وأستطيع بحول سبحانه أن أقرر خلو قصائد الشاعر – من عيوب القافية – عدا ما ورد ذكره هنا تقريباً .

---

(٢٦٤) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور: د/ صابر عبد الدايم يونس صـ١٨٥ .

(٢٦٥) كتاب القوافى لأبي الحسن علي بن عثمان الإربلي ٦٠٢ – ٦٧٠هـ – دارسة وتحقيق د/ عبدالمحسن فراج القحطاني – صـ ١٨٢ – الناشر – الشركة العربية للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

(٢٦٦) ديوان : إلى حواء – صـ ٤٧ .

((خاتمة الدراسة))

الحمد لله ذى الفضل والمنّة، والطول والنعمة ، والصلاة والسلام على كاشف الغُمّة ، ومُخرج الناس بإذن ربّهم من الظلمة ، سيدنا محمدٍ سيِّد الأُمة – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أعلام الهُدى ، ونجوم العتمة .

وبعد

فقد آن لليراع – بعد تلك الرِّحلة الماتعة ، والجولة الشائقة ، والسياحة الآنسة فى آفاق عالم المرأة فى شعر العشماوي _ آن لليراع أن يحطَّ رحاله ، ويُفرغ مداده ؛ ليُسجل فى نهاية المطاف أبرز الملحوظات ، وأهم النتائج التى لحظتها ، وتوصَّلت إليها – خلال تلك الدراسة التى غاصت فى أعماق المرأة، واستكنهت حقيقتها ، وسبرت غورها ، وكشفت عن طبيعتها، وأبانت عن نظرة الشاعر إليها .. أما كانت ، أم محبوبة ، أم زوجة ، أم أختاً ، أم بنتاً ، أم امرأة مسلمة .. حيثما كانت على أرض الإسلام العامرة الممتدة .. وهي كما يلى :

أولاً: أقول إن أول ما يلفت نظر الدارس، ويثير انتباه القارئ لهذه الدراسة – تلك الصورة الفُضلى التى بدا عليها الشاعر، والأنموذج الأمثل ، النادر المثال ، والقدوة الصالحة – التى ضربها الشاعر فى البِّر بالأم ، والإحسان إليها ، وإكبار معروفها ، والاعتراف بفضلها ، والتغني بأفضالها ، والوفاء لروحها، وإبداء التفجع والتوجع إزاء فقدها ، واستعظام المصيبة فى موتها .. فكم لهج العشماوي فى شعره بحب أمِّه ، ولطالما أمعن فى تجسيد عِظم فضلها عليه ، وبالغ أثرها فى بناء كيانه ، وتشكيل وجدانه ، وجعلها منه إنساناً ناجحاً ، وشاعراً مُبدعاً ، ولطالما بكاها بكاءً حاراً ، ورثاها رثاء مُراً، متفجعاً إزاء فقدها، مستعظماً المصيبة فى موتها .. مما يتأكد لمتلقى تلك المضامين الثرة الرقيقة المؤثرة – خلال تجارب الشاعر فى أمه – أنه يندر أن يكون هناك شاعر آخر يدانيه فى البر بالأم ، والإحسان إليها .. حيث غدا فى ذلك أنموذجاً يقتدى ، وقدوة تحتذى ، منطلقاً فى ذلك من منطلق الإسلام الراشد ، ومهتدياً بهديه الحكيم فى أمره بالإحسان إلى الأم ، والبر بها .

ثانياً: كان لحُب الشاعر الشديد لأمه ، وتقديره البالغ لشخصها ، وإكباره لذاتها ، واحترامه لكيانها – بعد أن نشأ نشأة ملؤها الطهر ، وقوامها الفضيلة – فى ظل أم متدينة رءوم ، ووالدة ملتزمة حنون .. كان لذلك أثره الكبير فى نظرته للمرأة بعد ذلك .. حيث قامت نظرته على حُبها وإعزازها ، واحترام كيانها ، وتقدير شخصها ، والحفاظ على إبائها وصونها ، وعدم المساس بكرامتها ، والنيل من عفتها ..

وهـــل يكـــون الحـــب ذا قيمـــة ∴ إذا خـــلا مـــن لـــذة الطهـــر ؟! [٢٦٧]

فهو قد سمى بالمرأة ، وارتقى ، وحلَّق بها حيث الفضاء ناشداً فيها رُوحها لا جسدها ، فلم يمتهنها ، ولم يبتذلها ؛ مُرتقياً بها فى سماء الفضيلة والحجاب ، ومُباعداً إياها عن التهتك والسفور ، والخلاعة والمجون .

ثالثاً : يبدو – من خلال تجارب الشاعر فى المرأة – أنه ينظر إليها نظرة الإسلام ذاتها ، حيث تُعنى فى فكره ، ووجدانه – السكن ، والمودة والرحمة – مثلما – هي ذاتها فى نظرة الإسلام – ولنستمع إلى الشاعر وهو يبوح إلى زوجته بتلك الكلمات الهامسة ، والمشاعر الرقيقة ، والأحاسيس الحانية . حيث يقول :

مـــن معانيـــك أستقـــى ألحـــانى ∴ فـــاهتفى يـــا مذيبـــة الأحـــزان
افرشـــى هـــذه الطريـــق وفـــاءاً ∴ فطريقـــى مفروشـــة بالحنـــان
ظللـــى عُشـــنا الجديـــد بـــروح الـــ ∴ حُـــب حتـــى نعـــيش فـــى اطمئنـــان
رحلـــة العمـــر يـــا رفيـــقة عمـــرى ∴ زادهـــا الحـــب والرضـــا والتفـــانى
أنـــت عـــزف الرضـــا علـــى وتـــر القلـــ ∴ ب ولحـــن الوفـــاء فـــى وجـــدانى
أنـــت معنـــى مـــن الطهـــارة يســـمو ∴ بفـــؤادى عـــن مغريـــات الزمـــان
وعلـــى متـــن حبـــنا قـــد رحلـــنا ∴ ومضيـــنا إلـــى أجـــل مكـــان [٢٦٨]

كما نستمع إليه – وهو يكشف لنا عن تلك النظرة ذاتها والتى بدت متحققة – بجلاء – فى ثنايا تلكم الدراسة – من خلال تلك الكلمات النثرية الرقيقة التى قدم بها لأحد دواوينه فى المرأة : " إلى حواء " حيث يقول :

حـــــواء فـــــى حيـــــاة آدم
تعنـــــــــى العطـــــــــاء ...
ومـــــا أعظـــــم كلمـــــة العطـــــاء!!
حـــــواء تعنـــــى الأمومـــــة ..
ومـــــا أعظـــــم كلمـــــة الأمومـــــة !!
حواء تعنى السكن.. والمودة .. والرحمة .
ومـــــن ذا الـــــذى لا يريـــــد الســـــكن
والمـــــــــودة والرحمـــــــــة ؟!

---

(٢٦٧) ديوان : إلى حواء – صـــ ٦١ .
(٢٦٨) المصدر السابق – صـــ ٢٢ ، ٢٣ .

حـــواء عـــالم لـــه كيانـــه الخـــاص ..
وعطاؤهـــــا يظـــــل عظيمـــــاً
مـــا حافظـــت علـــى ذلـــك الكيـــان
هـــــــذه حـــــــواء ..[٢٦٩]

رابعا: الدارس لتجارب الشاعر فى المرأة يلحظ أنه بإزاء محب يسمو بعاطفة الحب ، ويعلو ويُحلِّق بها نحو السماء ، خالعاً عليها مسحة علوية .. حيث ينشد فى المرأة روحها لا جسدها، ويهيم بها عذاباً ووجداً –لا كياناً وجسداً، مُزيناً تلك التجارب ومُؤتزراً خلالها – بالعفاف والطهر ، والفضيلة والرشد .. ، فهو القائل ينبئ عن طبيعة نظرته للمرأة ، وفلسفته فى الحب والهوى :

يـا نبتـة فـى ريـاض الحـب سـامقة ∴ أبرمـت فـى ظلـها عهـدى وميثـاقى
لا تحسـبى أن حـبي سـوف يجعلنـى ∴ أقـر نفسـى علـى عصـيان خلاقـى[٢٧٠]

والقائل :

يـــا وردة مـــا اســـطعت ألمســـها ∴ أخشـــى بـــأن يفســـدها اللمـــس [٢٧١]

والقائل :

للطهـــــر فـــى أعمـــــاقنا ألـــــق ∴ يســـمو بنـــا ولجرحنـــا يأســـو [٢٧٢]

والقائل :

حـــب فـــإن مســـته كـــف الخـــنا ∴ فقـــد غـــدا ضـــرباً مـــن العهـــر!
وهـــل يكـــون الحـــب ذا قيمـــة ∴ إذا خـــلا مـــن لـــذة الطهـــر؟![٢٧٣]

والقائل :

حبـــى الطـــاهر أســـمى هدفـــاً ∴ فأعيـــــذيه بـــــرب الفلـــــق !!
أشـــــهد الله علـــــى عفتـــــه ∴ وعلـــى الطهـــر وحســـن الخلـــق
عبـــث منـــى إذا حـــاولت أن ∴ أصـــف الوجـــه وحســـن الحـــدق
فليكـــن وجهـــك بـــدراً ساطعـــاً ∴ ولـــيكن شـــعرك مثـــل الشـــفق[٢٧٤]

---

(٢٦٩) ديوان : إلى حواء – المقدمة .
(٢٧٠)المصدر السابق – صـ ١٥٥ .
(٢٧١)السابق ذاته – صـ ٨٥ .
(٢٧٢) السابق ، والموضع ذاته .
(٢٧٣)ديوان : إلى حواء – صـ ٦١ .

خامساً : تكشف تلك الدراسة عن حب الشاعر الشديد لدينه ، وتؤكد غيرته الكبيرة على حُرمته ، والذود عن عرينه ، والذبّ والمنافحة عن حياضه ، وذلك من خلال تلك التجارب التى أماط فيها اللثام عما يدبره أعداء الدين الناقمون المرجفون ، ويحوكه أولئك المغرضون المبغضون للمرأة المسلمة من الدعوة إلى العُري والابتذال ، والخلاعة والسقوط ، والتهتك والمجون باسم التمدين ، والتحضر المزعوم ، واللحاق بركب التقدم والمدنية الزائف .. حيث يدس هؤلاء اللئام للمرأة المسلمة السُّم فى العسل ، فتنخدع الكثير من النساء المسلمات فتقعن من ثم فى شباك ذلك الصيد الرَّخيص .. وهنا يقف الشاعر من المرأة المسلمة موقف الناصح الأمين يحذرها من سلك ذلك السبيل ، ويخوَّفها من أضرار عاقبته، حيث لا تجنى من ورائه سوى الخزي والعار ، والفضيحة والبوار .

سادساً : تكشف – بعض تجارب الشاعر فى المرأة عن ارتباطه العميق بوطنه الإسلامي الكبير ، واعتنائه بقضاياه ، وتبنيه لأحداثه .. حيث رأيناه فى إحدى تجاربه فى زوجه يمزج بين تصوير ما ينتابه من مشاعر الشوق والحنين إزاءها ، وبين ما يؤلم نفسه ، ويحزن فؤاده ، ويدمى قلبه مما يراه ويشاهده من مآسٍ تحيق بالمسلمين على أرض الفلبين فى أثناء إقامته فيها .

حيث يقول مناجياً زوجته البعيدة ، باثاً بين يديها ما ينتابه ، ويعتصره من مشاعر حزينة ، وأحاسيس أليمة – إزاء ما يتعرض له مسلمو الفلبين من اضطهاد وتعذيب ، وإيلام وتشريد :

أنا فى الفلبين بين رياض ∴ تُحرك شوقى وتُحيى شعورى
أراك هنا فى جمال الروابي ∴ أراك هنا فى ابتسام الزهور
وأسمع صوتك حين تغنى ∴ بلابلها فيغنى سرورى
وألح حولي ضحايا المآسى ∴ من المسلمين فيحزن قلبي
وأمكث ما بين شوق إليكم ∴ وما بين حزن عليهم وكرب
وما حيلتى فى فؤادٍ وفيٍ ∴ توزع ما بين حزن وحب ؟!
هنا فى الفلبين تنهش قلبي ∴ دماء تُراق وظلم عظيم
لنا إخوة هاهنا يا حياتى ∴ يذوب عليهم فؤادى الكليم
تذكرت بعدك فازددت حزناً ∴ وشاهدتهم فاعترتنى الهموم

(٢٧٤) المصدر السابق ذاته – صـ ١٠٣.

بربـــك لا تغضـــبى مـــن حـــديثى ∴ فأنـــت شـــريكة بؤســـى وأُنســـى
لقـــد سمعـــت أذنـــاي قلـــوباً ∴ تـــئن وتشـــكو فتخـــرج حســـى
يعـــذبنى مـــا أرى مـــن حقـــوق ∴ تضـــيع ، فكيـــف أُصـــبِّر نفســـى؟![٢٧٥]

سابعاً: تُعطينا تلك الدراسة – فى مجملها – صورة شاعر مسلم ملتزم حتى النخاع قد هذب الإسلام عواطفه ، وضبط أحاسيسه ، ووجه مشاعره ، وسما وارتقى بها نحو مراتب عليا من العفاف والطهر ، والفضيلة والسمو ، منطلقاً فى ذلك – من خلال تصور الإسلام الراشد الحكيم للإنسان والكون والحياة .

ثامناً: تتسم أفكار الشاعر ومضامينه بالوضوح والجلاء ، وتبتعد عن التعمية والخفاء ؛ حرصاً منه على إيصال مضامينه ورؤاه .. حيث يعد من أصحاب الكلمة الملتزمة التى تبغى الحق والصدق ، وتنشد البناء والخير .. وإن كان يؤخذ على الشاعر إيغاله ومبالغته فى الوضوح والجلاء فى بعض الأحيان ، لدرجة تهوى به بعض تجاربه فى مهاوى السطحية والسذاجة ، وتقترب من لغة الخطابة والوعظ – تلكم التى يغلب عليها المباشرة والتقريرية

تاسعاً: الناظر لافتتاحات الشاعر – فى أكثرها– خلال تجاربه فى المرأة يبدو له عنايته الفائقة بها .. حيث يتحقق فيها ما يتحقق فى المطالع الجيدة من كونها دالة على الموضوع الرئيس للقصيدة ، منسجمة معه ، منبئة عن طبيعته من أول نظرة . بجانب حرص الشاعر على تزيين الكثير الهائل منها بتلك النغمة الموسيقية الآسرة الآخاذة .. التصريع – مما يثرى الإيقاع ، ويضاعف من النغم ، ويزيد فى الموسيقى..فتسر منه وتستريح لوقعه النفس، وتطرب وتأنس له الأذن، بجانب دلالة المطلع المصرع على القافية، وإنبائه عنها من أول بُرهة.

عاشراً : يمكننا أن نصنف الشاعر – خلال بنائه الموسيقي فى الكثير الغالب من قصائده فى المرأة – ضمن الشعراء التقليديين الذين حرصوا على الالتزام بالوزن والقافية الموحدين، معتزاً فى ذلك بالتراث العربي الخالد ، ومحافظاً – من ثم على ثوابته وتقاليده، وسماته وأعرافه .. وإن كان نزع أحياناً إلى التجديد فى إطاره الموسيقي، ماساً إياه برفق وتؤدة .. حيث ظهر فى تجاربه فى المرأة بعض القصائد النادرة التى أخذت شكل المقطوعات التى تتغير القافية فيها فى كل مقطوعة – خلال القصيدة الواحدة، مع الالتزام بوزن واحد .. بجانب تلك القصيدة الوحيدة خلال شعره فى المرأة تقريباً التى بناها الشاعر على تفعيلة الشعر الحر – ذلك الذى لا يتقيد

(٢٧٥) ديوان : إلى حواء – صـ ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ .

بوزن ولا قافية موحدين ، قافزاً فى ذلك نحو التجديد والحداثة بخطى حثيثة ، ومسرعاً إليهما بخطوات وثابة .

حادي عشر: اتسمت عاطفة الشاعر – خلال تجاربه فى المرأة فى الكثير الهائل منها بسمات القوة والصدق ، والشرف والسمو ، والحرارة والتدفق – من شأنها أن تحلق بأذواق المتلقين ، وتسمو بمشاعرهم إلى حيث الفضيلة والرقي ، والطهر و السموّ ، غارسة فيهم مشاعر إيجابية حث الإسلام عليها ، وغرسها فى نفوس المسلمين، ودعاهم إلى النزول على هديها .. من مثل البر بالأم ، والإحسان إليها – وغير ذلك من العواطف الإنسانية النبيلة الراقية التى انبعثت من ذات وكيان الشاعر الراقية .. حيث يمكننا أن نصنف تجارب الشاعر ، وعاطفته خلالها ضمن : ذلك الأدب الذى يُهذِّب النفس ، ويرقى بالحس ، ويسمو بالروح ، ويغذى الوجدان ، ويرقق المشاعر ، ويُحلق بالإنسان فى عالم من النبل والطهر ، والسمو والرفعة ، والكمال بما – يتوافر فيه من كنوز خبيئة ، وما يحمله من خصائص إسلامية ، وغايات إيمانية ، وقيم أخلاقية من شأنها أن تسمو بالأجيال ، وترقى بهم ، وتأخذ بأيديهم نحو النهضة والبناء .

وفى الختام أرجو من ربي – جز وعز – أن أكون قد وفقت فى إتمام تلك الدراسة ، وهديت إلى استيفاء جزئياتها ، ومعالجة مفرداتها ، وإعطائها ما تستحقه من المناقشة والتحليل .. آملاً منه سبحانه وتعالى – أن تكون لبنة تسهم فى بناء صرح أدب العربية الشامخ العامرة سنونه ، الممتدة دهوره .. وأن يجد فيها شداة العربية ، وأرباب البحث فى أدب العرب الثمرة المرجوة ، والفائدة المنشودة " إنه سبحانه – أعظم مرجو ، وأرجى مأمول ، وأكرم مسئول .. والحمد لله فى الأولى والآخرة .

الباحث
د/مصطفى عبد اللطيف أحمد أبوطه

ثبت بمصادر الدراسة ومراجعها

القرآن الكريم – كلام الله رب العالمين

١ – الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر – د/ عبد القادر القط – ط دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨١م .

٢ – الأدب وفنونه – د/ محمد مندور – ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة .

٣ – أساليب البيان والصورة والقرآنية – دراسة تحليلية لعلم البيان – د/ محمد إبراهيم شادى – ط دار والى الإسلامية – المنصورة – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م .

٤ – أسرار البلاغة–الإمام عبد القاهر الجرجانى–تحقيق د/محمد عبد المنعم خفاجى–ط مكتبة القاهرة– د.ت.

٥ – أسس النقد الأدبي عند العرب – د/أحمد أحمد بدوي – ط نهضة مصر للطباعة والنشر – الفجالة – القاهرة – ١٩٧٩م .

٦ – الأسلوب – أحمد الشايب – ط المكتبة الفاروقية – الاسكندرية .

٧ – أصول النقد الأدبي – أحمد الشايب – ط مكتبة النهضة المصرية .

٨ – إلياذة هوميروس – سليمان البستاني – ط دار إحياء التراث العربي – ط دار المعرفة .

٩ – بناء القصيدة العربية فى النقد العربي القديم فى ضوء النقد الحديث د/يوسف حسين بكار – ط دار الأندلس – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية – ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

١٠ – التجربة الشعرية بين النظرية النقدية والتطبيق النصي : د/ ناجى فؤاد بدوى – ط دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع – الزقازيق – الطبعة الأولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

١١ – التجربة الشعرية عند المتلقى:د/عبد اللاه محمود حسن– مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى – ١٩٨٩م .

١٢ – التصوير الفني فى القرآن – سيد قطب – ط دار المعارف .

١٣ – التكرار فى شعر الخنساء–د/عبد الرحمن الهليل– ط دار المؤيد– الرياض– الطبعة الأولى– ١٤١٩هـ .

١٤ – التكرير بين المثير والتأثير–د/عز الدين على السيد–عالم الكتب– بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ .

١٥ – التيار الإسلامي فى شعر عبد الرحمن العشماوى – سهيلة زين العابدين حماد – الناشر – مكتبة العبيكان – الرياض – السعودية – الطبعة الأولى – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .
١٦ – حسن كامل الصيرفي وتيارات التجديد فى شعره – د/ محمد سعد فشوان – الناشر مكتبة الكليات الأزهرية – الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .
١٧ – الدرّ المنثور: للإمام السيوطي – ط دار المعرفة – د.ت .
١٨ – دراسات فى النص الشعري :د/ عبده بدوي – ط دار الرفاعى – الرياض– الطبعة الثانية ١٩٨٤م .
١٩ – دراسات لغوية صوتية بلاغية – د/ عبد الجواد محمد طبق – الطبعة الثانية ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .
٢٠ – ديوان : إلى حواء – د/عبدالرحمن صالح العشماوى ط مكتبة العبيكان – الرياض – الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .
٢١ – ديوان : صراع مع النفس – د/عب الرحمن صالح العشماوى ط مكتبة العبيكان – الرياض – السعودية – الطبعة الثانية – ١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م.
٢٢ – ديوان: هي أمي: د/عبد الرحمن صالح العشماوى – مكتبة العبيكان – الرياض – الطبعة الأولى – ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م .
٢٣ – رسائل القاضي الفاضل – دراسة تحليلية– د/ محمد عبد الرحمن عطاالله – تقديم د/ محمد زغلول سلام – الناشر دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ٢٠٠٠م .
٢٤ – السفور والحجاب فى مرآة الشعر الحديث :د/ صادق على حبيب – مركز آيات للطباعة والكمبيوتر – الزقازيق – الطبعة الأولى ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م .
٢٥ – سنن ابن ماجة – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – ط دار إحياء التراث العربي – د .ت .
٢٦ – سنن أبى داود – بدون تحقيق – ط دار الحديث – القاهرة – د.ت .
٢٧ – سنن الترمذي – تحقيق صدقى محمد جميل العطار – ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – د.ت .
٢٨ – سير أعلام النبلاء : للذهبي – تحقيق صلاح الدين المنجد – معهد المخطوطات – د.ت .
٢٩ – الشعر العربي المعاصر – روائعه ومدخل لقراءته – د/ الطاهر أحمد مكى – ط دار المعارف – القاهرة ١٩٨٦م .
٣٠ – الشعراء وإنشاد الشعر – د/ على الجندي – ط دار المعارف – مصر ١٩٩٩م .

٣١ – الصناعتين : لأبي هلال العسكري – تحقيق على محمد البجاوي – محمد أبوالفضل إبراهيم – مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – الطبعة الثانية ١٩٩٧م .
٣٢ – الصورة الأدبية تاريخ ونقد – د/ على على صبح – ط دار إحياء الكتب العربية د . ت .
٣٣ – الصورة والبناء الشعري د/ محمد حسن عبد الله – ط ١٩٨١م .
٣٤ – عضوية الموسيقى فى النص الشعري – د/ عبد الفتاح صالح نافع – ط مكتبة المنار – الأردن – ١٩٨٥م .
٣٥ – علاقة الأدب بشخصية الأمة: د/عبد الرحمن صالح العشماوي – ط مكتبة العبيكان– الرياض – السعودية – الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .
٣٦ – علم المعانى :د/ درويش الجندي – ط دار نهضة مصر للطبع والنشر .
٣٧ – العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – ط بيروت ١٩٧٢م .
٣٨ – عمل الناقد: د/ عبد اللاه محمود حسن – الطبعة الأولى – ١٩٨٨م .
٣٩ – عن بناء القصيدة العربية الحديثة – د/ على عشرى زايد – الناشر – مكتبة الشباب – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧ م .
٤٠ – الغزل فى العصر العباسي الأول – تأليف الدكتور/ عبد الهادي عبد النبي على أبو علي – الطبعة الأولى – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .
٤١ – فن التقطيع الشعري والقافية: د/ صفاء خلوصى – مطابع دار الكتب – بيروت – الطبعة الرابعة – ١٩٧٤م .
٤٢ – فى النقد الأدبي الحديث :د/ محمد إسماعيل شاهين – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م .
٤٣ – فى النقد الأدبي عند العرب – إلى نهاية القرن السادس الهجري – د/محمد طاهر درويش – ط دار المعارف – سنة ١٩٧٩م .
٤٤ – فى ميزان النقد الأدبي – د/طه مصطفى أبو كريشه – ط المليجي – ١٩٧٦م .
٤٥ – القافية تاج الإيقاع الشعري – د/ أحمد كشك – ط مكتبة الفيصلية – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .
٤٦ – قضايا الشعر المعاصر – نازك الملائكة – ط دار العلم للملايين – الطبعة الخامسة ١٩٧٨م .
٤٧ – كتاب القوافى : لأبي على الحسن على بن عثمان الإربلي ٦٠٢– ٦٧٠هـ – دراسة وتحقيق د/ عبد المحسن فرّاج القحطاني – الناشر – العربية للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

٤٨ – لسان العرب : للإمام العلامة : ابن منظور– ط دار الحديث – الطبعة الأولى– ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م .
٤٩ – مجلة فصول – مجلد ٣– عدد ١ – اكتوبر – نوفمبر – ديسمبر١٩٨٢م.
٥٠ – محمد السنهوتى – شاعراً – رسالة ماجستير – د/ حسن عطيه طاحون – مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بالزقازيق .
٥١ – محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة – د/ صابر عبد الدايم – ط دار المعارف د.ت .
٥٢ – معجم :البابطين للشعراء العرب المعاصرين– جمع وترتيب المعاجم–الطبعة الأولى–١٩٩٥م .
٥٣ – المعجم المفصل فى علم العروض والقافية وفنون الشعر – د/إميل بديع – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩٧م .
٥٤ – المفضليات : المفضل بن محمد بن يعلى الضبي– ديوان العرب–مجموعات من عيون الشعر– تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون– طبعة دار المعارف – الطبعة السادسة– د. ت .
٥٥ – موسيقى الشعر بين الثبات والتطور د/ صابر عبد الدايم – ط مكتبة الخانجى – القاهرة – الطبعة الثالثة– ١٩٩٣م .
٥٦ – موسيقى الشعر –د/إبراهيم أنيس–مكتبة الأنجلو–الطبعة الثالثة– ١٩٦٥، والطبعة الخامسة – ١٩٨١ م.
٥٧ – النقد الأدبي الحديث – أصوله ومناهجه :د/ سيد قطب –ط دار الشروق – القاهرة – الطبعة الخامسة – ١٩٨٣م .
٥٨ – النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال – ط نهضة مصر– ١٩٧٧م .
٥٩ – النقد الأدبي فى مذاهبه وقضاياه د/عبد الفتاح على عفيفي – طبعة١٩٨٧م.
٦٠ – النقد الأدبي وقضايا الشكل الموسيقى فى الشعر الجديد – د /على يونس – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٥م .